مكتبة المعالي
٢٢
نسخ وتصوير
طباعة ليزر ملون
طباعة رسائل علمية
أبحاث عربي وانجليزي
مشاريع تخرج
تغليف سلك وحلزوني
ترجمة إنجليزي وعربي
تصاميم فوتو شوب
تغليف فاخر- حراري
مشاريع برمجية
خدمات إنترنت
تصميم مجلات

مقرر تاريخ العقيدة الاسلامية

د. محمد رفيق

الإسم ....

الشعبة..............................

هذه المذكرة موجودة في مكتبة المعالي

Email : maali263@yahoo.com

الموقع / حي الفيصلية – أمام مركز شرطة الفيصلية – جوار استراحة الخفجي – خلف كلية البنات | للإستفسار والتواصل واتساب / ٠٥٥٣٢٥٩٠٢٩ ت: ٠١٤٨٣١٤٤٩٦

د/ محمد رفعت

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة طيبة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم الدراسات الإسلامية

مقرر

تأريخ العقيدة الإسلامية

مفردات المقرر :

- تعريف العقيدة لغة واصطلاحا، وما يندرج تحتها من مطالب إلهية.
- التوحيد أولاً قبل الشرك، وتاريخ حدوث الشرك.
- إجماع الرسل على الدعوة إلى العقيدة وتوحيد الله تعالى.
- دعوة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ابتداء من آدم عليه الصلاة والسلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على وجه التفصيل.
- الطوائف التي خالفت العقيدة الصحيحة من الأديان السابقة.
- عقيدة أهل السنة والجماعة (الفرقة الناجية) .
- نشوء الخلاف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.
- نشاة الخلاف العقدي بين الناس وظهور المقالات والفرق وتطورها ، وموقف أهل السنة من ذلك.
- مرحلة تدوين العقيدة.
- دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
- دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله. وأثرها في العالم الإسلامي.

متى وكيف كانت بداية الشرك في هذه الأمة

إن الله عز وجل أنعم على هذه الأمة حيث بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الثقلين عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ [المائدة: ١٩]، وقد ((مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب)) رواه مسلم (٢٨٦٥). من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه. ، والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب مبدل أو منسوخ، ودين دارس بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أمي: من عربي وعجمي.

فمنهم من بحث عن الحنيفية واعتصم بها، ولكن أغلبهم كانوا مقبلين على عبادة ما استحسنوه، وظنوا أنه ينفعهم؛ من جن، أو وثن، أو قبر، أو تمثال أو غير ذلك؛ والناس في جاهلية جهلاء: من مقالات يظنونها علماً وهي الجهل، وأعمال يحسبونها صلاحاً، وهي فساد، وعبادات يحسبونها من عند الله، وهي من ما زينت لهم الشياطين وتهواها نفوسهم، ووجدوا عليها آباءهم.

فهدى الله الناس بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم هداية جلت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، وفتح الله بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، بعد أن جاهدهم وجالدهم باللين والحكمة، وقارعهم بالسنان والحجة لمن كابر وعاند، وكان من أمره صلى الله عليه وسلم مع قريش ما كان، حتى هاجر إلى المدينة، وكان نصر الله حليفه، فاستقام أمره، وظهر دينه، فجاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وجمعهم الله على دين الإسلام؛ دين التوحيد، والملة الإبراهيمية الحنيفية بعد تشتت تام، وعداوة كاملة، وانهيار خلقي، وانحلال ديني، وفساد عقدي.

فألف بين قلوبهم حتى أصبحوا بنعمة الله إخواناً، وكسرت الأوثان والأصنام، وزالت عبادتها على أصنافها، فطمست التماثيل، وسويت القبور المشرفة، وأزيلت المعبودات من دون الله من قبر، وشجر، وحجر، ونصب، وصنم، ووثن، وأبطلت.

وتحررت العقول من دناءة تفكيرها، ووضاعة تصورها، فارتقت إلى التوحيد بعد أن كانت في حمأة الشرك، وأصبحت قلوبهم متجهة إلى الله وحده لا شريك معه غيره؛ لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فأتم الله أمره، وأكمل دينه، وأعلا كلمته، حتى صار الدين كله لله.

فلما تمت نعمة الله عليه وعلى أمته وظهر ما جاء به من الحق، ووضحت الطريقة توفاه الله جل وعلا إليه، والإسلام في تقدم وشوكة تامة وغلبة كاملة، ليظهر على الدين كله.

وكان الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – يأخذون سلوكهم وأعمالهم وعقائدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحياته هي الإسلام غضاً طرياً، وقد نزل القرآن الكريم بلغتهم ففهموا ما أراد الله منهم، وما احتاج إلى بيان بينه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته، فكان الناس أمة واحدة ودينهم قائم في خلافة أبي بكر وعمر، فلما استشهد باب الفتنة عمر رضي الله عنه، وانكشف الباب، قام رؤوس الشر على الشهيد عثمان حتى ذبح صبراً، وتفرقت الكلمة، وتمت وقعة الجمل ثم وقعة صفين، فظهرت الخوارج وكُفِّر سادة الصحابة، ثم ظهرت الروافض والنواصب.

وكان السبب في ذلك أنه كان هناك دولتان عظيمتان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهما: فارس، والروم، وقد كسر الله شوكتهم، وأزال ملكهم بأيدي الصحابة، وفي عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، فلما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد في آسيا، وإفريقيا، وغيرها، دخل تحت حكمه أمم كثيرة رغبة ورهبة، وكان لها أديان مختلفة، من يهودية ونصرانية، ومجوسية ووثنية، وغير ذلك.

وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير مثل المجوس، والرومان، فسلبهم المسلمون ذلك، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء ما يجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين، ولا سيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم، وأقلها شأناً.

كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء، وحاولوا القضاء عليه بأنواع جهدهم وكيدهم إلى الدسائس، والمؤامرات، والاغتيالات لرجاله العظام، ودخل في الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصد إفساده، وتمزيق وحدة أهله، ولابد أن يكون عن دراسة، وإعمال فكر وتخطيط، وربما يكون هناك جمعيات متعاونة، من المجوس والنصارى، والهنود، وغيرهم، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين، لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين إلا بإفساد عقيدتهم.

فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر، شيئاً فشيئاً، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيد مجوسية، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية، ثم قتل الخليفة الذي بعده، بأيد مشبوهة، من غوغاء، بدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس راجع لما تقدم ما ذكره كل من الإمام ابن حزم في ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) (٢/١١٥، ١١٦). والشهرستاني في ((الملل والنحل)) (١٠/١٥-٢٢). والذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (١١/٢٣٦). والمقريزي في ((الخطط)) (٢/٣٣١-٣٤٣، ٣/٣٠٩-٣٤٣). وشيخنا عبد الله محمد الغنيمان في ((شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري)) (١/٣-١٩). و((مقدمة الدكتور علي بن محمد بن ناصر فقيهي في تحقيقه لكتاب الإيمان لابن مندة)) (١/٤-٧).

قال الإمام ابن حزم: (الأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا على سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر في أنفسهم، حتى أنهم يسمون أنفسهم الأحرار

والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم، على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم خطراً، تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة، في أوقات شتى،... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجح.

فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستشناع ظلم علي —رضي الله عنه—، ثم سلكوا بهم مسالك شتى، حتى أخرجوهم عن الإسلام، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلاً ينتظر يدعى المهدي، عنده حقيقة الدين، إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار، وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعى له النبوة، وقوم سلكوا بهم... القول بالحلول، وسقوط الشرائع.

وآخرون تلاعبوا بهم، وأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة... وقد سلك هذا المسلك أيضاً عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي، فإنه —لعنه الله— أظهر الإسلام ليكيد أهله، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان — رضي الله عنه—...

ومن هذه الأصول الملعونة، حدثت الإسماعيلية، والقرامطة، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة، قائلتان بالمجوسية المحضة، ثم مذهب مزدك الموبذ،... فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا، إذ هذا هو غرضهم فقط) ابن حزم الأندلسي في ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) (٢/١١٥-١١٦)، والبغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٥٨٤، ٢٨٥)، والديلمي في ((قواعد آل محمد)) ((بيان عقيدة الباطنية وبطلانها)) (ص: ١٩). .

فأول فرقة ظهوراً هي الشيعة، وكانت الخوارج أيضاً في نفس الوقت ظهرت كفرقة مستقلة، وإن كان لكل منهما وجود قبل هذا ولكن بصفة متفرقة، فهاتين الفرقتين لهما السبق في تفريق جمع هذه الأمة.

قال الشهرستاني: (ومن الفريقين ابتدأت البدع والضلالة... وانقسمت الاختلافات بعده إلى قسمين:

أحدهما: الاختلاف في الإمامة.

والثاني: الاختلاف في الأصول... والاختلاف في الإمامة على وجهين:

أحدهما: القول بأن الإمامة بالاتفاق والاختيار، والثاني: القول بأن الإمامة تثبت بالنص والتعيين...

وأما الاختلاف في الأصول فحدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني، وغيلان الدمشقي،... في القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر...) الشهرستاني: ((الملل والنحل)) (١/١٧-٢٢). ، فتبرأ ابن عمر رواه مسلم (٨). وابن عباس رواه ابن أبي عاصم في ((السنة)) (ص: ٧٩)، وفي ((الأوائل)) (ص: ٥٩)، والآجري في ((الشريعة)) (ص: ٢٣٨)، واللالكائي في ((شرح اعتقاد أهل السنة)) (ص: ١١١٦). وغيرهما ممن يقول بهذه المقالة. ثم حدثت بدعة الإرجاء، ثم حدثت بدعة الجهم بن صفوان ببلاد المشرق، فعظمت الفتنة به، فإنه نفى أن يكون لله صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولد منها بلاء كبير.

وفي أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال على يد واصل بن عطاء، كمسلك فكري، بنت هذه الفرقة مذهبها على الجدل، واستعانت في ذلك بما وجدته من منطق اليونان وفلسفتها لتعزيز آرائها، وغيروا كثيراً من مفاهيم العقيدة، وأصلوا لبدعتهم أصولاً توافق عقولهم وأهواءهم.

ثم تطورت هذه المذاهب السياسية والفكرية وتشعبت حتى خرجت بعض هذه الفرق عن دائرة الإسلام، كما هو معلوم.

بداية الانحراف الشركي في هذه الأمة في الربوبية بالتعطيل:

بعد استعراض أقوال العلماء في كيفية انحراف عقيدة هذه الأمة يحسن بنا أن نتعرف على بداية الانحراف الشركي في الربوبية بالتعطيل: سواء كان في أسماء الله أو صفاته أو أفعاله.

ولعل أول شرك منظم في هذه الأمة في هذا الجانب — على ما نص عليه العلماء — هو شرك القدرية انظر ما ذكره ابن أبي العز في ((شرح الطحاوية)) (١/٣٢٢). الذين أنكروا القدر، فأشركوا في الربوبية بتعطيل صفات الله عز وجل وأفعاله. فإن إنكار القدر يتضمن إنكار كثير من الصفات والأفعال، كما أنهم أثبتوا خالقين.

ولهذا قال ابن عباس —رضي الله عنهما—: (هذا أول شرك في هذه الأمة) رواه الإمام أحمد في ((المسند)) (١/٣٣٠): قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/٢٠٧): [روي] من طريقين وفي إحداهما رجل لم يسم وسماه في الأخرى العلاء بن الحجاج ضعفه الأزدي. وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٥/٢١): إسناده ضعيف [وروي من طريق آخر إسناده حسن على الأقل]. وضعفه الألباني في ((شرح الطحاوية)) (٢٥٠). .

وقال ابن عمر —رضي الله عنهما— فيهم: (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر) رواه مسلم (٨). .

وأول من عرف بذلك رجل مجوسي يقال له: سيسويه، من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهني انظر ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في ((مجموع فتاواه)) (٣٨٤/٧)، وما ذكره المقريزي في ((الخطط)) (٣٦٠/٣).

ثم ظهر شرك التعطيل في أسماء الله وصفاته، بأنه ليس لله أسماؤه الحسنى، وأنه لا يوصف بشيء مما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يحب أحداً من عباده، ولا يتكلم وليس له يد ولا وجه، وكان أول من عرف بذلك رجل يقال له: الجعد بن درهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أصل هذه المقالة — مقالة التعطيل للأسماء والصفات— إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضلال الصابئين، فأول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة... في الإسلام: هو الجعد بن درهم، فأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم) ابن تيمية: ((مجموع فتاواه)) (٢٠/١٤)، وانظر ما نقله عنه ابن عبد الهادي في ((العقود الدرية)) (ص: ٨٥). فهذه سلسلة يهودية لها سوابق في محاربة الإسلام.

روى البخاري في خلق أفعال العباد، بسنده، قال: قال خالد بن عبد الله القسري في يوم أضحى: (ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد ابن درهم، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم)، ثم نزل فذبحه. قال أبو عبد الله: قال قتيبة: إن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم) البخاري: في ((خلق أفعال العباد)) (ص: ٢٩، ٣٠)، ورواه عثمان بن سعيد الدارمي في ((الرد على الجهمية)) (ص: ٢٥).

فتبين من هذا أن الإلحاد أو شرك التعطيل في الربوبية بتعطيل الأسماء والصفات والأفعال ما هو إلا مؤامرة يهودية سيقت بغية إفساد العقيدة الصحيحة النقية للإسلام، كما بينا أن هذا الرفض أول من عرف من دعاته يهودي ماكر حاقد وهو ابن سبأ.

والمقصود: بيان كون الشرك الذي يتعلق بذات الرب سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله بالتعطيل أول ما حدث في تاريخ الإسلام من قبل هؤلاء القدرية في زمن صغار الصحابة، ومن قبل هؤلاء الجهمية بعدما ذهب أئمة التابعين — رضوان الله عليهم أجمعين راجع ما قاله شيخ الإسلام في ((مجموع فتاواه)) (٣٤٧/٤-٣٥٧)، وفي كتابه ((تفسير آيات أشكلت على كثير من الناس..)) (٧٧٤/٢، ٧٧٥).

وفي أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال على يد واصل بن عطاء؛ فأنكر صفات الله عز وجل متأثراً بالجهمية، فهؤلاء المعتزلة نفوا أن يكون الله عز وجل خالقاً لأفعال العباد، وأثبتوا صفة الخلق لأفعال العباد، وأثبتوا صفة الخلق لأفعال العباد للعباد الضعفاء، وحرفوا الآيات القرآنية الدالة على الصفات وخلق الله لأفعال العباد، وجعلوا الأحاديث الصحيحة التي تدل على خلق الله سبحانه لأفعال العباد ظنية غير موجبة للعمل، تلبية لدعوة هواهم في إثبات آرائهم الفاسدة، وجمعوا بهذه الأعمال الشنيعة بين شرك تعطيل الصفات مع شرك تعطيل الأفعال، فما عبدوا إلا المعدوم، وما أشبهوا إلا المجوس.

وتأثر بهم ابن كلاب، فهذب مذهب الاعتزال وحاول تقريبه إلى مذهب أهل السنة في الصفات، ولكن لم يتخلص منهم، ثم ظهر في الساحة الإمام الأشعري، وكان أخذ عن الجبائي المعتزلي في أول الأمر، ولكنه سرعان ما رجع إلى مذهب ابن كلاب، فألف ودافع عنه، فهؤلاء الأشاعرة المنسوبة إلى الإمام الأشعري كلهم من أتباع ابن كلاب في الحقيقة، وهم من المتأثرين بالمعتزلة في الصفات حيث لم يتخلصوا من شرك التعطيل.

ومن الذين تأثروا بمذهب المعتزلة والجهمية في زمن الأشعري: أبو منصور الماتريدي، حيث إنه أخذ مذهب الاعتزال وأراد أن يتخلص منه، ولكن فاته الحظ الأوفر من مذهب السلف في الصفات، فلم يسلم من شرك التعطيل في صفات الله جل وعلا من جميع الوجوه، وهؤلاء الماتريدية المنسوبون إليه إلى يومنا هذا كلهم واقعون في شرك تعطيل بعض صفات الله جل شأنه شاؤوا أم أبوا.

والمقصود: أن هؤلاء الأشاعرة والماتريدية إنما تأثروا ببدعة الجهمية في إنكار الصفات وتأويلها وتعطيلها، وبهذا وقعوا في شرك التعطيل من غير أن يشعروا، ورائدهم في ذلك: جهم بن صفوان الذي ابتدع هذه البدعة في زمان أئمة التابعين وأتباعهم.

وفي نفس الوقت حدث في الساحة شرك التشبيه بالله جل شأنه، فسموا مشبهة، وهم صنفان: صنف شبهوا ذات الباري بذات غيره، وصنف آخر شبهوا صفاته بصفات غيره، وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى انظر ما ذكره الأشعري في ((مقالات الإسلاميين)) (١٠٦/١-١٠٩ و٢٨١/١- ٢٩٠)، والبغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٦٥-٧١ و ٢٢٥-٢٣)، والشهرستاني في ((الملل والنحل)) (٩٢/١-٩٩).

فأما الذين شبهوا ذات الباري بذات غيره، فسيأتي ذكرهم في شرك الأنداد، وأما الذين يشبهون صفاته بصفات المخلوقين فهم الذين وقعوا في شرك التعطيل — تعطيل الصفات — إذ إن كل مشبه معطل، فهؤلاء المشبهة كثيرون، ولعل من أوائلهم: (هشام بن الحكم الرافضي الذي شبه معبوده بالإنسان، وزعم

لأجل ذلك أنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وأنه جسم ذو حد ونهاية) البغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٢٢٧). .

وتبعه (هشام بن سالم الجواليقي الذي زعم أن معبوده على صورة الإنسان، وأن نصفه الأعلى مجوف، ونصفه الأسفل مصمت، وأن له شعرة سوداء وقلباً ينبع منه الحكمة) البغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٢٢٧). . تعالى الله عن هذه المقولات القبيحة علواً كبيراً.

وتبعهما الغالية من الرافضة في التشبيه انظر ما ذكره الأشعري في ((مقالات الإسلاميين)) (١/١٠٦-١٠٩)، وما ذكره البغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٦٥-٧٠)، وما ذكره الشهرستاني في ((الملل والنحل)) (١/٤٤-٥٦، ١/٩٢-٩٨). . كما تأثر بهما جماعة من المعتزلة، وجماعة من المنتسبين إلى أهل السنة.

وبعد ظهور شرك تعطيل الصفات بزمن يسير ظهر في الساحة شرك وحدة الوجود، وهو شرك تعطيل معاملة الله سبحانه بما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، قال ابن القيم: (ومن هذا شرك أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خلق وما خلق، ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه) ابن القيم: ((الجواب الكافي)) (ص: ٣١١). .

ولعل أول من قال بهذه المقالة الشنيعة في هذه الأمة هو الحلاج.

وتبعه كل من ابن الفارض، وابن عربي، وابن سبعين وغيرهم، والمتصوفة الطرقية عموماً.

فالحلاج هو القائل الأول بوحدة الوجود، وأما القائلون بالحلول والاتحاد فقد حاز السبق فيه أيضا ابن سبأ وأتباعه، فقد وجد هذان الشيئان في الغالية من الرافضة قديماً، وقد ذكر الأشعري والبغدادي والشهرستاني من ذلك شيئاً كثيراً انظر ما ذكره ((الأشعري في مقالاته)) (١/٦٦-٨٨)، والبغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ١٣، ٢٣٠، ٢٦٩)، والشهرستاني في ((الملل والنحل)) (١/١٤٥-١٧٧).

والمقصود: بيان أن هؤلاء أشركوا بالله جل وعلا بتعطيل حقيقة التوحيد، فمنهم من ادعى الألوهية لنفسه، ومنهم من ادعى الحلول، ومنهم من ادعى الاتحاد، كما أن فريقاً آخر منهم ادعى الوحدة، وهم أكفر وأشد تشريكاً بالله من اليهود والنصارى، فاليهود — مثلاً — قالوا بحلول الرب في ذات عزرا، وقالت النصارى بحلوله في ذات المسيح، ولكن هؤلاء قالوا بحلوله سبحانه في كل شيء حتى في أخبث الحيوانات وأنتن الأماكن والبقاعات.

فهذا استعراض مجمل لخط الانحراف العقدي الشركي في هذه الأمة في الربوبية التي تتضمن الشرك في الألوهية أيضاً — كما هو معلوم — بالتعطيل.

بداية ظهور شرك الربوبية بالأنداد في هذه الأمة:

لعل أول شرك في هذا الجانب هو شرك عبد الله بن سبأ انظر ما ذكره البغدادي في ((الفرق بين الفرق)) -حيث صدر بذكره في الخارجين من الإسلام- (ص: ٢٣٣). اليهودي حيث أشرك بالله جل شأنه في الربوبية بالأنداد في الذات. حيث غلا في علي — رضي الله عنه — حتى زعم أنه إله انظر البغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٢٣٣)، وانظر أيضاً ما ذكره المقدسي في ((البدء والتاريخ)) (٥/١٢٥-١٢٩)، وابن حجر في ((لسان الميزان)) (٣/٢٨٩-٢٩٠)، والذهبي في ((ميزان الاعتدال)) (٢/٤٢٦). ، كما أنه هو الرائد في الإشراك بالله في الربوبية بالأنداد في الصفات والأفعال؛ حيث زعم: أن علياً له الحياة الدائمة المطلقة، وله العلم المحيط بكل شيء، وله القدرة الكاملة الشاملة على كل شيء، وأنه هو الذي يقوم بمحاسبة الناس يوم القيامة، ويأتي بالأمطار، وسينتقم من أعدائه انظر ما ذكره ((الأشعري في مقالاته)) (١/٨٦-٨٨)، والبغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٢١-٢٣٣)، وما ذكره الشهرستاني في ((الملل والنحل)) (١/١٧٧). ، وغير هذه الاعتقادات الباطلة التي فيها شرك في الربوبية بالأنداد في الصفات والأفعال.

وبهذا نستطيع أن نقول: إن بداية ظهور شرك الربوبية بالأنداد في الذات إنما كان من عبد الله بن سبأ اليهودي، وتبعه أغلب الروافض الغلاة انظر ما ذكره البغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٢٣- ٢٤، و٢٢٥-٢٣٠، و٢٣٣-٢٦٦)، والأشعري في ((المقالات)) (١/٦٦-٨٨)، الشهرستاني في ((الملل والنحل)) (١/١٥١، ١٧٦-١٩١). ، والإسماعيلية، والعبيدية، والقرامطة، والنصيرية، والدروز، وغيرهم.

وأما الشرك في الربوبية بالأنداد في الصفات والأفعال فقد كان السبق فيه أيضاً لابن سبأ اليهودي، وقد سبق بيانه، ويشترك كل من أشرك بالله في الربوبية بالأنداد في الذات في الشرك بالله بالأنداد في الصفات والأفعال؛ لأن كل من أثبت إلهاً من دون الله أعطى له من صفات الربوبية وأفعاله ما شاء وما أراد راجع ما ذكره الأشعري في ((المقالات)) (١/٦٦-٨٨)، والشهرستاني في ((الملل والنحل)) (١/١٥١، ١٧٦-١٩١)، والبغدادي في ((الفرق بين الفرق)) (ص: ٢٣- ٢٤، ٢٢٥-٢٣٠)، وابن منظور في ((تهذيب تاريخ دمشق)) (٧/٤٣٠). . ووقع في هذا النوع من الشرك كثير ممن لا يشرك بالله في ربوبيته في الأنداد في الذات، كالإمامية من الشيعة، والغلاة من المتصوفة في النبي صلى الله عليه وسلم، وفي بعض مشايخ التصوف وأساطينهم.

أما الرافضة فأصل البلاء عندهم في شرك الأنداد في الصفات والأفعال هو اتباعهم لابن سبأ اليهودي الزنديق الذي أراد أن يغير الدين الإسلامي الحنيف إلى دين اليهود والنصارى، فأحدثوا لهم أقوالاً من هذا النمط. وسيأتي تفصيل هذه المقولات فيما بعد إن شاء الله.

وأما الباطنية فهؤلاء تآمروا على هدم الدين من أساسه، فادعوا الند والشريك بالسابق، وله قرين، سموه بالتالي وهو الذي خلق السموات والأرضين وما فيهن.

أما السبب في انتشار شرك الأنداد بين المتصوفة فهو: أنه قد ظهر أناس من المسلمين بمظهر التقشف، وكان أخطر هؤلاء الأعداء على الدهماء وأبعدهم غوراً في الإغواء: أناس ظهروا بأزياء الصالحين؛ بعيون دامعة كحيلة، ولحى مسرحة طويلة، وعمائم كالأبراج، وأكمام كالأحراج، يحملون سبحات طويلة كبيرة الحبات، يتظاهرون بمظهر الدعوة إلى سنة سيد السادات، مع انطوائهم على مخاز ورثوها عن الأديان الباطلة، والنحل الآفلة، وكان من مكرهم الماكر أن خلطوا الكذب المباشر بالتزيد في تفسير مأثور، أو في فهم حديث صحيح، أو تأويله على مقتضى هواهم، أو الاستدلال بحديث مكذوب سواء كان قصداً أو بغير قصد.

فهؤلاء غلوا في أنفسهم بادعاء أشياء واهية من التصرفات في الكون، والعلم بما في المكنون، والقدرة على تقليب الشيء الموزون، ثم لما هلك هؤلاء جاء أتباعهم فادعوا فيهم أكثر مما ادعوا لأنفسهم من ذكر الكرامات، طلباً لتقديس الشخصيات، اتباعاً لسنن الأمم السابقة في هذه المجالات، ونبين بعض هذه الأنواع من الشركيات بشيء من البسط والتفصيل فيما يأتي من العبارات.

بداية ظهور الشرك في الألوهية والعبادة:

لعل أصل حدوث الشرك في الألوهية والعبادة كان من قبل الشيعة على اختلاف فرقها، وطوائفها، ونحلها، فإن التشيع هو ملجأ كل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين، فما الباطنية بجميع شعبها — والإسماعيلية والقرامطة، والنصيرية، والعبيدية، والدرزية — إلا من فرقها، ومعروف: أن هؤلاء الباطنية كانوا مشركين بالله جل وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله، ومشركين بالله جل وعلا في عبادته ومعاملته أيضاً، فهؤلاء جمعوا خبائث الأمم السابقة، وقالوا بالمجوسية المحضة، وجاهروا بترك الإسلام جملة، وهؤلاء كما كانوا يثبتون الشرك في الربوبية في الذات، ويثبتون الشرك في الربوبية في الصفات والأفعال، هكذا كانوا يعبدون القبور وأهلها، ويبنون عليها المساجد، والقباب، فأحيوا بذلك سنة اليهود والنصارى، فظهرت في هذه الأمة فرقة قبورية وثنية مشركة في صورة هؤلاء الروافض، الذين عمروا المشاهد وعطلوا المساجد انظر ما ذكره البركوي: في ((زيارة القبور)) (ص: ٢٠).

فالإسماعيلية منهم — مثلاً — بثوا معتقداتهم بين الناس سراً، فاستحسن الجهال هذا الأمر لخفته وطرح التكاليف الشرعية، فأخذت تظهر الاعتناء بالقبور وتشييد المزارات والمشاهد، وتحري الدعاء عندها انظر ما كتبه الجوير: ((الإسماعيلية المعاصرة)) (ص: ١٣٥). ، حتى نقلهم الشيطان إلى اتخاذهم شفعاء، ثم نقلهم إلى دعاء الأموات، ودعاء صاحب القبر، ثم نقلهم إلى الاعتقاد بأن لهم تصرفاً في الكون، تدرج هذا في قرنين ونحوها.

قال أحد المعاصرين: (إن أقدم من وقفت عليه يرجع المسلمين إلى دين الجاهلية في الاعتقاد بالأرواح والقبور هم الإسماعيليون، وبخاصة إخوان الصفا، تلك الجماعة السرية الخفية التي بنت عقائدها ورسائلها الخمسين بسرية تامة حتى لا يكاد يعرف لها كاتب، ولا مصنف وإن ظن ظناً.

ثم تبعهم على تقديس المقبورين من أهل البيت: الموسويون الملقبون بالاثني عشرية) صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: ((هذه مفاهيمنا)) (ص: ٩٩، ١٠٠). . وصنفوا التصانيف في الحج إلى المشاهد، وفي كيفية الزيارات والأدعية عند القبور، يسندونها بطرق باطلة كاذبة، إلى أئمة أهل البيت —رضي الله عنهم—، وقد طالعت كتاب (الزيارات الكاملة) لابن قولويه فرأيت فيه من هذا شيئاً كثيراً.

ومن طالع تراث الإسماعيليين، وحركة إخوان الصفا وجد ما قلته ماثلاً أمامه، فإن فتنة الناس بالقبور، واتخاذ أهلها شفعاء ووسطاء لم تعرف قبلهم، ولما غلب الجهل قبل ظهور الدولة الفاطمية عرفت هذه الأمور طائفة من الناس، فلما ظهرت هذه الدولة العبيدية شيدت المشاهد ونشرت ما كان سراً من عقائدها.

جاء في الرسالة الثانية والأربعين من رسائل إخوان الصفا ما يبين هذا، ويبرهن له، فقد قال مؤلفو الرسائل:

(وذلك أن القوم الذين بعث إليهم النبي —عليه الصلاة والسلام والتحيات والرضوان— كانوا يتدينون بعبادة الأصنام، وكانوا يتقربون إلى الله تعالى بالتعظيم لها والسجود والاستسلام والخبورات، وكانوا يعتقدون أن ذلك يكون قربة لهم إلى الله زلفى، والأصنام هي أجسام خرس، لا نطق لها ولا تمييز، ولا حساً ولا صورة ولا حركة، فأرشدهم الله، ودلهم على ما هو أهدى وأقوم وأولى مما كانوا فيه، وذلك أن الأنبياء — عليهم السلام — وإن كانوا بشراً فهم أحياء ناطقون مميزون علماء، مشاكلون للملائكة بنفوسهم الزكية، يعرفون الله حق معرفته، والتقرب إلى الله بهم أولى وأهدى وأحق من التوسل بالأصنام الخرس التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عنك شيئاً،...

ثم اعلم يا أخي: أن من الناس من يتقرب إلى الله بأنبيائه ورسله، وبأئمتهم، وأوصيائهم، أو بأولياء الله وعبادة الصالحين، أو بملائكة الله المقربين، والتعظيم لهم، ومساجدهم ومشاهدهم، والاقتداء بهم، وبأفعالهم، والعمل بوصاياهم وسننهم على ذلك بحسب ما يمكنهم ويتأتى لهم، ويتحقق في نفوسهم، ويؤدي إليه اجتهادهم.

فإن من يعرف الله حق معرفته فهو لا يتوسل إليه بأحد غيره، وهذه مرتبة أهل المعارف الذين هم أولياء الله، وأما من قصر فهمه ومعرفته وحقيقته: فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بأنبيائه، ومن قصر فهمه ومعرفته بهم فليس له والذهاب إلى مساجدهم ومشاهدهم، والدعاء، والصلاة، والصيام، والاستغفار، وطلب الغفران والرحمة عند قبورهم وعند تماثيل المصورة على أشكالهم، لتذكر آياتهم، وتعرف أحوالهم، من الأصنام والأوثان وما يشاكل ذلك طلباً للقربة إلى الله وزلفى لديه.

ثم اعلم أن حال من يعبد شيئاً من الأشياء ويتقرب إلى الله تعالى بأحد فهو أصلح حالاً ممن لا يدين شيئاً ولا يتقرب إلى الله ألبتة...) ((رسائل إخوان الصفا)) (٤/١٩-٢١).

وهذه الجماعة الباطنية كانت نشاطاتها في أول القرن الثالث، ولم تعرف رسائلها التي قعدت لمذهبها، وبثت ذلك أوساط الناس إلا في القرن الرابع الهجري، بسرية تامة، فدخلت الأفكار في الطغام، وأنكرها العلماء الأعلام، وكفروا أصحابها.

كما قال ابن عقيل في القرن الخامس حيث انتشرت المذاهب بتأييد الدولة العبيدية، قال: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. وهم عندي كفار لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد السرج وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وإلقاء الخرق على الشرج اقتداء بمن عبد اللات والعزى...) نقلاً عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في ((مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد)): (ضمن عقيدة الموحدين) (ص: ٦٤). وكما نقله عنه المعصوبي في كتابه ((حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد)) (ص: ٤٤)، وهو عند الإمام ابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (١/٦٩٥).

فعلمنا بهذا الحديث الطويل أن الشرك في القبور في هذه الأمة إنما هو من معتقدات الباطنية في هذه الأمة، ولم يكن هذا فاشياً قبل ظهورهم. هذا من ناحية...

ومن ناحية أخرى: أنه عربت كتب الفلاسفة اليونانية القبورية الوثنية، وعكف عليها كثير ممن تفلسفوا في الإسلام، أمثال الفارابي الكافر، وابن سينا الحنفي القرمطي، ونصير الكفر والشرك الطوسي.

وغيرهم ممن لعبوا بالإسلام كما لعب بولس بالنصرانية.

فتأثروا بآرائهم الفلسفية، ومنها العقائد القبورية، فصاروا دعاة القبورية الوثنية بتفلسفهم.

وسايرهم كثير من المتكلمين من الماتريدية الحنفية، والأشعرية الكلابية، بسبب العكوف على كتبهم الفلسفية، فتأثروا بعقائدهم القبورية، حتى صاروا دعاة إلى القبورية الدهمية في آن واحد -كما سيأتي بيانه فيما بعد-.

فهذه نبذة من تاريخ حدوث الشرك في العبادة والألوهية في هذه الأمة، والتي تؤكد: أن الشرك بالعبادة ما كان موجوداً في القرنين الأول والثاني، وإنما حدث بعد هذا عندما ذهب أصحاب القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (قد جاءت خلافة بني العباس. وظهر في أثنائها من المشاهد بالعراق وغير العراق ما كان كثير منها كذباً، وكانوا عند مقتل الحسين بكربلاء قد بنوا هناك مشهداً، وكان ينتابه أمراء عظماء، حتى أنكر عليهم الأئمة، وحتى إن المتوكل لما تقدموا له بأشياء يقال إنه بالغ في إنكار ذلك وزاد على الواجب.

دع خلافة بني العباس في أوائلها، وفي حال استقامتها، فإنهم حينئذ لم يكونوا يعظمون المشاهد، سواء منها ما كان صدقاً أو كذباً كما حدث فيما بعد؛ لأن الإسلام كان حينئذ ما يزال في قوته وعنفوانه، ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام،.. بل عامة هذه المشاهد محدثة بعد ذلك.

وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس، وتفرقت الأمة، وكثر فيهم الزنادقة الملبسون على المسلمين، وفشت فيهم كلمة أهل البدع، وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب. ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر...) ابن تيمية في ((الفتاوى)) (٢٧/٤٦٥- ٤٦٦). .الشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا- (١/٦٤٧).

التعريف بلفظ المصطلحات العقدية

نرى أنه من المهم قبل البدء في تحليل بعض المصطلحات العقدية أن نقوم بتعريف المصطلحات العقدية؛ توطئة للدخول إلى ما سنتناوله بالدراسة منها فنقول:

المصطلحات: جمع مصطلح وهو ما تعارف عليه أهل علم معين من الألفاظ والتراكيب في التعبير عن حقائق ذلك العلم، وعلى هذا فكل علم له مصطلحاته الخاصة به والتي تعد جزءاً من منهجيته. ففي إطار الشرعيات نجد أن للفقهاء من المصطلحات ما يعبرون به عن حقائقهم الفقهية، والأمر نفسه تجده بالنسبة لعلماء أصول الفقه وعلماء التفسير وأصوله ونحو ذلك.

وعليه؛ فلعلماء العقيدة الإسلامية أيضاً من المصطلحات ما يعبرون به عن حقيقة العقائد الإسلامية، فالمصطلح العقدي إذن هو: ما تعارف عليه علماء العقيدة في التعبير عن مقاصدهم العقدية، وهذه المصطلحات العقدية على قسمين[1]:

الأول: مصطلحات صحيحة: وهي ما جاء الكتاب والسنة وأقوال السلف باستعمالها دالة على الحقائق العقدية، أو لم ترد لكنها دلت

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (١/٢٠٨، ٢٧٩).

على معنى صحيح لا احتمال فيه. فمثال ما دل عليه الكتاب والسنة: لفظ الإيمان والإسلام والإحسان والظلم والعدل ونحو ذلك، ومثال ما دل عليه استعمال السلف: كلفظ توحيد وعقيدة ولفظ الفقه الأكبر ونحو ذلك، ومثال ما دل على معنى صحيح بلا احتمال: كلفظ الذات والوجود والأزلي ونحو ذلك.

الثاني: مصطلحات فاسدة: وهي تلك الألفاظ التي لم ترد في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ولا في قول السلف، أو كانت محتملة للحق والباطل لوقوع الاشتراك فيها بين المعنيين - الحق والباطل - أو كانت من ألفاظ الكتاب والسنة ولكن استعملت في غير ما سيقت له من المعاني فيهما. ومن أمثلة ذلك: لفظ الحيز والتركيب والجبر والتسيير والعرض والجوهر، ولفظ العدل إذا استعمل في معنى تخليد العصاة أصحاب الكبائر في النار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا استعمل في الخروج على أئمة العدل من المسلمين.

وإذا عرف معنى المصطلح العقدي وأنواعه فلنشرع في بيان معاني بعض المصطلحات العقدية. فنقول وبالله التوفيق ونسأله الهداية لأقوم طريق.

التعريف ببعض المصطلحات العقدية:

أولاً - تعريف العقيدة[1]:

مرت كلمة عقيدة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي دور الموسوعية في المعنى وعدم الاختصاص، وهو المعنى اللغوي، فهي في اللغة تطلق ويراد بها:

١ - العزم المؤكد.

(١) قارن لوامع الأنوار السنية (١/١٤٧ - ١٥٠).

٢ ـ الجمع.

٣ ـ النية.

٤ ـ التوثيق للعقود.

٥ ـ ما يدين به الإنسان سواء كان حقاً أو باطلاً.

المرحلة الثانية: وهي دور الفعل القلبي، وفيه تبرز العقيدة كمعنى يقوم بقلب العبد، وهو أخص من المرحلة قبله، ويعبر عنه بالمعنى المصدري وهو بهذا الاعتبار: «الإيمان الذي لا يحتمل النقيض» وهو والحالة هذه يعتبر معنى شرعيًا.

قوله «الإيمان» أي: التصديق.

وقوله: «لا يحتمل النقيض» أي: لا يوجد في القلب سواه بحيث لا يجوز إمكان فرض آخر غير المؤمن به، وهو بذلك يخرج كل فرض قدر له نقيض كالشك والظن والوهم والجهل والخطأ والنسيان. وهذا المعنى هو الذي كان موجوداً في العصور الثلاثة ـ الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ من الجهة التطبيقية، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

المرحلة الثالثة: وهي الدور الذي نضجت فيه العقيدة، وأصبحت علماً ولقباً على قضايا معينة، وهو دور الاستقرار وهو المعبر عنه «العلم بالأحكام الشرعية العقدية المكتسب من الأدلة اليقينية ورد الشبهات وقوادح الأدلة الخلافية».

فالمراد بالعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه. ولا يكون ذلك إلا بتصور مفرداته والتصديق بمركباته (نسبة) كما هي في واقع الأمر حقيقة معلومة من الدليل الشرعي اليقيني.

والمراد بالأحكام: ما تدل عليه النصوص من قواعد عقدية ومبادىء كلية يقينية. نسبت للشرع لإخراج ما ليس شرعياً، وهكذا

الأمر بالنسبة للعقدية لإخراج ما عداها.

والأدلة: جمع دليل وهو المرشد للطريق لغة، واصطلاحاً: هو ما يمكن بصحيح النظر فيه التوصل إلى معلوم خبري.

ويراد بصحيح النظر: قواعده ومبادئه الكلية العاصمة من الخطأ في النظر، والنظر هو التأمل في الدليل سواء كان دليلاً حسياً أو عقلياً أو نقلياً.

والمراد بالمعلوم الخبري: هو نسبة المفردات بعضها إلى بعض «الجملة» وذلك بالتوصل من خلال النظر إلى نسبة مكونة من مفردات مفهومة المعنى، قد حمل بعضها على بعض؛ لإفادة معنى يراد الدلالة عليه بألفاظ الدليل، سواء وافق ظاهر اللفظ أو خالفه إذ المقصود هو التوصل لما يراد من الدليل.

وأضيفت الأدلة إلى اليقينية؛ لأن قضايا العقيدة يقينية ولا يمكن أن يتوصل إليها إلا بالدليل اليقيني.

ودفع الشبهات أي: ردها بما يدل على إفادة معنى يراد الدلالة عليه بألفاظ الدليل، سواء وافق ظاهر اللفظ أو خالفه إذ المقصود هو التوصل لما يراد من الدليل.

وأضيفت الأدلة إلى اليقينية؛ لأن قضايا العقيدة يقينية ولا يمكن أن يتوصل إليها إلا بالدليل اليقيني.

ودفع الشبهات أي: ردها بما يدل على بطلانها من حسن أو عقل أو نقل أو فطرة.

والشبهات: جمع شبهة مشتقة من الشبه؛ لأن كلاً من الشيئين أشبه الآخر بحيث لا يمكن التمييز بينهما فيظن بذلك أن أحدهما هو الآخر وليس كذلك.

والقوادح: جمع قادح، وهو المفسد للدليل سواء كان عقلياً أو نقلياً أو دلالته على المطلوب.

ثانياً ـ تعريف التوحيد[1]:

وقد مرت كلمة توحيد بنفس الأدوار التي مرت بها كلمة عقيدة، فهي في الدور اللغوي مشتقة من وحد يوحد توحيداً فهي مصدر للفعل وحد بمعنى جعله واحداً، ثم نقل عن هذا المعنى إلى معنى الفرد المتميز عن غيره؛ لأن كون الله واحداً ليس بجعل جاعل، وعلى هذا فالواحد هو المنفرد بخصائصه عما سواه. ومن هذا المعنى قولهم: واحد زمانه أي: فرداً فيه إما علماً أو عقلاً أو كرماً ونحو ذلك، وفي الدور المصدري أو باعتباره فعلاً من أفعال القلب: هو إفراد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات والأفعال. وفي الدور الأخير وهو دور الاستقلال صارت فيه كلمة التوحيد تدل على العلم المسمى بها وهي بهذا الاعتبار:

«العلم الذي يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية».

فالعلم: الإدراك الجازم للشيء كما هو في حقيقة الأمر وواقعه.

والاقتدار: هو تحصيل الملكة التي يتمكن بها الناظر في الدليل اليقيني من استفادة الأحكام التوحيدية منه.

الفرق بين العقيدة والتوحيد:

١ ـ يجتمعان في أن كلاً منهما يثبت الحق بدليله.

٢ ـ أن العقيدة أعم من جهة موضوعها من التوحيد. فإن كان التوحيد يقرر الحق بدليله فقط، فإن العقيدة تقرره، وترد الشبهات، وتبين ما يقدح في الأدلة الخلافية، وتناقش الديانات والفرق.

٣ ـ أن الإيمان بالكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر والإيمان بالقدر تدخل في إطار العقيدة بالمطابقة، وفي التوحيد بالاستلزام.

(١) قارن لوامع الأنوار السنية (١/ ١٤٧ ـ ١٥٠).

ثالثاً ـ التعريف بلفظ أصول الدين[1]:

وهو مركب من مضاف ومضاف إليه، فهو مركب إضافي، ولا يمكن منطقياً أن نتوصل إلى معنى المركب إلا عن طريق تحليل أجزائه المركب منها، وهي «أصول» و «الدين».

فاصول: جمع أصل وهو لغة: ما يبنى عليه غيره كأساس المنزل، واصطلاحاً: ما له فرع، وشرعاً تطلق على عدة معانٍ هي:

الدليل وهو أشهر هذه الإطلاقات. منه قولهم: الأصل في توحيد الأسماء والصفات سورة الإخلاص، والأصل في توحيد الألوهية سورة الكافرون، والأصل في توحيد الربوبية قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ والمراد به في كل ذلك: الدليل على هذه الحقائق العقدية. وتطلق على القاعدة المستقرة، ومنه قولهم: من أصول التوحيد أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وأن الألوهية يتضمن توحيد الربوبية. ويراد به القواعد العامة لهذا العلم.

ويطلق على الأصل المقيس عليه كقولهم: العلم بالمحسوسات أصل العلم بالغائبات أي: تقاس الأمور الغائبة على المحسوسة. ويطلق على الراجح من الأمرين كقولهم: الأصل في معاني القرآن الكريم الإحكام أي: هو مقدم على ما تشابه.

وأنسب هذه الاصطلاحات هو المعنى الثاني وهو القاعدة فيكون معنى أصول أي: مبادئه العامة وقواعده الكلية التي يبنى عليها.

والدين لغة: هو الذل والخضوع، وشرعاً: هو امتثال المأمور واجتناب المحظور، أو طاعة الله ورسوله[2]. فيكون معنى المركب «أصول الدين»: هو «المبادىء العامة والقواعد الكلية الكبرى التي بها

(١) قارن لوامع الأنوار السنية (١/ ١٤٩).
(٢) عرفه في لوامع الأنوار السنية (وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات).

تتحق طاعة الله ورسوله والاستسلام لأمره ونهيه». وهذا المعنى لا يراد به إلا علم العقيدة والتوحيد.

رابعاً ـ السنة[1]:

وهي في اللغة: الطريق والسيرة. ومنه قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» أي: طريقته في الدين، وقوله: «من سن سنة حسنة» أي: سيرة.

وشرعاً: تعدد معناه بحسب الاصطلاحات، فكل أهل علم إسلامي اصطلحوا على دلالة متناسبة وطبيعة هذه العلوم.

فعلماء الحديث؛ السنة عندهم: «ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف».

وعند علماء أصول الفقه: هي «ما أمر به الشارع لا على سبيل الإلزام».

والمراد بالشارع من له حق التشريع وهو الرب جل وعلا بالأصالة، والرسول ﷺ تبعاً لأنه لا ينطق عن الهوى.

وعند علماء الفقه: هو «ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه».

وعند علماء العقيدة الإسلامية: العقيدة الصحيحة، ملحوظاً فيها أن السنة من مصادر التلقي للعقيدة الصحيحة وطريق من طرق إثباتها. ولذا جعل بعض السلف السنة هي الاتباع، وجعلها بعضهم الإسلام، والقولان غير متنافرين ولا متعارضين لأن الإسلام هو تعبير عن العقيدة الصحيحة، والاتباع يعبر عن طريق التلقي ومنهجه.

فصار معنى السنة هو اتباع العقيدة الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة، وممن استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى الإمام أحمد بن

(١) انظر لوامع الأنوار السنية (١/ ١٩٥) الكواشف الجلية ص (٥٢).

حنبل في كتابه «السنة» فقد ضمنه العقيدة الصحيحة الثابتة بنقل العدول عن الرسول ﷺ وأصحابه، وكذا فعل عبد الله بن الإمام أحمد في كتابه «السنة»، ومنه أيضاً كتاب «السنة» لابن أبي عاصم.

خامساً ـ الفقه الأكبر[1]:

الفقه في اللغة: هو الفهم، وأضيف إلى الأكبر لإخراج الفقه الأصغر وهو علم الحلال والحرام وعلم الفروع، وهو اصطلاح عرف في القرن الثاني الهجري حيث سمى الإمام أبو حنيفة النعمان بن زوطي كتابه الذي جمع فيه جملة اعتقادات السلف: الفقه الأكبر، إشارة إلى أنه أعظم ما في شريعة الإسلام ولا يتحقق هذا اللقب إلا على علم العقيدة.

سادساً ـ أهل السنة والجماعة[2]:

السنة كما تقدم تعبير عن الاتباع لمنهج الكتاب والسنة النبوية في الأصول والفروع.

والجماعة لغة: القوم المجتمعون، وشرعاً: هم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعون وتابعهم بإحسان إلى يوم الدين، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن الفرقة الناجية فأجاب مرة بأنها ما كان عليه هو وأصحابه، ومرة أخرى بأنها الجماعة.

وبناء على ذلك صار معنى مركب «أهل السنة والجماعة» هم: المتبعون للعقيدة الإسلامية الصحيحة الملتزمون منهج الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعهم بإحسان إلى يوم الدين. كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» حديث صحيح.

(١) انظر شرح الطحاوية ص (٩) انظر الكواشف الجلية ص (٥٢) (٧٥٢).
(٢) انظر الكواشف الجلية ص (٥٢).

سابعاً ـ أهل الحديث:

الحديث: هو كلام الرسول ﷺ، وأهله هم المنسوبون إليه، وأهل الحديث هم كل من جعل كلام الرسول ﷺ مصدراً من مصادر التلقي يستفاد منه عقائد الإسلام الصحيحة ويبنى عليه، سواء كانوا علماء الحديث أو الفقه أو الأصول أو من الزهاد وغيرهم، وإنما سموا بذلك رداً على أهل الكلام الذين ادعوا أن عقلياتهم أولى بالتقديم من الحديث النبوي في باب العقائد بدعوى أنه لا يفيد إلا الظن، وعقلياتهم تفيد اليقين، والعقيدة يطلب فيها اليقين فلا عبرة بما دلت عليه أحاديث الرسول ﷺ من العقائد بناء على ذلك، فخالفوا بذلك كل نص قرآني أو حديثي أمر بالاتباع مطلقاً للكتاب والسنة وقدموا عقولهم على الوحي المنزل فكانت عقائدهم نابعة من عقولهم القاصرة وأفكارهم المريضة، وادعوا أن الوحي قاصر عن بيان العقيدة التي هي أهم المطالب الإسلامية، وأعظم الأصول الدينية الإسلامية؛ وبناء على ذلك انتسب أهل الحق للحديث لبيان أن الوحي المنزل هو المصدر الأصلي الوحيد لإثبات عقائد الإسلام على وجه التفصيل والكمال.

ثامناً ـ التعريف بكلمة السلف[1]:

السلف في اللغة: المتقدم في الزمن على غيره.

وشرعاً: هم «الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين ممن أجمعت الأمة على عدالتهم وتزكيتهم ولم يرموا ببدعة مكفرة أو مفسقة»، وهم بهذا المعنى تعبير عن شخصية اعتبارية ومنهج متبع، الأصل فيه الصحابة والتابعون وتابعوهم وهي العصور المفضلة، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذي يلونهم ثم الذين يلونهم» وقال الله جل شأنه عنهم: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وقال:

(١) انظر لوامع الأنوار السنية (١/ ١٢٠) قارن مختصر لوامع الأنوار البهية (١٤).

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

وبذا يعلم عدم صحة دعوى أن السلفية مرحلة زمنية وكفى، لأن مذهب السلف يشمل جانبين: جانب القدوة، والمنهج المتبع، فالقدوة هم أصحاب العصور الثلاثة، والمنهج هو الطريقة المتبعة في هذه العصور في الفهم العقدي والاستدلال والتقرير والعلم والإيمان. وبذا يعلم أن الوصف بالسلفية مدح وثناء على كل من اتخذها قدوة ومنهجاً، وأما الوصف بها دون تحقيق ما دلت عليه فليس بينه مدح وثناء؛ لأن العبرة بالمعاني لا بالمصطلحات اللفظية.

تاسعاً ـ التعريف بكلمة الخلف[1]:

الخلف في اللغة: هو المتأخر في الزمن عمن قبله.

وشرعاً: هم كل من رمي ببدعة مكفرة أو مفسقة وذم هنا الأمة شخصاً أو معتقداً.

والخلف هنا أيضاً ليس فترة زمنية تنقضي بموت أفرادها ولكنه منهج وقدوة في الباطل، وهو بذلك قدوة لمن فسد اعتقاده. وبذا يعلم أنه لم تلحظ في كلمتي السلف والخلف الفترة الزمنية فإنه قد خرج في زمن الصحابة والتابعين وتابع التابعين من مال عن منهج السلف فلم يتخذه منهجاً له، أو اتخذ الباطل منهجاً له إلا أنه ينبغي ألا يفهم من ذلك أن في الصحابة أو التابعين أو تابعهم من هو خلف، وهذه التسمية موجبة للتزكية، فالصحبة ومتابعة الصحابة ومتابعة تابعيهم صفات مدح شرعية، ولذا كانت البدع في هذه العصور الثلاثة قليلة جداً، وذلك لأن الحق فيها له شهرة وأنصار وهو بذلك عزيز جانبه قوي في نفوس أهله مع وضوح الدلائل والقرب من مشكاة النبوة ونور

(١) المراجع السابقة.

الوحي المنزل من عند الله. والبدع في من بعدهم أكثر بل إنه في بعض العصور كانت البدع منصورة من بعض حكام الخلافة الإسلامية مما تسبب في علو شأن البدع وانتشارها، كما في خلافة المأمون والواثق اللذين نصرا الاعتزال وحاربا أهل السنة والجماعة.

وبنظرة تأمل فيما سبق دراسته من الاصطلاحات العقدية يتبين لنا أنها دائرة على أمرين:

الأمر الأول: العقيدة الصحيحة، فالفقه الأكبر وأصول الدين والتوحيد كلها ألفاظ لمسمى واحد وهو العقيدة الإسلامية الحقة.

الأمر الثاني: هو المنهج والقدوة، فالسلف وأهل الحديث والسنة وأهل السنة والجماعة، كلها أسماء لمسمى واحد لوحظ في كل اسم منها صفة اختصت بها هذه الفرقة الناجية تدل على منهجها في القدوة بالصحابة فمن بعدهم من القرون المفضلة في منهجهم في تقرير العقيدة والاستدلال عليها والدفاع عنها. وأما الخلف فهي تدل على المنهج المضاد لما عليه السلف.

الفصل الأول
الانحراف في حياة البشرية

خلق الله الخلق لعبادته، وهيأ لهم ما يعينهم عليها من رزقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[1].

والنفسُ بفطرتها إذا تركت؛ كانت مقرة لله بالإلهية، مُحبَّةً لله، تَعبدُه لا تُشرك به شيئاً، ولكن يفسدها وينحرف بها عن ذلك ما يُزيِّنُ لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فالتوحيد مركوز في الفطرة، والشرك طارئ ودخيل عليها، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ﴾[2].

وقال ﷺ: «كل مولود يُولَدُ على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه»[3]. فالأصلُ في بني آدم: التوحيد.

---

(١) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

والدينُ الإسلام وكان عليه آدم عليه السلام، ومنْ جاءَ بَعدَهُ من ذُرّيته قُروناً طويلة، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

وأوَّلُ ما حدثَ الشركُ والانحراف عن العقيدة الصحيحة في قوم نوح، فكانَ عليه السلام أول رسول إلى البشرية بعد حدوث الشرك فيها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ﴾[2].

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرةُ قرون؛ كلهم على الإسلام.

قال ابن القيِّم[3]: (وهذا القولُ هو الصواب قطعاً؛ فإنَّ قراءة أُبيّ بنِ كعبٍ ـ يَعني: في آية البقرة ـ: (فاختلفوا فبعث الله النبيين).

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[4].

يريد ـ رَحمهُ اللهُ ـ أنَّ بعثةَ النبيين سببُها الاختلاف عما

---

(١) البقرة: ٢١٣.
(٢) النساء: ١٦٣.
(٣) إغاثة اللهفان (٢/١٠٢).
(٤) يونس: ١٩.

عقيدة التوحيد

وبيان ما يضادها أو ينقصها من الشرك
الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك

بقلم فضيلة الشيخ
معالي الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٢٢١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

كانوا عليه من الدين الصحيح، كما كانت العربُ بعد ذلك على دين إبراهيمَ عليه السلام؛ حتَّى جاء عمرو بن لحي الخزاعي فغير دينَ إبراهيم، وجَلبَ الأصنام إلى أرضِ العرب، وإلى أرض الحجاز بصفة خاصة، فَعُبدت من دون الله، وانتشر الشركُ في هذه البلاد المقدسة، وماجاورها؛ إلى أن بعثَ الله نبيه محمداً خاتم النبيين ﷺ فدعا الناس إلى التوحيد، واتّباع ملَّة إبراهيم، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى عادت عقيدة التوحيد وملة إبراهيم، وكَسَّر الأَصنام وأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على العالمين، وسارت على نهجه القرون المفضَّلَة من صدر هذه الأمة؛ إلى أن فشا الجهل في القرون المتأخرة، ودخلها الدخيلُ من الديانات الأخرى، فعاد الشرك إلى كثير من هذه الأمة؛ بسبب دعاة الضلالة، وبسبب البناء على القبور، متمثلاً بتعظيم الأولياء والصالحين، وادعاء المحبة لهم؛ حتى بنيت الأضرحة على قبورهم، واتخذت أوثاناً تُعبدُ من دون الله، بأنواع القُربات من دعاء واستغاثة، وذبح ونذر لمقامهم. وسَموا هذا الشرك: توسُّلاً بالصالحين، وإظهاراً لمحبتهم، وليس عبادة لهم، بزعمهم، ونسوا أن هذا هو قول المشركين الأولين حيث يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1].

(١) الزمر: ٣.

ومع هذا الشرك الذي وقع في البشرية قديماً وحديثاً، فالأكثرية منهم يؤمنون بتوحيد الربوبية، وإنما يُشركون في العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾[1].

ولم يجحد وجودَ الرب إلا نزرٌ يسير من البشر، كفرعون والملاحدة الدهريين، والشيوعيين في هذا الزمان، وجحودهم به من باب المكابرة؛ وإلا فهم مضطرون للإقرار به في باطنهم، وقرارة نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾[2].

وعقولهم تعرف أن كل مخلوق لابد له من خالق، وكل موجود لابد له من موجد، وأن نظام هذا الكون المنضبط الدقيق لابد له من مدبر حكيم، قدير عليم، من أنكره فهو إما فاقد لعقله، أو مكابر قد ألغى عقله وسفه نفسه، وهذا لا عِبرةَ به.

(١) يوسف: ١٠٦.
(٢) النمل: ١٤.

٢ - حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

على أن الله تبارك وتعالى يبين وظيفة أنبياء بني إسرائيل، إذ يقول في شأن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] وكذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

كما أن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

يدل على أن كل نبي وكل رسول تلا على قومه أو اشتهى هداية قومه، فليست إذن وظيفة النبي قاصرة على نفسه منعزلة عن قومه.

حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين:

من القواعد المقررة أن الإنسان مدني بالطبع، ومعنى ذلك أن الله تعالى خلقه على طبيعة تجعله لا يستغني عن غيره من الناس في طعامه ولباسه وحاجاته، إذ قد ركّبه الله تعالى على صورة لا بقاء لها إلا بالغذاء، وقد هداه إلى ابتغائه بفطرته، غير أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن إدراك أقل ما يمكن أن يعيش به الإنسان، فلا يحصل له ما يكفيه إلا بعمل يقوم به الكثير من الناس، فالرغيف الذي يأكله الإنسان لم يصل إليه إلا بعد عمل كثير من حراثة وزراعة وري وحصاد ودياس وطحن وعجن وطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال لا يتم إلا بآلات تحتاج إلى العديد من الصناعات، لا يستطيع أن يقوم الإنسان بمفرده بها.

ولما كانت طبيعة الناس متفاوتة المقاصد، متنازعة الرغبات والميول والشهوات، وقد يركب الإنسان الذلول والصعب في سبيل قضاء مآربه،

وتحقيق شهوته، مما قد يتعارض مع شهوات الآخرين وحاجاتهم، وقد يؤدي طلب تحصيلها إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات، إذ قد يأكل القوي الضعيف ويفنى الكثير القليل، ولما كان عقل الإنسان كذلك قاصراً عن وضع نظام شامل لصلاح المعاش والمعاد. إذ قد يرى الإنسان الخير شراً، والشر خيراً، على حد قول الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

والإنسان قد يعجز في كثير من الأحيان عن معرفة مصلحة نفسه، لذلك كان الناس محتاجين بالضرورة إلى نظام يحمي دماءهم وأعراضهم وأموالهم ويوضح لكل ذي حق حقه، ولو فرضنا أن جماعة من أهل الفكر أرادوا أن يضعوا مثل هذا النظام لعجزوا لتفاوت الأفراد والجماعات والأمم والشعوب والأعصار في تقديرات الأشياء على طبيعتها الصحيحة لأن الإنسان مهما اتسعت مداركه وعظمت ثقافته فإنه من حيث يدري أو لا يدري خاضع لتحكم بيئته ومعارفه وتربيته وسلوكه، ولهذا كانت القوانين التي يضعها البشر لا استقرار لها ولا ثبوت ولا دوام، وكانت دائماً محتاجة إلى التعديل أو التبديل، مع قصورها عن تربية النفس الإنسانية على أحسن المناهج.

لذلك كان الناس محتاجين إلى منهج يضعه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يبعث في كل أمة نذيراً ليرسم لهم الطريق إلى الله وليدلهم على مراسيم سعادتهم الدنيوية والأخروية، ولئلا يقول المنحرفون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]. وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ويقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

﴿ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

أعظم وظائف النبيين والمرسلين:

وكانت أعظم الوظائف التي أسندت للنبيين والمرسلين هي تحذير الناس من الشرك بالله ودعوتهم إلى إخلاص التوحيد بجميع أنواعه لله، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ويقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

تتابع النبوات:

ذكر الله تبارك وتعالى أنه بعث في كل أمة نذيراً وفي ذلك يقول: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وليس معنى هذا أنه كلما مات رسول بعث رسول آخر لنفس القرية أو المدينة، فلا يقول قائل هذه شبه الجزيرة العربية من حضرموت إلى بُصرى والعقبة لم يُعرف لها نذير بعد إسماعيل عليه السلام إلا محمداً ﷺ، لأنا نقول:

إن المراد أن أمة العرب مثلاً من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا يزال فيها ذكر هذين النبيين العظيمين، وإن كانت الأمة العربية قد انحرفت بعدهما بزمن عن ملة التوحيد إلى عبادة الأوثان في عهد عمرو بن لحي.

أما قول المشركين: لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم الذي حكاه الله عنهم إذ يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢].

فالمراد نذير جديد لأنهم مقرون بإبراهيم وإسماعيل وإن لم يعملوا بالدين الحنيف.

النبوات السابقة:

بعث الله تعالى أنبياء ورسلاً منهم من قص على نبينا محمد ﷺ ومنهم

من لم يقصص، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وجملة من قص الله من النبيين والمرسلين ٢٥ خمسة وعشرون.

وقد اشتمل قوله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

أما باقي الخمسة والعشرين فهم:

آدم، إدريس، هود، صالح، شعيب، ذو الكفل، خاتم النبيين محمد ﷺ.

وقد نظمهم بعض العلماء إذ يقول:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر وبقى سبعة وهمو
إدريس، هود، شعيب، صالح وكذا ... ذو الكفل، آدم بالمختار قد ختموا

وقد اختلف في أول رسول أُرسل. فقال قوم من أهل العلم: هو آدم عليه السلام أبو البشر ويستدلون بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال قوم من أهل العلم: إن نوحاً عليه السلام هو أول المرسلين، بدليل حديث الشفاعة فقد جاء فيه «يا نوح أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض».

وأصحاب المذهب الأول يقولون إن نوحاً هو أول رسول أنذر قومه

من الشرك إذ لم يكن الشرك قد وقع في ذرية آدم إلا في أمة نوح عليه السلام، فهو أول نذير أنذر قومه عما هم فيه من الشرك، وكانت معاصي بني آدم قبل نوح عليه السلام لا تصل إلى حد الشرك وإنما هي القتل ونحوه. والله أعلم.

الانحراف من التوحيد إلى الوثنية:

عامة المؤرخين غير المسلمين وكذلك مقلدتهم من المؤرخين الإسلاميين يرون أن الوثنية سابقة على التوحيد في تاريخ البشر تطبيقاً لنظرية التطور.

ويزعمون: أن الشمس في أثناء دورانها السريع حول نفسها انفصلت منها قطعة أخذت تبتعد عنها قليلاً قليلاً وتتخذ لنفسها مجرى كمجرى أصلها وهذه القطعة هي الأرض.

ويدعون: أنه بطول الزمن برد سطح الأرض «وإن كان باطنها لا يزال على حرارته» وقد أحاطت بها المياه وأنه بطول الزمن توالدت حيوانات مائية كهذه «الميكروبات» والحيوانات التي تتوالد في أي ماء آسن.

ويرون: أن من جملة هذه الحيوانات البحرية كان الإنسان ويطلقون عليه في هذه الفترة «الإنسان المائي» ثم بمرور الزمن الطويل أخذ هذا الحيوان المائي يخرج إلى شواطىء البحار ويرعى الحشائش النابتة عليها ثم يرجع إلى البحر ليعيش فيه شبيهاً بالتماسيح ويطلقون على الإنسان في هذه الفترة «الحيوان البرمائي»، ثم استطاع هذا الحيوان أن يتطبع بطباع البر وأن يعيش فيه طول حياته وأن يهجر حياة البحر ويطلقون عليه طول هذه الفترة «الانسان البري».

ثم يزعمون: أن هذا الحيوان بعد فترات طويلة من التاريخ استطاع أن يتميز عن كثير من الحيوانات البرية الغابية وأنه صار يستعمل أنواعاً من الآلات كالحجارة ونحوها فارتفع وارتقى عن باقي الحيوانات التي لم تتميز بذلك.

ثم يزعمون: كذلك أن الإنسان عرف الدين في هذه العصور النائية من التاريخ البشري وإن كانوا يختلفون في كيفية تدينهم أول مرة إلا أنهم متفقون على أن الوثنية قد سبقت في تاريخه «أي الإنسان» التوحيد.

والكثير منهم يرى أن أول معرفة الإنسان بالدين كان على الطريقة المعروفة عند بعض الباحثين المتأخرين «بالطوطمية».

وقد اختلفوا في تفسير «الطوطمية» والظاهر أنها عند الكثير منهم، أنها شعار تتخذه القبيلة رمزاً للشيء المقدس عندهم من شجر أو حجر أو قبر أو كوكب أو غير ذلك.

ويزعم بعضهم: أن أول ما عرفت العبادة كان بسبب أحلام منامية يراها الإنسان، كأن يرى قريبه الميت يأتيه في نومه ويقول له اذهب إلى المكان الفلاني ستجد فيه كذا وكذا، فيذهب في يقظته إلى عين المكان فيجد ما أخبره به في منامه فإذا تحقق لواحد من هؤلاء مثل هذه الرؤية أخذ بعظم قبر هذا الميت وصارت تعظمه جماعته كذلك إلى أن صاروا يعبدونه فيسألونه حوائجهم ويتضرعون إليه ويستغيثون به ويعكفون عليه، وقد كثر أمثال هذا القبر لهذا السبب ونحوه حتى كثرت القبور المعظمة واتخذت آلهة تعبدها قبيلة واحدة أو قبائل شتى.

ويزعم هؤلاء كذلك أنه بمرور الزمن أخذت بعض القبائل ذات المعبود المعين تنازع بعض القبائل الأخرى ذات المعبود الآخر، وبانتهاء المصارعة بغلبة أحدهم يعلو معبود القبيلة الغالبة على معبود القبيلة المغلوبة فصارت تسقط بذلك آلهة وتعتز آلهة أخرى إلى أن انتهى بهم المطاف في بعض البلاد كفارس إلى إلهين اثنين أحدهما يسمونه إله الخير والثاني إله الشر، كما انتهى المطاف في بعض البلاد الأخرى كمصر الفرعونية في بعض أطوارها إلى عبادة إله واحد يسمونه «رع» ورمزوا له بقرص الشمس، ومن هذا التاريخ عرف الناس التوحيد تطبيقاً للنظرية المادية القائلة بالتطور والارتقاء.

وبهذا تكون الوثنية سابقة للتوحيد، وبالنظر المجرد لهذه الآراء نرى أن أصحاب هذه النظريات لا يؤمنون بفاطر السمٰوات والأرض ولا يصدقون بأي كتاب سماوي إذ الكتب السماوية المؤيدة بالمعجزات الحسية والعقلية قد قررت أن الله خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ثم خلق السمٰوات وزين السماء الدنيا بمصابيح وأنه خلق الملائكة المكرمين ثم خلق الجان من نار السموم ثم خلق آدم أبا البشر من تراب فسواه بيده على هذه الصورة الكريمة المستوية وأن طوله يوم خلقه الله كان ستين ذرعاً وأنه أسجد له ملائكته وأخرج له من ضلعه زوجة له هي أمنا حواء وأنه أمره أن يسكن هو وزوجه الجنة قائلاً: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١١٨ - ١٢٢].

وقال له آنذاك: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣] فهبط آدم أبو البشر إلى الأرض نبياً كريماً مؤمناً بالله وحده يعبده لا شريك له ويدعو إلى إخلاص التوحيد له.

وقد استمر هذا التوحيد الحق هو دين ذرية آدم إلى الأمة التي بعث إليها نوح عليه السلام، فقد انحرفت هذه الأمة عن التوحيد إلى عبادة الأوثان، وقد ثبت أنهم انتقلوا إلى الوثنية على التدريج فقد كان في أوائلهم رجال صالحون مؤمنون بالله فلما ماتوا عظموا قبورهم وأوحى إليهم الشيطان أن يصوروهم ليكون ذلك أدعى إلى تذكيرهم والاقتداء بهم، ثم بعد طول الزمن أوحى إليهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه القبور فعكفوا عندها وتوجهوا إلى أصحابها بالضراعة والاستغاثة والاستعانة والسؤال فيما لا يقدر عليه إلا فاطر السمٰوات والأرض.

وصاروا يخافون منهم خوف السر ويحبونهم كمحبة الله أو أشد وأشركوا هؤلاء الموتى مع الحق تبارك وتعالى، فكان أول انحراف من التوحيد إلى الوثنية فبعث الله لهم نوحاً عليه السلام يقول لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، وتتابعت النبوات والرسالات إلى أن ختمت بسيد المرسلين وإمام المتقين محمد عليه الصلاة والسلام.

كتاب دعوة التوحيد للرسل

وهذه هى نظرية فطرية التوحيد وأصالته التى انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس، ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى أوستراليا وأفريقيا وأمريكا.

ومنهم (شريدر) الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة (وبروكلمان) الذى وجدها عند الساميين قبل الإسلام (ولرواه) (وكاترفاج) عند أقزام أواسط أفريقيا.

(وشميدت) عند الأقزام وعند سكان استراليا الجنوبية الشرقية وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية.

وقال (رحمه الله) فى موضع آخر من هذا الكتاب بعد عرضه للمذاهب المختلفة فى نشأة الدين.

(يشترك المذاهب المتقدمة كلها فى ان العقيدة الإلهية وصل إليها الإنسان بنفسه عن طريق عوامل إنسانية، سواء كانت تلك العوامل من نوع الملاحظات والتأملات الفردية أم من جنس التأثيرات والضرورات الاجتماعية اللاشعورية.

فى الطرف المقابل لهذه النظريات كلها يقرر المذهب التعليمى ان الأديان لم يسر إليها الإنسان بل سارت هى إليه، وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحى.

هذه النظرية التى أخذت بها أوربا طوال القرون الوسطى وايدها بعض علماء التاريخ حتى فى القرن ١٩ لا تزال هى المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم كما أننا نجد فى الكتب السماوية مصداق الجانب الإيجابى منها، فهذه الكتب تقرر أن الله سبحانه لما خلق أبو البشر كرمه وعلمه حقائق الأشياء وكان فيما علمه أنه هو خالق السموات والأرض وما فيها وأنه هو خالق الناس ورازقهم وأنه هو مولاهم الذى تجب طاعته وعبادته وأنه سيعيدهم إليه ويحاسبهم على ما

قدموا.

ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة لذريته ففعل وكانت هذ العقيدة ميراث الإنسانية عن الإنسان الأول.

نعم: إن الناس لم يكونوا كلهم أوفياء لهذه الوصية المقدسة، بل إن أكثرهم وقع فى الضلال والشرك، ولكن هذا التعليم الأعلى لم يمح أثره محواً تاماً من البشرية، ولذلك ظلت فكرة الألوهية والعبادة بوجه عام مستمرة فى جميع الشعوب.

على أن العناية السماوية بهذا التعليم الروحى لم تقف به عند الإنسان الأول، بل ما زالت تتعهد به الأمم فى فترات تقصر أو تطول، وجعلت تذكرهم به على لسان سفراء الوحى من الأنبياء والمرسلين، وإن كتب الديانات العظمى تنسب كلها إلى هذا المصدر السماوى.

« ابتداء حدوث الشرك بعد آدم »

جاء فى كتاب الأصنام للكلبى:

«أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنوشيث بن آدم فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم بأرض الهند، وكان بنوشيث يأتون جسد آدم فى المغارة فيعظمونه و يترحمون عليه، فقال رجل من بنى قابيل بن آدم يا بنى قابيل إن لبنى شيث دواراً يدورون حوله و يعظمونه وليس لكم شىء فنحت لهم صنماً فكان أول من عملها.

ومعنى هذا الخبر أن عهد بنى آدم بالتوحيد لم يطل، وأنهم لم يلبثوا أن غيروا بعد موته، وهذا غير معقول لا سيما وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد).

ومما جاء فى هذا الكتاب أيضاً «كان ود وسواع و يغوث و يعوق ونسر قوماً

صالحين ماتوا فى شهر فجزع عليهم أقاربهم، فقال رجل من بنى قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً. قالوا نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتى اخاه وعمه وابن عمه فيعظمه و يسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول، وعملت على عهد بردى بن مهلايل بن قينان ابن أفوش بن شيث بن آدم، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول.

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهو يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم وعظم أمرهم واشتد كفرهم فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام (وهو أخنوخ بن بردى بن مهلايل بن قينان) نبياً فدعاهم فكذبوه فرفعه الله إليه مكاناً علياً ولم يزل أمرهم يشتد فيما قال ابن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس حتى أدرك نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ فبعثه الله نبيا وهو يومئذ ابن اربعمائة وثمانين سنة فدعاهم إلى الله عز وجل فى نبوته عشرين ومائة سنة فعصوه وكذبوه فأمره الله أن يصنع الفلك ففرغ منها وركبها، وهو ابن ستمائة سنة وغرق من غرق، ومكث بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها، وكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومائتا سنة، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل تود إلى الأرض وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض، ثم نضب الماء وبقيت على الشط، فسفت الريح عليها حتى واريتها.

وإذا صرفنا النظر عما فى أطواء هذه الرواية من زيادات غير معقولة وهى فى الوقت لا حاجة إليها أمكن أن نستخلص منها أن عبادة الأصنام كانت هى النتيجة الحتمية للغلو فى تعظيم قبور الصالحين والعكوف عليها وأدركنا السر العظيم فى نهى الإسلام عن اتخاذ القبور مساجد، واتخاذ السرج عليها ونهيه عن رفعها وإقامة القباب عليها إلى غير ذلك مما قصد به سد الذريعة وحسم دابر الفتنة وروى ابن كثير نقلا عن ابن جرير قال حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان

عن موسى عن محمد بن قيس فى تفسير قوله تعالى: (ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث و يعوق ونسرا) قال كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم) اهـ.

وجاء فى صفوت البيان عند تفسير هذه الآية: (وهذه الخمسة أكبر الأصنام والصور التى كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب من بعدهم كما عبدت غيرها فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل بساحل البحر أو لهمدان و يغوث لبنى غطيف من مراد بالجرف من سبأ أو لمراد، ثم لغطفان و يعوق لهمدان باليمن أو لمراد، ونسر لذى الكلاع من حمير.

وسيأتى إن شاء الله مزيد كلام عن هذه الأصنام عند الحديث عن ابتداء حدوث الشرك فى العرب وأول من أدخل عليهم عبادة الأصنام وفتنهم بها عما كانوا عليه من ملة إبراهيم عليه السلام.

« دعوة نوح عليه السلام »

جاء فى حديث الشفاعة فى الصحيح المتفق عليه أن نوحا عليه السلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وهو ما دعانا إلى ترجيح الرأى القائل بأن آدم كان نبيا فقط ولم يكن رسولا، وقد ذكرت قصة نوح فى عدة سور من القرآن، منها الأعراف و يونس وهود والمؤمنون والشعراء وسورة نوح، وقد قدمنا أن قومه كانوا قد أحدثوا الشرك وعبادة الأصنام، وكانوا يدعون ودا وسواعا و يغوث و يعوق ونسرا، وأن هؤلاء كانوا رجالا صالحين من قومه فلما ماتوا عكف قومهم على قبورهم ليتأسوا بهم فى العبادة ثم زين لهم الشيطان أن يتخذوا لهم صورا ليتذكروا كلما رأوها كيف كان نشاط هؤلاء فى عبادة الله فيكون ذلك أدعى

إلى الاقتداء بهم فلما طال عليهم الأمد، وانقرض ذلك الجيل وجاء جيل آخر أوهمهم الشيطان أن آباءهم كانوا يعبدون هذه الصور و يستسقون بها فعبدوها.

وهكذا نسى الناس عهد الله وخرجوا عن ملة التوحيد التى هى فطرة الله ولم يبق فى الأرض يومئذ من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً فأرسل الله إليهم نبيه نوحا عليه السلام يدعوهم إلى الله عز وجل و ينذرهم عقابه إن استمروا على عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة وطالت دعوته لهم ومقامه بينهم وهولا يفتأ يدعوهم و يذكرهم بالليل والنهار، سراً وعلانية كما قال تعالى على لسانه عليه السلام.

(رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فراراً وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا، ثم إنى دعوتهم جهارا، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا).

و يقول العلامة السلفى الشيخ محمد أحمد العدوى رحمه الله فى كتابه (دعوة الرسل إلى الله).

(وأول شىء يلفت نظرك فى هذه القصة صبر نوح على الدعوة ذلك الوقت الطويل الذى يحدثنا الله عنه فى قوله (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) فليعتبر بذلك الدعاة الذين يغلب على نفوسهم اليأس. ليعتبروا بذلك الصبر الخارق وتلك الإرادة الحديدية. ولو لم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلا على تأييده من ربه وصدقه فى دعوته) اهـ.

ولم يستجب لنوح عليه السلام فى ذلك المدى الطويل إلا نفر قليل من قومه مع وضوح دعوته وظهور حجته وطول مثابرته وأوحى الله عز وجل إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. وأمره أن يصنع الفلك بأعين الله ووحيه وأن يحمل فيها من كل نوع من الدواب والحيوانات زوجين اثنين أى ذكرا وأنثى وأن يركبها هو والمؤمنين معه وأهله إلا من سبق عليه القول منهم؛ ونهاه أن تأخذه بالكفار شفقة فيخاطب الله فى شأنهم لأن الله قد حكم بإغراقهم.

وليس من غرضنا هنا ذكر قصة نوح عليه السلام، ولكن الذى يعنينا منها ومن غيرها هو ما يتصل بموضوع التوحيد الذى جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً من أجل الدعوة إليه. ونستطيع بتأمل ما ورد من الآيات بشأن هذه القصة فى مواضعها من القرآن الكريم أن نستخلص منها العبر والملاحظات الآتية:

أولا: أن أول شىء بدأ به نوح عليه السلام دعوته لقومه هو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، يتبين ذلك من قوله تعالى فى سورة الأعراف «لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ومن قوله فى سورة هود عليه السلام «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله» ومن قوله فى سورة المؤمنون «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

وسنرى ذلك أيضاً فى دعوة غيره من الأنبياء، كهود وصالح وشعيب وإبراهيم وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام. ولا عجب فإن الدعوة إلى التوحيد هى أساس كل رسالة، وقد بذلوا فى سبيله أكثر أوقاتهم، وخاطروا بمهجهم وأرواحهم.

ثانيا: استمرار نوح عليه السلام فى دعوته ومثابرته عليها دون انقطاع أو ملل وعدم اكتراثه بما كان يتهدده به قومه من نفى أو قتل، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الحق فى ثباتهم وصبرهم وعدم مبالاتهم بتشغيب أهل الباطل عليهم وائتمارهم بهم.

ثالثا: ذكر القرآن أن الذين عارضوا نوحا وتصدوا لدعوته وناصبوه العداوة هم الملأ أى السادة والأشراف من قومه، وهكذا كان الحال بالنسبة لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون).

وهذا أمر طبيعى فإن هؤلاء الأشراف بما أشربت قلوبهم من حب الرياسة والتسلط لا يرضون عن دعوة تجعل الناس كلهم سواسية وتنزل بهؤلاء السادة من

ابراجهم العاجية إلى حيث يكون الدهماء والسوقة: ولهذا نراهم يجعلون المانع لهم من الاستجابة لنوح، والدخول فى طاعته، أنه لم يتبعه إلا أراذلهم وعامتهم من الفقراء والعبيد وأصحاب الحرف الحقيرة.

ففى سورة هود عليه السلام يقول هؤلاء الملأ لنوح عليه السلام: (ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين).

وفى سورة الشعراء يقولون له (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) ولم يكتفوا بهذا بل جعلوا شرط اتباعهم لنوح عليه السلام أن يطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه ولكن نوحا يجيبهم فى حزم وصرامة أنه لا يملك منع أحد من الإيمان مهما كان ضعفه وخسة منصبه وأنه لا يستطيع طرد هؤلاء الأرذلين من مجلسه لأنه يخشى إن هو فعل ذلك أن ينزل به عقاب الله الذى لا يملك أحد دفعه عنه. تأمل قوله فى سورة هود عليه السلام: (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون، و يا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون. ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين).

ولعل هذا الموقف للمستكبرين من قوم نوح حيال ضعفة المؤمنين به يذكرنا بما حاولته قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتراحهم عليه أن يجعل لهم مجلساً خاصاً، لا يسمح فيه لأحد من الضعفاء أن يقربه كبلال وعمار وصهيب ونحوهم من فقراء المسلمين ولكن الوحى ينزل بتحذير الرسول من الاستجابة لما طلبه القوم و ينذره بأنه إن فعل ذلك يكون ظالماً لأنه إنما أرسل إلى الناس كلهم فيجب أن يكونوا جميعاً سواء عنده لا يختص أحد منهم بشىء دون الآخرين، قال تعالى: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، وما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس

الله بأعلم بالشاكرين).

بل إن الآيات لتنزل تعاتبه عليه السلام لأنه عبس فى وجه أعمى يريد الدخول فى الإسلام لما شغله عما كان فيه من دعوة هؤلاء الكبراء طمعاً فى إيمانهم ليكون للإسلام بهم قوة ومنعة، قال تعالى: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) الآيات.

رابعاً: إن نوحا عليه السلام سلك فى دعوة قومه كل سبيل وتفنن فى أساليب النصح والتذكير، فهو تارة يعدهم على الإيمان والتوحيد رزقاً حسناً وحياة طيبة وكثرة فى المال والولد (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال و بنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) وطوراً يخوفهم عاقبة تماديهم وإصرارهم على الكفر والضلال: (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم).

وأحياناً يلفت أنظارهم إلى آيات الله فى الأنفس والآفاق ليهتدوا بها إلى أن الخالق لهذه العوالم كلها، علويها وسفليها، هو الجدير بالعبادة وحده دون ما عداه من هذه الآلهة المزعومة التى لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لعابديها شيئا (ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلا فجاجا).

وهكذا يجب أن يكون الداعى إلى الله مرناً فى دعوته متفنناً فى إيراد الحجج عليها، مراعياً حال المدعوين فيسلك معهم من الطرق ما يناسب حالهم ليكون ذلك أدعى إلى استجابتهم له.

خامساً: أن نبى الله نوحاً رغم طول أناته وجميل صبره لم يبد فى دعوته ضعفاً ولا ترددا بل ظل ثابتاً كالطود رغم تهديد القوم ووعيدهم، وقد ذكرنا أنه لم يجبهم

إلى ما طلبوه من طرد المؤمنين وإقصائهم عن مجالسهم. ولقد وقف منهم موقفاً حاسماً غاية فى الروعة حين قال لهم: (يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين).

يقول العلامة السلفى فضيلة الشيخ محمد العدوى رحمه الله فى كتابه (دعوة الرسل إلى الله) عند تعليقه على هذه الآيات. وفى القصة من العبر أنه إذا سئم المدعوون من طول مدة الدعوة فليس للداعى أن يسأم، واعتماد الداعى فى دعوته على ربه لأن ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملا واستهانته بكل ما يلاقى فى سبيل الدعوة ويمحص قلبه و يرفع منزلته، فهذا نبى الله نوح لا يبالى بتجمع قومه عليه واستعانتهم بشركائهم، و يأمرهم بأن يجمعوا أمرهم و ينفذوا قضاءهم فيه، لأنه واثق بأن النصر حليفه والعاقبة له ولأنصاره.

سادسا: كان الله عز وجل قد وعد نوحا بإنجاء أهله إلا من سبق عليه القول منهم بأن يبقى على كفره، فلما غرق ابنه فيمن غرق توجه نوح إلى ربه بهذا السؤال (رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) يقصد به الاستعلام والكشف عن حال ولده ــ أى قد وعدتنى بإنجاء أهلى ووعدك الحق الذى لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين.

فجاءه الجواب الحاسم من الله عز وجل: (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين).

فلم يقبل الله عز وجل من نوح عليه السلام حتى مجرد السؤال عن حال ولده ليعرف سبب إغراقه مما يؤذن بأنه لا صلة أصلا بين مؤمن وكافر، و بأنه لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

يقول الشيخ العدوى فى التعليق على هذه الحادثة «تأمل ذلك الحكم العادل الذى فرق بين نوح و بين فلذة كبده، فجعل ولده فى جملة الهالكين، وجعل نوحا

فى عداد المرسلين المجاهدين، وإنها لعبرة كبرى وآية عظمى أن يكون الوالد فى ناحية والمولود فى ناحية أخرى، الوالد فى عداد الناجين والولد فى جملة الهالكين، لأن الولد عمل غير صالح. ولعل فى هذه القصة عبرة لمن يعتمدون على أنسابهم و يتكلون على غير عملهم، و ينسون قول الله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى، ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى).

واعتبر فى هذا الباب أيضا بما كان بين إبراهيم خليل الرحمن و بين أبيه آزر حيث دعاه إلى الإيمان فأعرض، فلما تبين لإبراهيم انه عدو لله وأنه مصر على الكفر وعبادة الأصنام أعلن البراءة منه ومن قومه وقال لهم فى غير مواربة (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده).

واعتبر كذلك بما كان من حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هداية عمه أبى طالب، لأنه كان يذود عنه ويحميه، ويحس نحوه باعظم الشفقة، فلم يغن عنه شيئاً، ومات أبو طالب كافراً، ولما استغفر له الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته نهاه الله عن ذلك وأنزل عليه (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم).

ولما نزل عليه قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام صلوات الله وسلامه عليه فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية إبنة عبدالمطلب، يا بنى عبدالمطلب لا أملك لكم من الله شيئا سلونى من مالى ما شئتم» أخرجه مسلم من حديث عائشة.

وفى رواية أبى هريرة أنه دعا قريشاً فعم وخص فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر

بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

فلا ولاية بين مسلم وكافر، وقد قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وقال (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) وقال (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم).

وهذه الآيات إنما تنهى عن اتخاذ غير المؤمنين بطانة وأصفياء وإيثار موالاتهم على مودة المؤمنين والإفضاء إليهم بأسرار الجماعة الإسلامية ولكنها لا تنهى عن مخالطتهم بالمعروف وحسن معاملتهم ورعاية العدل معهم كما قال تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) وفى الحديث الصحيح (خالط الناس ودينك لا تكلمنه) أى لا تجرحنه ولا تخالفنه.

سابعا: والعبرة الأخيرة والمهمة فى قصة نوح عليه السلام هى أن العاقبة لأهل التوحيد والإيمان، وأنهم قد يمتحنون وتجرى عليهم أنواع من البلاء ثم يكون النصر لهم. قال تعالى: (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقال سبحانه (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين).

وبالجملة فلا خير فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا والتوحيد هو أصله والطريق إليه، ولا شر فى الدنيا والآخرة إلا والشرك هو سببه والمفضى إليه. يقول العلامة ابن القيم رحمه الله فى كتابه الفوائد:

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون).

وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون فى الدنيا وما أعد لهم فى الآخرة ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل.

هذه سنة الله فى عباده فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد. ودعوة ذى النون التى ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى فى الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجى منها إلا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، وبالله التوفيق. اهـ.

«ما بعد نوح عليه السلام»

بعد أن تم هلاك قوم نوح بالطوفان ونجى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين زالت بذلك عبادة الأصنام ورجعت الدولة للتوحيد ولم يبق على الأرض إلا مؤمن موحد. ويقال إن نوحاً عليه السلام ترك ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث، وأن أهل الأرض جميعاً بعد الطوفان كانوا من نسل هؤلاء الثلاثة، فسام أبو العرب والعبرانيين، ويافث أبو الترك، وحام أبو السودان والأحباش، ولعل مما يؤيد هذا قوله تعالى فى شأن نوح عليه السلام (وجعلنا ذريته هم الباقين).

فهذه الآية تفيد أنه لم ينسل من ركاب السفينة إلا أبناء نوح عليه السلام، ولهذا كان يقال له أبو البشر الثانى. ولابد أيضاً أن يكون قد مر وقت طويل قبل

أن تكثر ذرارى أبناء نوح و يتفرقوا فى الأرض سعياً وراء الرزق ولابد كذلك أنهم ظلوا مدة طويلة محافظين على ما ورثوه من نوح من التوحيد وشرائع العدل قبل أن يحصل منهم ما حصل من التغير والتبديل، ولكننا لا ندرى متى حدث الشرك بعد نوح فإن القرآن لم يحدثنا عن شىء من ذلك، وإنما حدثنا أن الله استخلف عادا فى الأرض بعد قوم نوح كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام يخاطب قومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون).

ولا ندرى أيضاً كم مر من القرون بين نوح وهود عليهما السلام ولكن الآية تفيد أنه لم يكن بينهما رسول ويجىء دائماً فى القرآن الكريم قصة عاد بعد قصة قوم نوح مما يدل على ما ذكرناه من أن عاد خلفت قوم نوح فى الأرض، وأنه لم يكن بينهما أمم، ولا يمكن أن يقال هنا أكثر من هذا، فإن هذه أمور موغلة فى القدم وعصور ما قبل التاريخ، فلا يجوز الكلام فيها بأزيد مما جاء به النص والسكوت عما وراء ذلك مما لا يضير الجهل به، إذ لو كان فيه فائدة لذكره الله عز وجل لنا ولنأخذ الآن فى بيان قصة هود عليه السلام.

« قصة هود عليه السلام »

أما هود فقد ذكر القرآن العظيم أنه أرسل إلى عاد وأن عادا كانت تسكن الأحقاف فى الجنوب الشرقى من الجزيرة بين حضرموت وعمان، وأنهم بلغوا من القوة وشدة البأس وكثرة المال والولد ما لم تبلغه أمة فى الزمان الأول وأنهم كانوا يتفننون فى ابتناء القصور الشامخة، ونحت البيوت فى الجبال كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام (أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين).

وكما قال الله عز وجل عنهم فى سورة الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد).

ولقد ذكرهم نبيهم هود نعمة الله عليهم ودعاهم إلى عبادة الله وحده الذى أمدهم بما يعلمون من أنعام، وبنين وجنات وعيون وحذرهم بطش الله ونقمته إن هم أصروا على كفرهم وعتوهم وأقاموا على عبادة آلهتهم الباطلة وذكرهم أيضاً أنه لهم ناصح أمين لا يسألهم على هذه الدعوت أجرا وإنما أجره على الله الذى أرسله ووعدهم أن يغدق الله عليهم النعمة و يزيدهم قوة إلى قوتهم إن هم أطاعوه وأتبعوه. فما كان من القوم إلا أن أجابوه على هذه الدعوة الكريمة بأخشن الجواب وردوا عليه بأغلظ الرد وقالوا له (إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) وقالوا له كذلك (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء).

وقال بعضهم لبعض متواصين بالكفر والطغيان (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه و يشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) وتعجلوا عذاب الله وقالوا له ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية.

قال تعالى : «وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود».

وكما فعلنا فى قصة نوح عليه السلام من استخلاص ما فيها من العبر والعظات كذلك نفعل هنا فنقول:

أولاً : إن قول هود لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) يدل على أن ما جرى

لقوم نوح قبلهم من الهلاك والإغراق كان لا يزال ماثلا فى أذهانهم ومع ذلك لم ينتفعوا بهذه العبرة لأن حب الدنيا والأنس إلى ما هم فيه من شرف ونعيم أعماهم وأصمهم وحملهم على البطر والطغيان وهذه عادة الكثير من الناس فى كل زمان ومكان إذا أعطوا شيئاً من الغنى والقوة نسوا كل واعظة وأمنوا كل جائحة، ولم يعتبروا بمصارع الذين كانوا من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً وصدق الله العظيم إذ يقول: (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى).

ثانياً: إن الذين ناوأوا هوداً وكذبوه وحملوا لواء المعارضة لدعوته هم الملأ والاشراف من قومه كما كان الحال مع نوح تماماً وهذه سنة الله فى الأولين والآخرين أن أهل الغنى والجاه هم العقبة الكؤود فى طريق كل إصلاح لأنهم يخشون من هذه الثورات الإصلاحية التحررية أن تقضى على جاههم ونفوذهم، وأن تنبه الجماهير المستذلة إلى حقوقها المسلوبة ومصالحها المهدورة فتثور على هؤلاء المستكبرين وتنزلهم من علياء كبريائهم وصلفهم، وأما المستضعفون من الناس فهم الذين يقبلون على دعوات الإصلاح و يسارعون إلى اعتناقها لأنهم يرون فيها الخلاص من ربقة الذل والاستعباد.

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن النبى صلى الله عليه وسلم (أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال له أبوسفيان: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هكذا أتباع الرسل).

ثالثاً: إن هوداً عليه السلام قد وقف من قومه موقفاً غاية فى الروعة حين قالوا له (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) فأعلن البراءة منهم ومن آلهتهم التى يدعون من دون الله وأشهد الله وأشهدهم على ذلك وتحداهم، وهم القوم الأشداء اغلاظ الأكباد أن يكيدوا له هم وآلهتهم وأن يجمعوا له كل ما عندهم من قوة ثم لا ينظرونه، ثم أعلمهم أنه متوكل على الله ربه وربهم الذى لا يعجزه شىء والذى هو آخذ بنواصى العباد كلهم وهو على صراط مستقيم، أى طريق العدل

الذى لا ظلم فيه ولا جور.

فهذا الموقف من هود عليه السلام يشبه موقف نوح من قبل حيث قال لقومه كما ذكرنا سابقاً (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون).

وهكذا شأن الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام فى ثقتهم بنصر الله وتوكلهم عليه وعدم اكتراثهم لما يرعد به أعداؤهم، قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً).

رابعاً: إن الله عز وجل ذكر قريشاً والعرب بما آل إليه أمر عاد، وحذرهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بهم من الهلاك والتباب، وذلك لأن ديار عاد كانت معروفة لهم، وكانوا يرون فى أسفارهم مقدار ما حل بها من الدمار والخراب. قال تعالى (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون).

« قصة صالح عليه السلام »

تجىء قصة صالح فى الترتيب القرآنى عقيب قصة هود فى جميع المواضع التى ذكرت فيها القصتان، ففى سورة الأعراف جاءت القصص على هذا الترتيب: نوح ثم هود ثم صالح.

بل قد جاء على لسان صالح عليه السلام فى تلك السورة أنه قال لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً).

وفى سورة (براءة) يقول سبحانه فى صدد تذكير المنافقين بما حصل للمكذبين قبلهم «ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

وكذلك الشأن فى سورة هود والحجر والشعراء والقمر وغيرها مما يدل على ان الأمتين (عاد وثمود) كانتا متقاربتين فى الزمان، وأن ثمود كانت على علم بما جرى لأسلافهم عاد من العذاب والنكال.

وكانت ثمود تسكن الحجر بين الحجاز والشام، وكان من خبرهم أن الله عز وجل أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى الله و يذكرهم نعمة الله عليهم وكيف أنه استخلفهم بعد عاد و بوأهم فى الأرض يتخذون من سهولها قصوراً و ينحتون الجبال بيوتاً فما كان من القوم إلا أن هزأوا بصالح عليه السلام ورموه بالسفه والجنون، وقالوا له: (يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) وسألوه آية تدل على صدقه فأخذ عليهم العهد إن جاءهم بالآية ليؤمنن به فأعطوه على ذلك عهودهم واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة فى الجبل ناقة ناتجاً معها فصيلها، فدعا الله عز وجل واستغاث به؛ فانتفخت الصخرة كأنها حامل متم ثم ارتجت وانشقت عن ناقة عظيمة الخلق فارهة المنظر فشت يتبعها فصيلها وهم ينظرون إليها ومع ذلك بقوا مصرين على كفرهم، وظلموا بآية الله الواضحة المبصرة كما قال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) ولم يفوا لصالح عليه السلام بما كانوا قد وعدوه به من الإيمان عند مجىء الآية، فأوصاهم أن لا يقربوا ناقة الله، وأن يذروها تأكل فى أرض الله ولا يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب يوم عظيم، وجعل لها يوماً لشربها ولهم شرب يوم معلوم، ولكن القوم ضاقوا بالناقة ذرعاً حيث كانت تنزل الوادى فتنفر منها دوابهم وأنعامهم وكانت تقتسم ماءهم على قلته، فانبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف فعقرها والقوم كلهم راضون بفعله، ولهذا

نسب القرآن العقر إليهم جميعاً كما قال تعالى (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) فقال لهم صالح (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) فلما جاء أمر الله نجى صالحا ومن معه من المؤمنين وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، فتولى صالح عنهم وهو يقول (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهكذا كفرت ثمود بربها كما كفرت عاد قبلها، فنزل بها من العذاب ما نزل بها، سنة الله فى القوم الظالمين، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

هذا مجمل قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، أما ما يمكن أن نستخلصه من هذه القصة فهو:

أولاً: طغيان ثمود فى أرض الله وإسرافها على نفسها بالكفر واقتراف الجرائم وعدم اعتبارها بما جرى على عاد قبلها من العذاب والهلاك، وهكذا يطغى الغنى صاحبه ويحمله على البطر و ينسيه مصارع من سبقه من الظلمة والمترفين.

ثانياً: ما بلغته ثمود من العتو والاستكبار عن قبول الحق والانقياد له، فقد جاءهم صالح برسالة الله فكذبوا بها وسخروا منها، ولما طلبوا الآية واقترحوها، وجاءتهم فى غاية القوة والظهور تعاموا عنها وجحدوا بها، ولم يكتفوا بذلك بل اجترأوا على عقرها مع علمهم عاقبة أمرهم، وتعجل نزول العذاب بهم (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) ولم يكتفوا بذلك أيضاً بل دبروا قتل نبيهم صالح هو وأهله وتقاسموا على ذلك ودبروا حيلة يتخلصون بها من دم صالح، وهو أن يقولوا لوليه: «ما شهدنا مهلك أهله».

قال الله تعالى من سورة النمل: (وإلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون، قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون، قالوا اطيرنا بك وبمن معك، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون. وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون،

ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون؛ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون).

ولقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بديار ثمود وهو ذاهب إلى تبوك وأنه نهى عن الشرب من ماء بئرهم والدخول عليهم وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم».

وهكذا أضافت ثمود إلى سجل المشركين من بنى آدم صفحة ملطخة بالظلم والوثنية والطغيان الكبير.

«إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام»

تأتى قصة إبراهيم خليل الرحمن فى الترتيب القصصى للقرآن بعد قصة صالح عليه السلام؛ فقد جاء فى سورة براءة قوله تعالى: (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

وفى سورة الحج (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير).

و يعتبر إبراهيم عليه السلام ابتداء عهد جديد للتوحيد، فقد دعا إليه فى قوة وحرارة بالغتين، وجاهر قومه وأباه بالعداوة وقال لهم فى صراحة وجرأة (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله؛ كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده).

وقال لهم كذلك (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى و يسقين وإذا

مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين).

ولما حاجه قومه فى الله عز وجل وخوفوه عاقبة كفره بآلهتهم وشتمه لها، قال لهم موبخاً مسفهاً (أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم).

ولم يكتف إبراهيم بهذه الدعوة القولية إلى التوحيد بل بلغت به الجرأة و بيع النفس لله عز وجل أن كاد لهذه الأصنام، فاهتبل فرصة خروج القوم إلى عيد لهم فراغ إلى آلهتهم فقال لهم مستهزئا ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، فلما رجع القوم إلى مدينتهم ووجدوا أصنامهم على هذا النحو من التفتت والهوان، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

وهكذا انحصرت التهمة فى إبراهيم «قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) وهكذا ضرب إبراهيم المثل فى التضحية والإخلاص والتفانى فى الدعوة إلى الله واحتمال كل ما يلقى فى سبيلها، ولو كان التحريق بالنار واستحق بذلك ما أثنى الله به عليه فى كتابه

من قوله عز وجل (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين).

وقوله (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

ولم تكن أهمية الدور الذى قام به إبراهيم عليه السلام فى الدعوة إلى التوحيد قاصرة على ما بذله فى حياته من جهد استحق به لقب الخلة للرحمن وتبوأ به منصب الإمامة فى الدين بل إن أهميته لتظهر أكثر وأكثر فى امتداد دعوته فى الأجيال من بعده كما قال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) وكما قال سبحانه (ووهبنا له إسحق و يعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) فجميع الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام كلهم من ذريته ولهذا لقب بأبى الأنبياء.

ومن يوم أن غرس إبراهيم شجرة التوحيد وهى مورقة يانعة الثمار بفضل من تعهدها بعده بالسقى والإنماء من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

نعم كانت تذبل أحيانا ويجف ورقها وتتصوح أزهارها بسبب تفريط الأبناء وغفلتهم عن عهود الآباء ولكنها على كل حال بقيت تغالب عوامل الموت والفناء. ولقد جاء عليها بعد عيسى عليه السلام آخر أنبياء بنى إسرائيل وقت من الزمان كادت تذهب فيه و ينمحى أثرها لولا أن تداركتها عناية الله بالرسالة الجامعة الخاتمة التى جاء بها محمد بن عبد الله النبى القرشى الأمى الهاشمى صلوات الله وسلامه عليه فبعث فيها الحياة قوية فتية، وجدد من شبابها حتى

استغلظت واستوت على سوقها وصارت وارفة الظلال ممتدة الأفياء أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

« ذكر إبراهيم عليه السلام فى الكتب المقدسة »

اتفقت الأديان الثلاثة الكبرى اليهودية والنصرانية والإسلامية على تقديس إبراهيم عليه السلام واحترامه والتباهى بالانتساب إليه، بل وصل الحد إلى ادعاء كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم حتى فضح القرآن جهلهم بقوله من سورة آل عمران (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه، وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين).

وقد جاء ذكر الخليل عليه السلام فى الكتب المقدسة الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وكلها تشير إلى مكانته العالية فى الدين وتضفى عليه ما هو أهل له من المديح والثناء.

فقد جاء فى سفر التكوين فى الإصحاح الثانى عشر (إن الرب قال لإبراهيم «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك من يباركك، ومن يلعنك ألعنه وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض فذهب إبراهيم كما قال له الرب وذهب معه لوط.

وفى الإصحاح السابع عشر جاء (ظهر الرب لإبرام وقال أنا الله القدير م أمامى وكن كاملا فاجعل عهدى بينى و بينك وأكثرك كثيراً جداً، فخر إبرا ساجدا وتكلم الله معه قائلا أما أنا فهوذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور م

الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمما ومنك ملوك يخرجون، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم) إلى أن يقول:

«وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ما أنا أباركه وأثمرة وأكثره كثيراً جداً اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة).

وجاء فى الإصحاح الحادى والعشرين عند ذكر قصة الفداء (ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى أقسمت إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك ووحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء).

وفى العهد القديم كذلك عدا ما ذكرنا إشارات كثيرة إلى إبراهيم عليه السلام منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ومنها ما يصفه و يصف بعض أخباره.

وقد جاء وصف إبراهيم بالخلة فى كتاب الأيام الثانى حيث يقول فى الإصحاح العشرين «ألست أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعب إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد».

وجاء ذكر إبراهيم أيضاً فى المصادر المسيحية، وإن كان ذلك على ندرة ففى الإصحاح الثامن من إنجيل متى يقول المسيح عليه السلام (الحق أقول لكم لم أجد فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب و يتكئون مع إبراهيم واسحق و يعقوب فى ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية.

وفى الإصحاح الثانى من إنجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به (إنكم إن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم، فأجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط فكيف تقول إنكم تصيرون أحراراً؟ قال الحق أقول لكم إن كل من يعمل بالخطيئة فهو عبد

للخطيئة والعبد لا يبقى فى البيت أبداً، أما الابن فيبقى للأبد، ثم قال لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.

وأما القرآن العظيم فقد أكثر جدا من ذكر الخليل إبراهيم بعبارات تفيض ببالغ الثناء وفريد التكريم.

قال تعالى من سورة البقرة «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمناً وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

وقال سبحانه فى مكان آخر من هذه السورة إخباراً عن محاجة إبراهيم نمرود بن كنعان (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت، قال أنا أحى وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين).

وقال جل شأنه من سورة آل عمران (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم).

وقال فى مكان آخر منها (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين).

وقال تعالى من سورة الأنعام (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناماً آلهة؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) الآيات إلى قوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم).

وورد ذكر إبراهيم كذلك فى سور يوسف وإبراهيم والحجر والنحل ومريم والأنبياء والحج والشعراء والعنكبوت والصافات وص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والممتحنة والأعلى.

وهكذا يحفل القرآن بذكر أبى الأنبياء إبراهيم، ويجعله فى مكان القدوة والإمامة فى الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه والمعاداة فيه ويجعله أمة وحده فى خصال الخير كلها.

« هل شك إبراهيم عليه السلام »

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين).

ظاهر هذه الآيات يفيد أن إبراهيم عليه السلام نظر فى هذه الأجرام العلوية التى كان يعبدها قومه ليمتحن صلاحيتها للإلهية، فلما تبين له بطلان إلهيتها بسبب

أفولها وغيابها أعلن البراءة منها، ومعنى ذلك أنه كان فى شك من أمرها أولا، ومعلوم أن الشك أخو الكفر، فقد أخبر الله عن الكفار أنهم قالوا لرسلهم (وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) فعبروا عن كفرهم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام بالشك والارتياب فيه وأخبر الله عن قوم صالح أنهم قالوا له (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب).

وقال تعالى فى شأن الكفار المنكرين للبعث (بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون).

فكيف يعترى الشك مقام خليل الرحمن مع ما هو معلوم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر قبل الرسالة وبعدها، وأنهم ينشأون على الفطرة السليمة التى هى الدين القيم والتوحيد الخالص.

قال ابن كثير رحمه الله «وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة، فروى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ما يقتضى أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلا بقوله (لئن لم يهدنى ربى) ثم قال: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية التى هى على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل، وهى الكواكب السبعة السيارة الخ.

وقال صاحب صفوة البيان، عند تفسير قوله تعالى (قال هذا ربى) أنه قال هذا على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليها بالإبطال ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال، وكذا يقال فى بعده.

و يقول صاحب كتاب «دعوة الرسل» تأمل كيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يحج قومه بطريق الإستدراج فحينما غطى عليه الليل رأى كوكباً فقال لقومه بأسلوب المتهكم (هذا ربى) فلما غاب ذلك الكوكب قال (لا أحب الآفلين).

أى فلا أعبد إلهاً يحضر أحياناً و يغيب أحيانا (فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) وكيف أعبد إلها يضىء بعض الوقت و يغيب البعض الآخر، ومن الذى يهدينى من الضلال إذا هو غاب ؟

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) لأن ضوءها أشد ونفعها أشمل وأعم (فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) وهى مهارة من نبى الله إبراهيم واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحجة ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم، انتقل بهم من كوكب إلى كوكب وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث حتى لا ينفروا من مجادلته وأراهم أن الكواكب على أختلافها قوة وضعفا لا يصلح واحد منها أن يكون إلها معبوداً لأنها تغيب وتحضر.

وهذه النقول كلها تفيد أنه قال ذلك فى معرض المناظرة لقومه وإلزامهم الحجة على بطلان عبادتهم لهذه الآلهة الآفلة المتغيرة. ولكن إذا قيل إن هذا الكلام منه كان على جهة النظر والاستدلال يبقى الإشكال، وقد أجاب عنه صاحب المواقف بأن هذا القول منه كان قبل تمام النظر فى معرفة الله وكان قبل النبوة، ولكن هذا لا يحل المشكلة إذ هو تسليم بحصول الشك من إبراهيم إلا أنه كان قبل النبوة، وقد قلنا إن ذلك مستحيل على الأنبياء قبل النبوة و بعدها.

وأحسن ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد أن إبراهيم عليه السلام أراد اليقين بضم نظر العقل إلى نور الفطرة، فأخذ يسائل نفسه كلما طلع كوكب من هذه الكواكب : أهذا ربى كما يدعى ذلك أبى وقومى، فيتجلى له الحق واضحاً حين

يراها تتهاوى واحدا بعد الآخر وتغيب وراء الأفق البعيد، فاطمأنت عند ذلك نفسه وازداد يقينه بما كان قد عرفه قبل ذلك عن طريق الإلهام والفطرة فهو كقوله تعالى عن إبراهيم (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى).

فإبراهيم عليه السلام لم يكن يشك فى قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، ولكنه أراد أن يرى ذلك عياناً ليتضح له عين اليقين مع علم اليقين.

وقد روى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قوله عليه السلام « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى).

« ديانة قوم إبراهيم »

المعروف أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا صابئة، يعبدون الكواكب والنجوم و يعتقدون أنها أجسام للملائكة، و يتخذون لها صورا فى الأرض من التماثيل والأصنام يعبدونها ليتقربوا بها إلى الله عز وجل، وكانت شعائر عبادتهم مزيجاً من شتى الديانات حتى أنه قلما يوجد دين من الأديان المعروفة إلا وللصابئة شبه به فى بعض الشعائر، و يقول الأستاذ عباس العقاد فى التعليل لتلك المشابهة فى كتابه المشهور (أبو الأنبياء) «إن مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم فى طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الإقليم أو يقيمون فيه، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء».

فمن مشابهتهم للبراهمة أنهم يتحرجون من ملامسة غيرهم و يتطهرون إذا لمسوا غيرهم فى حالة العبادة.

ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد الأورفية أو السرية أنهم يكتمون كتبهم أشد

الكتمان ويخفون شعائر دينهم عمن ليس منهم و يقتسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية و يعتقدون أن لكل شيء ظاهرا و باطناً ، لكل مخلوق فى العلانية صورة محجوبة فى عالم الغيب حتى آدم و بنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن.

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون إلى قطب الشمال وإلى الكواكب عامة. ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعماد ويبجلون يوحنا المعمدان أو يحيى المغتسل، وأن كان التعميد عندهم أعم مما هو عند المسيحية حيث يحتاجون كل يوم إلى العماد وإلى التطهر بالماء.

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات فى اليوم و يقولون إنها فرضت عليهم سبعاً ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها فى بعض واكتفى منها بثلاث، ولكنهم لا يسجدون فى صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع، وهم يتوضأون قبل الصلاة و يغتسلون من الجنابة و يعرفون نواقض الوضوء.

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم فى ختام السنة كيوم اليهود، ولكنهم يحرمون الختان ولا يقيمون لهم هيكلا مبنيا وهم ينكرون الأنبياء و يقولون إن الله لا يخاطب أحداً من البشر وانما خلق الله الروحانيات (الملائكة) ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النوارنية، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة من هذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون، صنعوا لها صورا من الأوثان وجعلوا اتجاههم إلى نجم القطب لأنه ثابت فى مكانه.

والمشهور عن الصابئة أنهم يوقرون الكعبة فى مكة و يعتقدون أنها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة، و ينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه الصلاة والسلام فى كتبهم و يسمونه عندهم ملك العرب لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء.

ويقول الأستاذ العقاد الذى نقلنا من كتابه هذه الجملة من عقائد الصابئة، فى كتابه المذكور ما نصه: (ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن

معتقداتهم وشعائرهم لأنهم يصطنعون التقية و يوجبونها).

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء فى سورة البقرة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم فى أيام الدعوة الإسلامية، ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه و يقولون إن الكواكب ملائكة نورانية، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الإسلام، ولابد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس إلى الحق، لأن الروحانيات مخلوقه من كلام الله جل وعلا دعاها بأسمائها فوجدت ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بواسطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية، وتؤثره نعمة الله. اهـ.

« مواقف للخليل عليه السلام فى الدعوة إلى التوحيد »

إن المتأمل فى حياة الخليل ابراهيم عليه السلام يجدها كلها سلسلة متصلة الحلقات من النضال والثورة على عقائد قومه ومعبوداتهم ويجد له مواقف فى غاية الروعة فى الجهر بدعوة الحق، وإفحام المعاندين لها بالحجج القوية والعبارات الأخاذة.

فمن ذلك ما حكاه الله عز وجل فى سورة البقرة من محاجته لنمروذ الطاغية ملك الكنعانيين حين سأله عن ربه الذى يعبده و يدعو إلى عبادته، قال إبراهيم (ربى الذى يحيى ويميت) فقال له الملك فى حمقه وعتوه (أنا أحى وأميت) فيقال إنه دعا برجلين وأمر بقتلهما، ثم عفا عن أحدهما وقتل الآخر. فلم يشغل إبراهيم نفسه بالكشف عن مغالطة الملك الجاهل وتلبيسه ولكنه انتقل من توه إلى حجة أخرى لا يستطيع لها دفعاً ولا يملك معها إلا التسليم والإذعان فقال له إبراهيم

(فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين).

ومن ذلك ما حكاه الله عز وجل فى سورة مريم من نصيحته لأبيه آزر تلك النصيحة التى تفيض إخلاصاً وشفقة فهو يقول له فيها: (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً).

ولما قال له أبوه فى حدة وغلظة (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً).

لم يكن منه عليه السلام إلا أن قال له فى لطف وأدب (سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء رب شقياً).

ومن ذلك قوله لقومه ما حكاه الله فى سورة الشعراء (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى و يسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين. والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين).

فذكر فى هذه الآيات ما يوجب عبادته لله وحده من كونه هو الذى خلقه وهداه وأطعمه وسقاه وإذا مرض شفاه).

ومن ذلك قوله لهم فى سورة العنكبوت (اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثاناً، وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) ولما كادوا له بالإلقاء فى النار ونجاه الله عز وجل منها قال لهم:

(إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة

يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)

فسلام على إبراهيم داعيا إلى التوحيد والدين القويم.

«قصة بناء البيت الحرام ليكون مثابة لأهل التوحيد»

كانت سارة زوج إبراهيم وإبنة عمه عقيما لا تلد، وكان إبراهيم قد قدم بها إلى مصر؛ ونمى إلى فرعون ما عليه السيدة سارة من جمال بارع، فأرسل من يأتيه بها فقال لها إبراهيم: إذا سئلت عنى فقولى إنه أخى، لأنهم إن علموا أنك زوجتى يقتلونى لتخلصى لهم، وهم فرعون بالسيدة ليقربها مرارا، وفى كل مرة يرد الله كيده فى نحره، فلما علم أن لا سبيل له إليها ردها إلى إبراهيم مكرمة وأتحفها بالهدايا الثمينة وأخدمها جارية تسمى هاجر.

ولما رأت سارة حنين زوجها إلى الولد وهبته هاجر ليستولدها فولدت له إسماعيل عليه السلام، ورأت سارة مدى تعلق إبراهيم بولده و بأمه هاجر، فأخذتها الغيرة وطلبت إلى إبراهيم أن يذهب بهما بعيداً عنها فأمره الله عز وجل أن يذهب بهما إلى برية فاران التى هى جبال مكة، ولم يكن بها حينئذ أحد من الناس، وترك لهما إبراهيم بعض الزاد والماء وقفل راجعا، فتبعته هاجر تناديه يا إبراهيم إلى من تتركنا فى هذا المكان القفر؟ فلا يلتفت إليها، وكررت عليه السؤال وهو ماض فى طريقه لا يجيبها، فقالت له آلله أمرك بهذا، قال نعم، فقالت إذاً لا يضيعنا.

ولما بعد إبراهيم عنهما بحيث لا يرياه توجه إلى الله بهذا الدعاء الضارع الذليل (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) فاستجاب الله دعاء خليله إبراهيم، وأمره أن يبنى فى هذا المكان بيتاً يكون مثابة للناس وأمنا، وأن يؤذن فى الناس بالحج يأتون رجالا وعلى كل ضامر يأتين من

كل فج عميق.

ولما نفد ما لدى هاجر من ماء وزاد وأدرك إسماعيل العطش ذهبت أمه تبحث له عن ماء، فأخذت تصعد الصفا مرة ثم تنزل فتصعد المروة تنظر هل ترى من البشر أحداً، فلما يئست من غوث المخلوق رجعت إلى ولدها وهى مقدرة أنها هالكان لا محالة فوجدت عنده عين ماء يفيض ماؤها، كان جبريل عليه السلام قد نزل فحفرها بجناحه، ففرحت هاجر بغوث الله، وأخذت تزم الماء وتحوطه.

وجاء جماعة من جرهم فأستأذنوا هاجر فى أن ينزلوا قريباً من الماء فأذنت لهم، وكبر إسماعيل وشب عن الطوق، وكان أبوه يأتى ليزوره هو وأمه بين الحين والحين، وفى إحدى هذه المرات رأى فى منامه أنه يؤمر بذبحه، ورؤيا الأنبياء حق، فقام إبراهيم من فوره يقص على ابنه رؤياه و يقول له: (يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) فما كان من الولد إلا التسليم والإذعان لأمر الله والحث لأبيه على فعل ما أمر به فقال له: (يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم).

وفى مرة أخرى من هذه المرات أمر الله عز وجل إبراهيم ان يبنى له فى هذا المكان بيتاً، وبوأ له مكان البيت وحدد معالمه، كما قال تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) فأخبر بذلك ولده إسماعيل ليكون عوناً له على إتمام هذا العمل الجليل، فأخذ إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة حتى رفعا قواعد البيت، ثم توجها إلى الله عز وجل بهذا الدعاء:

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم).

وقد استجاب الله دعاء خليله، فبعث فى ولد إسماعيل أكرم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل وطموس من السبل داعياً إلى الحنيفية السمحة والتوحيد الخالص، ووعده أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون.

لوط عليه السلام

كان لوط ابن أخى إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وقد آمن له وهاجر معه من كور الكلدانين إلى أرض كنعان، وقد بعثه الله إلى أهل سدوم وكانت قرية من الأردن، وكان أهلها يعملون الخبائث و يأتون الذكران من الناس، ولم يسبقهم إلى هذه الفاحشة أحد من العالمين، فدعاهم أخوهم لوط إلى الله عز وجل، ونهاهم عن فعل الفاحشة وإتيان المنكر فى ناديهم فما كان جواب قومه على هذه الدعوة الخالصة والنصيحة المشفقة إلا أن هددوه بإخراجه من القرية، وقالوا له: (لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) فأعلن لوط البراءة منهم، وقال (إنى لعملكم من القالين) ودعا الله عز وجل أن ينجيه وأهله مما يعملون فنجاه الله وأهله أجمعين إلا امرأته فإنها كانت على دين قومها، وكانت تخونه وتدلهم على أضيافه، فكانت من الغابرين، أى الباقين فى العذاب، فلما أراد الله عز وجل إهلاكهم أرسل الله إليهم جنداً من الملائكة ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين.

ومرت الرسل أولا على إبراهيم يحملون إليه بشرى هبة الله له ولداً من سارة وهو إسحاق عليه السلام، فعجب إبراهيم وعجبت امرأته لهذه البشرى التى جاءت فى إبان العقم والكبر، وقالت سارة: (أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد). وفطن إبراهيم إلى أن الرسل قد جاءوا لمهمة أخرى غير

البشارة بإسحاق، فسألهم: ما خطبكم؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط فأخذ يجادلهم فى هذا و يقول لهم: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين وما زال إبراهيم يجادل الرسل، يحاول صرفهم عما أرسلوا به، حتى جاءه النداء من الله عز وجل (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود).

وجاءت الرسل لوطاً فسىء بهم وضاق بهم ذرعاً، لأنهم جاءوا على هيئة غلمان مرد، وهرولت امرأته إلى قومها تخبرهم بذلك الصيد الثمين، فجاءوا يهرعون إليه، واشتد الأمر عن لوط عليه السلام حتى صار يعرض عليهم بناته و يقول لهم (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى، أليس منكم رجل رشيد؟ قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد).

فلما سمعت الرسل مناقشة لوط لقومه وإباءهم عليه طمأنوه وقالوا له: (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم) وأخبروه (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ولما جاء أمر الله جعل عالى مدينتهم سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل وتم هلاك القوم الظالمين الذين أضافوا إلى سجل الإنسانية صفحة ملطخة بالعار والخلق المشين وصاروا مثلا يضرب لكل من يفعل مثل فعلتهم إلى يوم الدين.

«ما بعد إبراهيم عليه السلام»

مات إبراهيم عليه السلام تاركاً من ورائه ولدين هما (إسماعيل) من هاجر المصرية، وقد أسكنه كما تقدم بواد غير ذى زرع عند البيت الحرام فى برية فاران.

وأما إسحاق فمن زوجته سارة، وقد بقى فى فلسطين.

وسنرجىء الكلام على إسماعيل عليه السلام، ليكون الحديث عنه موصولا بالحديث عن الدعوة الاسلامية التى قام بها واحد من ذريته، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

أما إسحاق فقد ورد ذكره فى القرآن مقروناً غالباً بأبيه إبراهيم مما يدل على أن إبراهيم قد عاش حتى كبر إسحاق و بلغ مبلغ الرجال.

ورد فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين أن إبراهيم لما شاخ وتقدمت به الأيام و باركه الرب فى كل شىء، قال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له «ضع يدك تحت فخذى فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق(١)».

وقد وردت البشارة بإسحاق فى عدة سور من القرآن الكريم ففى سورة هود عليه السلام يقول الله تعالى: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت ياو يلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد».

وفى سورة الحجر يقول جل شأنه: «ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم، قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون».

---

(١) ينبغى أن يعلم أن ذكر هذه الروايات الإسرائيلية لا يقصد منه اعتقاد مضمونها، فإننا لا ندرى أصادقه هى أم كاذبة بل نحن نجزم بكذب ما كان منها مخالفاً لما عندنا.

وفى سورة الذاريات يقول سبحانه: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت أمراته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم».

ووردت البشارة به أيضاً فى كتب (العهد القديم) بما يقرب مما جاء فى القرآن العظيم.

جاء فى الإصحاح السابع عشر: «وقال الله لإبراهيم: سارای امرأتك لا تدع اسمها سارای، بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابنا، فخر إبراهيم ساجداً وضحك، وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة سنة، وهل تلد سارة وهى بنت تسعين وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله، بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدى له عهدا أبدياً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة، ولكن عهدى أقيمه لإسحاق، الذى تلده لك سارة.

ثم جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين أن سارة ولدت إسحاق وختنه إبراهيم وهو ابن ثمانية أيام، وكان إبراهيم قد أوفى على المائة والذى يهمنا هنا من أمر إسحاق عليه السلام أنه ورث أباه إبراهيم فى حمل رسالات الله والدعوة إلى توحيده كما قال تعالى (وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين).

وورد ذكره فى جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بما أنزل إليهم قال تعالى من سورة البقرة:

«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق

بين أحد منهم ونحن له مسلمون).

وورد ذكره أيضاً هو وأبيه إبراهيم وولده يعقوب فى عداد الرسل الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم لما لهم من شأن عظيم فى مقام الدعوة والقدوة الحسنة فقال تعالى من سورة ص: «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار).

«يعقوب عليه السلام»

كان يعقوب ولداً لإسحق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة وأتم التسليم.

ولقد جاءت البشارة به مع البشارة بأبيه إسحق؛ قال تعالى من سورة هود (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) وقال من سورة الأنعام، (ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا).

وقال من سورة الأنبياء (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين».

ويعقوب عليه السلام هو إسرائيل الذى ينسب إليه ذلك الشعب الذى عرف فى التاريخ باسم شعب اسرائيل، والذى ذكر لنا القرآن الكريم الكثير من جرائمه لاسيما فى سورتى البقرة والمائدة.

وتذكر المصادر الإسرائيلية قصة عجيبة فى سبب تسميته بإسرائيل وهو أنه بعد عودته من العراق بقى وحده، وجاءه رجل فصارعه حتى الفجر وهو لا يقدر عليه فضرب حق فخذ يعقوب فخلعه وقال له أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال له يعقوب لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب، فقال له لا

يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» .

وتذكر لنا سورة يوسف عليه السلام تلك المأساة العنيفة التى عاشها يعقوب عليه السلام منذ مكر إخوة يوسف به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فقد حزن يعقوب على ولده حزنا صار مضرب المثل و بكاه حتى ابيضت عيناه وزاده حزنا على حزنه وتكا فرحه وأدماه ذهابهم بأخيه الآخر بنيامين الذى احتجزه يوسف عليه السلام بتلك الحيلة البارعة وهى دسه صواع الملك فى رحل أخيه (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين. قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين. فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله) .

وتذكر السورة أيضاً من صبره على المحنة وإخلاصه الشكوى إلى الله واستعانته به على كيد أبنائه وعدم يأسه من روحه ما هو جدير برسول كريم من نسل إسحق بن إبراهيم.

ولقد جرى يعقوب عليه السلام على سنة أبويه إبراهيم وإسحق فى التمسك بأهداف التوحيد وتوصية بنيه بالثبات عليه وقال تعالى: (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا، ونحن له مسلمون) .

وعلى الجملة فقد كان يعقوب عليه السلام يمثل حلقة من حلقات الكفاح فى

سبيل التوحيد، كما كان أبا ينتسب إليه هذا الشعب الكبير الذى لعب دوراً كبيراً على مسرح الحياة، وتقلبت عليه أطوار عديدة تأرجح فيها بين الوثنية والتوحيد و بعثت فيه كثرة كاثرة من الرسل والأنبياء الذين كانوا حراسا أمناء على عهد الله وعلى توجيه هذا الشعب العنيد لحمايته من الشطط والضلال والانحراف.

« يوسف الصديق عليه السلام »

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل من أكرم الناس ؟ فقال يوسف: نبى الله بن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله بن إبراهيم خليل الله .

وفى رواية : الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهو سليل هؤلاء الأنبياء الكبار، فلا عجب إن كان على غرارهم فى الصدق والإخلاص وشدة الحماس فى الدعوة إلى التوحيد وانتهاز كل فرصة لبث هذه الدعوة وتبليغها .

و بظهور يوسف عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة فى الدعوة إلى عبادة الله الواحد يكون مركزها مصر بدلا من فلسطين. فقد جاء يوسف إلى مصر وهو غلام صغير حين كاد له إخوته وألقوه فى غيابة الجب وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ليستقى لهم من البئر فتعلق يوسف برشاء الدلو وخرج، وما أن رآه الرجل حتى هتف يا بشرى هذا غلام، وأسروه بضاعة وعرضوه للبيع فى أسواق مصر فبيع بثمن بخس، دراهم معدودة، وكان الذى اشتراه هو عزيز مصر الذى أوصى به امرأته خيراً، وقال لها (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) .

وقد امتحن الصديق فى بيت هذا الرجل امتحاناً رهيباً حيث راودته التى هو فى بيتها عن نفسه، وغلقت عليه الأبواب وقالت: هيت لك، ولكن الصديق يجيبها بجواب حاسم يقطع طمعها فيه و يرجع إليها ما عزب من ضميرها فيقول

(معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون).

ولقد همت به هذه المرأة لكى تحمله قسراً على ما يريد وكان هو فى مكنته أن يهم بها لولا ما أراه الله من البرهان على قبح ما دعته إليه، قال تعالى: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

ثم انفلت منها هارباً نحو الباب فجرت وراءه وأمسكت بذيل قميصه فقدته، وألفيا سيدها لدى الباب فابتدرته المرأة المغيظة المحنقة بقولها: (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) تريد دفع التهمة عن نفسها وتحميلها يوسف عليه السلام ثم تقترح إنزال العقوبة به فلم يسع الصديق إلا ان يدفع التهمة عن نفسه و يقول: (هى راودتنى عن نفسى) (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم).

وكان بعد ذلك ما كان من إيداعه السجن بعد ظهور براءته ودخول فتيين معه السجن وطلبها منه أن يعبر لهما عن رؤياهما وتحدثه إليهما بما أنعم الله به عليه من علم تعبير الرؤيا وهجر الملل الباطلة والتمسك بدين آبائه وأجداده فى التوحيد والإيمان ووعظه لهما بأن يسلكا سبيله فى ذلك تاركين عبادة هذه الأرباب المتفرقة التى لا حقيقة لها؛ وإنما هى أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان ثم تعبيره لهما رؤياهما بعد ذلك بقوله (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) ثم قوله للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك ونسيانه ذلك، فلبث الصديق فى السجن بضع سنين.

ثم ما كان من تعبيره رؤيا الملك واستدعاء الملك إياه وطلبه عليه السلام من الملك سؤال النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز لمشاهدة يوسف وافتتانهن به وشهادتهن ليوسف بالعصمة ونفيهن عنه التهمة واعتراف إمرأة العزيز على نفسها

بأنها هى التى راودته عن نفسه مما جعل العزيز يكبره و يزيد فى تقريبه و يقول له: (إنك اليوم لدينا مكين أمين).

ثم ما كان من تمكين الله ليوسف فى أرض مصر حيث جعله الملك على خزائن الأرض، ومن مجىء إخوته إلى مصر يلتمسون الميرة لما قحطوا. ومن احتياله عليهم حتى جاءوا له بأخيه، ومن استبقائه أخاه معه فى مصر بتلك الحيلة البارعة التى أشرنا إليها آنفا فى ترجمة أبيه يعقوب، ومن إلحاح إخوته عليه فى أن يأخذ أحدهم مكانه، لأن له أباً شيخاً كبيراً، وقد أوصاهم بالمحافظة عليه وقال لهم: (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم).

ثم ما كان من رفض يوسف عليه السلام لما عرضوه عليه بقوله (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ومن انصرافهم من عنده يائسين وامتناع أخيهم الأكبر عن الرحيل معهم، ورجوعهم إلى أبيهم فى فلسطين بدون أخيهم بنيامين، وقولهم له لما سألهم عنه (إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون) واتهام أبيهم لهم بالتفريط فى حق أخيهم كما فرطوا فى يوسف من قبل، وتذكره ليوسف وأخيه وشدة بكائه حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ورجائه فى الله أن يرد عليه يوسف وأخاه، وطلبه من بنيه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه ولا ييأسوا من روح الله.

ثم ما كان من عودتهم إلى مصر ودخولهم على يوسف عليه السلام وقولهم له: (يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين) ورده عليهم بقوله: (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) وإجابتهم له مستفهمين (إنك لأنت يوسف ؟) وتعريف يوسف إياهم بنفسه حين واتت الفرصة ووصلت المحنة إلى غايتها بقوله (أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق و يصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين).

ثم طلبهم منه أن يستغفر لهم معترفين بخطيئتهم، ووعده إياهم بأن يستغفر لهم الله عز وجل، وأمره لهم أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه و يلقوه على وجهه ليرتد بصيراً.

ثم ما كان من مجيء يعقوب وآله جميعاً إلى مصر وإيواء يوسف أبيه إليه وقوله لأهله (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ورفعه أبويه على العرش وخرورهم له سجداً وتذكيره لأبيه بالرؤيا التى رآها من قبل أن تجرى عليه هذه المحن كلها، وقوله له: (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم).

هذا مجمل قصة يوسف عليه السلام كما جاءت فى السورة الكريمة التى سميت باسمه. تظهرنا على ما تقلب فيه الصديق من محن وما تعرض له من فتن وما جرى عليه من نعمى الحياة و بؤسها. وما قاساه من كيد إخوته له أولا، ثم كيد امرأة العزيز له ثانياً. ثم كيد النسوة اللائى قطعن أيديهن حين رأينه ثالثاً، ثم إيداعه السجن بلا ذنب ولا جريرة، وهو فى كل ذلك صابر كريم النفس قوى على الأحداث ممتنع على الفتن، فاستحق لقب الصديق بجدارة واستأهل الثناء عليه من الله عز وجل بقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

وإذا كان مما لا شك فيه أن يوسف عليه السلام كان نبيا ورسولا فينبغى أن لا يشك أيضا فى أن مجال رسالته كان فى مصر فإنه لم يعرف فيما نقل إلينا من اخباره أنه خرج منها بل الثابت أنه ظل بها إلى أن مات ودفن بها.

ولقد جاءت آية صريحة من سورة غافر تدل على أن رسالته كانت فى أهل مصر، وهى قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون يخاطب قومه ويحضهم على الإيمان بموسى عليه السلام (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا، كذلك يضل

الله من هو مسرف مرتاب).

ولكن متى أرسل يوسف عليه السلام؟ ليس هناك فى الواقع نص يحدد لنا بدء إرساله.

وأما قوله تعالى فى أول السورة بعد ما ألقاه إخوته فى غيابة الجب (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) فنحن نستبعد أن يكون هذا وحى نبوة، لأنه فى هذا الوقت كان غلاماً حدثا لم يبلغ الحلم، وإن كان قد ناهز، فلعل هذا الوحى كان من قبيل الإلهام كما فى وحى الله لأم موسى عليه السلام (أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم) الآية، أو لعله من قبيل الإرهاص الذى يسمع فيه النبى قبل النبوة الكلمة والكلمتين من غير أن يرى شخصاً، كما كان يحدث لنبينا صلى الله عليه وسلم. والذى نرجحه أن يكون يوسف عليه السلام قد أرسل فى الفترة التى قضاها فى السجن، فإن وجوده فى السجن أفرغ لقلبه، فيكون أكثر تهيأ لتلقى الرسالة كما حصل لنبينا صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة من حبه الخلاء وتعبده فى الغار، ولأن فى إكرامه بالرسالة فى ذلك الوقت تعوضا له عما كان يلقاه فى سجنه من الوحشة والقسوة.

ولأن كلامه مع صاحبى السجن اللذين دخلا معه من تعبيره لرؤيا كل منهما ودعوته إياهما إلى التوحيد، وقوله لهما ذلكما مما علمنى ربى، يكاد يكون صريحا فى الدلالة على حصوله النبوة له.

وإليك هذه الآيات الكريمة من سورة يوسف، فتدبرها عسى أن تجد فيها شاهداً قويا على ما ذهبنا إليه، قال تعالى «ودخل معه السجن فتيان، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق و يعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى

الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

فانظر كيف انقلب الصديق فى السجن واعظا يدعو الناس إلى ملة آبائه إبراهيم وإسحاق و يعقوب، تلك الملة الحنيفية التى تقوم على التوحيد الخالص والبراءة من الشرك وأهله.

ثم انظر إلى قوله لصاحبى السجن يستثير فيهما داعية التأمل والتفكير ويحملهما على ما يقتضيه النظر السليم (يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار).

ثم انظر إلى قوله لهما مسفهاً أحلام قومهم فى عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة ومبينا حالها الشنيعة (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).

ثم قوله لهما بعد ذلك مبيناً حال معبوده الحق جل شأنه (إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم).

وإذا كان يوسف عليه السلام قد بلغ من المكانة فى مصر أن أصبح عزيزها وصاحب الكلمة العليا فيها فلنا أن نتوقع أن رسالته قد صادفت قبولا من بعض النفوس، وإن كانت النصوص لم تحدثنا عن شىء من ذلك، ولكن مما لا شك فيه أن رسالته قد حفظت فى بنى إسرائيل من بعده، وكانت منار هداية لهم مدة إقامتهم بمصر حتى خرجوا منها مع موسى عليه السلام، ولعل من المناسب الآن أن نتحدث فى إيجاز عن ديانة هؤلاء المصريين ومعتقداتهم لنرى مدى استعدادهم لقبول فكرة التوحيد التى هى عماد الرسالات الإلهية.

عقيدة المصريين

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله فى كتابه (الدين) عند تعليقه على العصر الفرعونى:

«تدل بعض أوراق البردى المحفوظة الآن فى برلين وفى لندن على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الإله الأحد الغيبى الأزلى الذى لا تصوره الرسوم ولا تحصره الحدود غير أن تلك العقيدة الروحية كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره فى بعض الكائنات الممتازة من إنسان، أو حيوان، أو جماد.

فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير فى الملوك وقوة الإخصاب النباتى فى النيل وقوة الإخصاب الحيوانى فى العجل (أبيس) مستمدة بتلقيح شعاع الشمس مثلا، وأن هذه الكائنات الخاصة أهل للتقديس والعبادة بفضل تلك الصلة السرية بالإله الأعلى.

و يقول الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى فى كتابه (وحدة الدين والفلسفة والعلم) عند كلامه على فلسفة الديانة المصرية القديمة (وكان المصريون يعرفون الله الواحد الأحد، وكانت عبادتهم له بالصمت والرهبة احتراما وتوقيرا وكان وصفه عندهم (فرد أزلى خالق كان قبل كل شىء و يبقى بعد كل شىء لا بداية له، ولا نهاية خلق الأرواح فى الأشباح يمضى الزمان وهو باق لأنه هو الإله الذى لا اسم له.

وقد سماه المصريون القدماء (آتون) ولهذا الاسم معنيان — معنى خفى وهو أصل كل شىء قام به الوجود. ومعنى ظاهرى وهو الأتوم الذرى المعروف الذى تكونت به السموات وما فيها من شموس والأرض وما فيها من مخلوقات فإذا اتجه (أتوم) للوهب والإعطاء سمى (رع) وإذا ظهر بارزا بمثاله (الشمس) سمى آمون فظهر آمون، ثم رع، ثم أتوم الخفى ووجد فى هرم سقارة المدرج من الوثائق ما يدل

على أنهم كانوا يعتقدون فى إله ذى صبغة خفية لأنه غير منظور).

ووجد أيضاً فى هيكل إيزيس بصا الحجر نقش قديم يتضمن الكلمات الآتية (أنا كل شىء كان وكل شىء كائن وكل شىء سيكون ومحال على من يغنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به وجه من لا يغنى) وقال العلامة ماسبيرو أحد أساتذة كلية فرنسا (وكان إله المصريين الأول عالما بصيرا لا يدرك موجودا بنفسه حيا بنفسه حاكما فى السموات والأرض لا يحتويه شىء فهو أب الآباء، وأم الأمهات لا يفنى ولا يغيب يملأ الدنيا، وليس له شبيه ولا حد ويوجد فى كل مكان.

ثم يرد بعد ذلك على من يزعمون أن قدماء المصريين كانوا وثنيين يعبدون آلهة متعددة ويزعم أنهم كانوا يتخذون منها رموزا فقط تدل على صفات الإله الواحد. فيقول:

(ويدعى بعض العلماء الذين كان علمهم بالمصرولوجيا القديمة سطحيا غير ناضج أن قدماء المصريين كانوا يعبدون آلهة متعددة ومن بينها صنوف من الكواكب كالشعرى اليمانية والشمس والجوزاء وغيرها بل وأكثر من هذا قالوا إنهم كانوا يعبدون الحيوانات كالبقرة والعجول والقردة والقطط والتماسيح؛ ولم يعلموا أنها كانت رموزا مجازية تدل على حقائق وصفات إلهية).

وقد وقف أولئك العلماء عند الرموز، ولم يعدوها إلى أسرار الديانة المصرية، وهى أن عوام المصريين القدماء لم يعبدوا هذه الأشياء لذواتها، وإنما جعلوها رمزا لذلك الإله القادر الذى حلت على زعمهم روحه وظهرت آثاره فيها. ولهذا من فعل الكهنة فى دور من أدوار الديانة المصرية؛ وهو الدور الرمزى المعدد للآلهة ويقول فى مكان آخر (ومن صفات الله الثلاث الوجود والحكمة والحياة) اشتق المصريون فى العصر الثانى لتطور الديانة (عصر الرموز) اسم آتون ورع وآمون بمعانى الخفى والواهب أو المعطى والظاهر فى الشمس وفى باقى الطبيعة).

ويقول كذلك فى موضع آخر (وبينما نرى الملوك فى المعابد الكبرى ماثلين

فى العبادة أمام آتون أو رع أو آمون إذ بنا نرى فى بعض حوائط المعابد الصغيرة صور الفراعنة ولها الصف الأول حتى قبل الآله، بل نراها تتقبل العبادة ولها اختصاصات الآلهة.

وهكذا تطور الدين من عبادة الإله الذى لا اسم له ولا شكل فى أول أمره فى شخص أتون ورع، ثم قرص الشمس فى شخص آمون وبقية مظاهر الطبيعة ثم الملوك والعظماء.

أقول ولم يلبث ذلك الدين الذى بدأ بالتوحيد أن انتهى بالشرك والوثنية التى خالطت العبادة على يد الكهنة أخيرا من أحط الحيوانات وأحقر الحشرات والهوام.

وإنما أطلنا فى نقل هذه النصوص توخيا للكشف عن هذه الديانة الغامضة التى كانت تسود مصر القديمة، وإن كنا لا نوافق على كل ما جاء فى كلام أبى الفيض من اعتبار هذه المظاهر المتعددة رموزا لإله واحد إذ لو صح هذا لما كان هناك موجب لتخصيص كل منها بطقوس خاصة من العبادة فى معابد خاصة به فآمون مثلا كان إله طيبة، وقد بلغ إبان ازدهارها وقوتها أن صار كبير الآلهة ورع إله منف أو هليوبوليس وأخيراً نجد أن صراعا نشب بين أحد الملوك وهو أمنحوتب الرابع، وبين كهنة آمون فقد اكتشف هذا الملك إله الجديد (آتون) وأراد فرضه على المصريين وسمى نفسه (باخناتون) وقام بتدمير كل ما شيد لآمون من معابد وآثار فلو كان آمون وآتون شيئاً واحدا فى الحقيقة له وجهان لما كان هناك موجب لهذا الصراع، فالحق أن المصريين فى انحدارهم من التوحيد إلى الوثنية اتخذوا آلهة متعددة كل منها إله قائم بذاته له أوصافه وخصائصه وإن كان هذا لا يمنع من اعتقادهم بإله هو كبير هذه الآلهة بدليل ما جاء فى أناشيدهم من مناجاة وأدعية لهذا الإله.

ولقد صدق الأستاذ أبو الفيض فى قوله إن الملوك كان لها الصف الأول قبل الآلهة من حيث العبادة والتقديس، ولقد يشهد لهذا قوله تعالى حكاية عن فرعون

موسى (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى).

فجعل نفسه رباً فوق الآلهة جميعاً، بل أحياناً كان يتجاهلها ويجعل نفسه هو وحده الآله كما فى قوله فى آية أخرى (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى).

ولعل السبب فى تعديد المصريين القدماء لآلهتهم ما ذكره صاحب كتاب (معتقدات قدماء المصريين وآدابهم) من أن الناس حين ارتبكت عقولهم وشلت أفكارهم وتساءلوا فيما بينهم: هل يمكن لواحد أن يدبر هذا الملك الشاسع الواسع بمفرده؟ فأجابهم الكهنة بأن ذلك الإله القادر خلق آلهة أخرى لكل غرض إله).

ولعل ما جرى من المقاولة بين موسى عليه السلام وبين فرعون فى سورة الشعراء يشهد بأن فكرة إله واحد مسيطر على كل شىء وإليه ترجع الموجودات جميعاً كانت بعيدة عن الوعى الدينى لذلك العهد، وإليك هذه الآيات:

(قال فرعون وما رب العالمين؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون؟ قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين).

فتجاهل فرعون لرب العالمين وسؤاله موسى عن حقيقته وصفته وقوله حين أخبرها للملأ الذين معه ألا تستمعون، وتهديده لموسى عليه السلام بالسجن إن هو اعتقد إلهاً غيره، كل ذلك يشهد بما بلغه الملوك فى مصر من درجة فى العبادة غطت على ما كان للآلهة من ذلك، ويدل على استنكار القوم لوجود رب واحد مسيطر على جميع الكائنات.

ومثل هذه الآيات أيضاً قوله تعالى من سورة طه: (قال فمن ربكما يا موسى؟ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، قال فما بال القرون الأولى؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى، الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات

شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى).

وقد تقدم قول يوسف عليه السلام لصاحبى السجن: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار».

« شعيب عليه السلام »

بعث شعيب فى أهل مدين، وكانوا أهل شرك وعبادة أوثان، وأهل تطفيف للكيل والميزان، فدعاهم شعيب إلى الله عز وجل ونهاهم عن هذه العادة القبيحة وذكرهم بما أفاء الله عليهم من سعة الرزق وبسطة العيش، فردوا عليه أقبح رد وأغلظه وقالوا له: (يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد).

فأجابهم هو على ذلك بأحسن جواب وألطفه حيث قال لهم: «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. و يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود» فما كان من القوم الغلاظ الأكباد القساة القلوب إلا أن أصموا آذانهم عن النصح وهددوا نبيهم بالرجم وقالوا: «يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز. قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط. و يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب، وارتقبوا إنى معكم رقيب».

وأطال شعيب القول لقومه وبذل لهم غاية النصح فى حسن بيان ولطف عبارة، فقد كان كما روى خطيب الأنبياء، ولكنهم لم يزدادوا إلا تماديا فى الغى

وإمعانا فى الضلال، اللهم إلا نفراً قليلا منهم استجابوا لدعوته، وحتى هؤلاء لم يسلموا من أذى قومهم لهم فقد هددوهم باخراجهم مع شعيب من القرية عقابا لهم على إيمانهم به، كما قال تعالى:

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) وقد رد عليهم بقوله (أو لو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين).

وكان هؤلاء المستكبرون يقعدون لهؤلاء المؤمنين بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجا ويقولون لهم: (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون) فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، وذلك أنه أرسل عليهم سحابة أظلتهم فى يوم شديد الحر، فلما وجدوا بردها وجاءتهم منها ريح طيبة تنادوا حتى إذا اجتمعوا تحتها ألهبها الله عليهم ناراً فاحترقوا ورجفت بهم الأرض، وتلك نهاية القوم الظالمين.

موسى عليه السلام

تحدثنا سابقا عن قصة يوسف عليه السلام كيف مكن الله له فى أرض مصر، وانه استقدم إليه أبويه وإخوته وسائر أهله، فأقاموا بمصر قرونا عدة حتى كثروا وزاد عددهم مما حمل فرعون مصر على التخوف منهم، فسامهم سوء العذاب، فكان يستحيى نساءهم أى يستبقيهن للخدمة ويذبح أبناءهم، وكان يعاملهم بمنتهى الإذلال والقسوة ويستخدمهم فى الأعمال الشاقة وألوان السخرة، كما قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن

على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون).

وبظهور موسى عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة وخطيرة فى حياة بنى إسرائيل كما تبدأ حلقة من حلقات النضال فى سبيل الدعوة إلى التوحيد بطلاها موسى وهارون عليهما السلام وليس من غرضنا الآن أن نخوض فى قصة ولادة موسى عليه السلام وما اشتملت عليه من مظاهر العناية الإلهية به وكيف رباه سبحانه فى بيت عدوه فرعون، ولا أن نخوض فيما كان منه عليه السلام فى تلك الفترة التى سبقت نبوته من قتله المصرى حين استغاثه عليه الإسرائيلى ثم همه فى اليوم التالى أن يبطش بمصرى آخر حين استصرخه ذلك الإسرائيلى الذى كان قد استنصره بالأمس، لولا أن ذلك المصرى كان يعرف تلك الحادثة التى حدثت بالأمس فأسرع إلى القوم يخبرهم بحقيقة موسى عليه السلام وأنه إسرائيلى يناصر الإسرائيليين مما جعلهم يأتمرون به ليقتلوه، لولا أن جاءه رجل من أقصى المدينة يسعى يخبره بما ائتمر عليه القوم من قتله وينصح له بالخروج من مصر، فخرج منها خائفا يترقب إلخ.

أقول: ليس من غرضى أن أتحدث عن هذا الدور من حياة موسى عليه السلام، فإنه دور إعداد وتمهيد قصد به تهيئته لحمل تلك الرسالة الكبرى، كما قال تعالى: (ولتصنع على عينى) (واصطنعتك لنفسى).

ونبدأ الحديث عن موسى عليه السلام بعد أن قضى الأجل الذى كان مضروباً بينه وبين حميه، وهو عشر سنين استأجره فيها لرعى غنمه مقابل تزويجه أبنته، ولما سار بأهله قافلا إلى مصر عبر صحراء سيناء آنس من جانب الطور ناراً، وكان الجو ليلها شديد البرودة، لاسيما فى تلك الصحراء الدوية التى تنطلق ريحها كمردة الشياطين، فطمع موسى عليه السلام أن يقبس لأهله من تلك النار جذوة يستدفئون بها، أو يجد عليها أدلاء يرشدونه إلى الطريق، فلما أتاها واقترب منها لم يجد ناراً وإنما وجد نوراً قد تغشى الشجرة المباركة وأتاه الوحى من قبلها أن

(يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى).

ثم أراد الله عز وجل إيناسه بالخطاب وتسليخه بالآيات قبل أن يأمره بالذهاب إلى فرعون فسأله عما فى يمينه فقال: (هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هى حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى، إذهب إلى فرعون إنه طغى، قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى).

وهكذا يمن الله على موسى عليه السلام فيصطفيه لرسالته ويحقق له أمنيته بجعل أخيه هرون وزيراً له: يشد به أزره، و يشركه فى أمره، ثم يرسلهما معاً إلى فرعون وقومه و يأمرهما باللين والرفق فى الدعوة، فيقول لهما: (إذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى).

ولما قرعت هذه الدعوة الكريمة سمع الطاغية، وأسماع الملأ الذين حوله دارت منها رأسه، ورأى فيها نذير الخطر على ملكه فابتدر موسى بقوله: (وما رب العالمين) مبديا تجاهله وإنكاره لأن يكون هناك إله غيره، فقال له موسى عليه السلام (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) فيلتفت الطاغية حيه

بهته الدليل وأفحمته الحجة إلى الملأ من حوله و يقول لهم (ألا تستمعون) فيبادرهم موسى عليه السلام بقوله (ربكم ورب آبائكم الأولين) ولما لم يستطع فرعون رداً على هذه الآيات البينات خرج من المناظرة إلى السب والمهاترة، فقال هذيان حماه (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) فقذف فى وجهه موسى عليه السلام بثالثة الآيات (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) وهنا يتملك الغضب فرعون الطاغية، و يغرب عنه صوابه، ويخرج إلى أسلوب التهديد والوعيد قائلا (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وهنا لم يبق لدى موسى عليه السلام إلا أن يلقى فى وجهه بالآية الكبرى التى تلقمه الحجر، فقال له: (أو لو جئتك بشىء مبين قال فات به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين، وكانت هذه هى الجولة الأولى التى انتصر فيها الحق على الباطل، وعلت فيها كلمة التوحيد.

ولما وجد فرعون أن الدهشة قد عقدت ألسنة الحاضرين من ملئه وامتلأت قلوبهم إعجابا وارتياعا لتلك الآيات العظيمة، أراد أن يهون من شأنها بدعوى أنها من جنس السحر الذى يقوم به السحرة، ولكنه لم يملك إلا أن يصف موسى ببلوغه درجة المهارة والحذق فى هذا الباب فقال لهم: (إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) وكأنه كان يطمع أن يشير عليه قومه بقتل موسى وأخيه فيستريح منهما و يسلم له ملكه وسلطانه ولكنهم أشاروا عليه بأن يرجىء موسى وأخاه، وأن يجمع السحرة من كل أنحاء مملكته لمنازلة موسى ومغالبته. فجمع السحرة لميقات يوم معلوم، ومعهم كل ما يقدرون عليه من ألوان السحر، من حبال وعصى، ووجدوا الفرصة سانحة لكى يملوا شروطهم على فرعون.

فقالوا له: (أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين).

ولما جاء يوم الزينة وهو اليوم الذى واعدهم عليه موسى عليه السلام، وحشر

الناس ضحى ليروا ماذا يكون من أمر موسى مع السحرة، ابتدأ موسى بالنصح لهؤلاء السحرة وقال لهم (و يلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم، ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى).

ولما أجمعوا أمرهم على منازلة موسى عليه السلام طمعاً فى الجعل الذى جعله لهم فرعون وابتغاء الزلفى لديه، قالوا لموسى (إما أن تلقى، وإما أن نكون نحن الملقين. قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجاؤوا بسحر عظيم) وإذا (حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فالقى موسى عصاه فانقلبت حية عظيمة وابتلعت كل ما أفكه السحرة من غير أن ينتفخ بطنها، أو يزيد حجمها، فلما وجد السحرة ذلك عرفوا أنه ليس من جنس ما عندهم من السحر فخروا سجدا، وأعلنوا إيمانهم برب هارون وموسى، فاستشاط فرعون غضبا وخشى أن يتبعهم الناس على إيمانهم، فقال لهم مموها على قومه (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل) وظن الخبيث أن القوم سيرجعون عن إيمانهم تحت هذا التهديد، ولكن فأله قد خاب فإن الإيمان كان قد خالطت بشاشته قلوبهم. فأجابوه على تهديده فى لهجة المؤمن الصابر المنتظر لما عند الله المؤمل فى غفرانه ورحمته (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) ونفذ فرعون وعيده فى هؤلاء الشهداء الأبرار الذين احتملوا القتل والصلب فى سبيل عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار. ثم رجع إلى قومه يستخفهم بزخرف القول، و يقول لهم: (يا قوم أليس لى ملك مصر

وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين.

وكسب الحق فى هذا الصراع الجولة الثانية، وكسب أنصار من أهل مصر كان يمكن أن يكونوا نواة للتوحيد بين أهلها لولا أن فرعون عاجلهم بهذه العقوبة الجائرة ليحول دون التفاف الجماهير حولهم واقتدائهم بهم فى الإيمان برب موسى وهارون و بقى موسى وأخوه بين قومهم بنى إسرائيل فى مصر، ينتظرون أمر الله لهم بالهجرة والخلاص من عسف فرعون وطغيانه، وأوحى الله إليهما (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة و بشر المؤمنين) وشكا بنو إسرائيل إلى موسى ما لقوه على يد فرعون وأعوانه الجلادين من ذلة وهوان وذبح الأبناء واستخدام النساء، فقال لهم: (استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون).

وأما فرعون فقد عاد سيرته الأولى مع بنى إسرائيل من تقتيل الأبناء واستحياء النساء وأخذهم بألوان العسف والجبروت، وعاد كذلك يستأذن الملأ من قومه فى قتل موسى عليه السلام و يقول لهم: (ذرونى أقتل موسى وليدع ربه، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ولكن صوتاً إيمانياً حراً ينبعث من خلال هذه الصيحات الفاجرة المنكرة، وهذه القوى الغاشمة الغادرة يهتف فى قومه بموعظة تخلع القلوب و يصيح بهم منذراً لهم بسوء العاقبة إن هم أصروا على كفرهم ومكرهم، وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون المسمى بحزقيل الذى سجل القرآن موعظته البليغة فى سورة غافر فى قوله تعالى:

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً

يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب – إلى قوله – فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد).

وفى هذه الفترة سلط الله على فرعون وقومه أنواع البلاء لعلهم يرجعون، فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون وأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز وهو العذاب الشديد طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشفه عنهم ووعدوه على ذلك أن يؤمنوا له و يرسلوا معه بنى إسرائيل، فلما كشف الله عنهم، نكثوا العهد وظلوا على ولائهم لفرعون الذى استخفهم بمعسول القول و بذلك استوجبوا العقاب والهلاك الذى كان دائما مصير الطغاة والظالمين، واستحقوا أن يدعو عليهم موسى عليه السلام بقوله: (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون).

«خروج بنى إسرائيل من مصر»

يقول الله عز وجل فى سورة الشعراء: (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا إن معى ربى سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين).

و يصور القرآن الكريم حالة فرعون عند معاينته الغرق من مبادرته إلى إعلان الإيمان ظناً منه أن ذلك ينجيه مما حاق به من الهلاك فيقول: (آمنت أنه لا إله إلا

الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون).

وهكذا تم خلاص بنى إسرائيل على يد موسى عليه السلام بعد أن قضوا فى مصر دهراً طويلا كانوا فيه هدفاً لموجات قاسية من العسف والطغيان.

«حنين بنى إسرائيل إلى الوثنية التى أشربوها فى مصر»

قال الله تعالى فى سورة الأعراف: (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين، وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم و يستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم).

ففى هذه الآيات يخبرنا الله عز وجل أنه فلق البحر لبنى إسرائيل حتى عبروه إلى الشاطىء الآخر فروا فى سيرهم على قوم عكوف على أصنامهم يعبدونها من دون الله عز وجل، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة مثل آلهة هؤلاء، مما يدل على أن الوثنية المصرية كانت لا تزال عالقة بنفوسهم، وأن استعلاء المصريين عليهم وإذلالهم لهم أثر فيهم حتى قلدوهم فى ديانتهم والمغلوب يميل دائماً إلى تقليد الغالب.

والعجب أن يطلبوا ذلك من نبيهم موسى عليه السلام وهو الذى أرسل إليهم ليجتث من نفوسهم عروق الشرك و يغرس فيها حب التوحيد، ولذلك كان رده عليهم فى عنف يناسب قبح مطلبهم فقال لهم: (إنكم قوم تجهلون) فوصفهم بالجهل المطلق الذى ليس معه إثارة من علم، و يدخل فى ذلك طبعا دخولا أولياً جهلهم بالتوحيد وما يجب من إفراد الرب سبحانه بالعبادة. وجهلهم أيضا بوظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى يطلبوا منهم ما يتنافى مع مهمتهم.

ثم أرشدهم إلى أن ما فيه هؤلاء من عبادة الأصنام واتخاذها آلهة أمر مآله إلى البوار والهلاك، وهو محض الباطل الذى لا بقاء له ولا ثبات.

ثم أبدى عجبه وإنكاره الشديد لأن يطلبوا منه ذلك مع ما شاهدوه قريبا من دلائل القدرة الباهرة فى فلق البحر، ودلالة ذلك على عناية الله بهم وجسيم نعمته عليهم حيث نجاهم مما كانوا يعانونه من عسف آل فرعون وجورهم فقال لهم: (أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين، وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم و يستحيون نسائكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم).

« إعطاء موسى التوراة هدى لبنى إسرائيل »

قال تعالى: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين؛ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين؛ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين).

يخبر الله عز وجل فى هذه الآيات عن ابتداء التشريع الموسوى وأنه سبحانه أنجز لموسى عليه السلام ما كان قد وعده به من إعطائه كتابا مشتملا على كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى شئون دينهم ومعاملاتهم، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما يعطيه عند انقضائها التوراة، فيقال إنه استاك فى آخر يوم منها كراهة أن يناجى الله عز وجل وفمه متغير، فأوحى الله إليه: (أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب

عندى من ريح المسك، وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى فتم ميقات ربه أربعين ليلة).

واستخلف موسى على بنى اسرائيل أخاه هارون وقال له: (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين).

ولما جاء موسى للميقات وسمع كلام الرب سبحانه اشتاقت نفسه الكريمة أن يضم إلى ذلك فضيلة الرؤية فقال (رب أرنى أنظر إليك) بأن تجعل لى من القدرة ما يجعلنى أتمكن من النظر إليك وأتحمل تجليك؛ فأجيب من قبل الرب جل وعلا بما يفيد استحالة وقوع ذلك فى هذه النشأة فقيل له: (لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) يعنى إذا أطاق الجبل ذلك وثبت عندما أتجلى له فأنت تطيق ذلك ولكن الجبل ما لبث عند تجلى الله له أن صار كثيبا مهيلا وخر موسى عليه السلام مغشيا عليه من هول المشهد، فلما أفاق من غشيته انطلق لسانه بهذه الكلمات التى لهجت بتسبيح الرب والاستغفار من الذنب وإعلان الإيمان بعظمة الله واحتجابه فى هذه الدنيا عن الأبصار.

وهذا لا يفيد امتناع الرؤية مطلقاً كما تزعم المعتزلة، فإن الله عز وجل لم يقل لموسى عليه السلام (إنى لا أرى أولا يمكن رؤيتى كما أنه علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى، وهو أمر ممكن فى ذاته، ولو كانت الرؤية ممتنعة فى ذاتها لما طلبها موسى عليه السلام فلا شك أنه أعلم بما يجب لله وما يجوز وما يمتنع عليه من هؤلاء المعتزلة.

وأما قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فإنه لا يدل على امتناع الرؤية كما يظن النفاة لها، بل هو مستلزم لإثبات الرؤية؛ فإن نفى الإدراك يعنى الرؤية خاصة، وهى الرؤية مع الإحاطة، وهو يفيد وقوع مطلق الرؤية فكأنه قال: إن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية، كما أن العقول تعرفه ولكنها لا تحيط به علماً، وقد ورد من الآيات والأحاديث فى إثبات الرؤية ما لا يبقى معه شك فى وقوعها.

قال تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه فسر الزيادة فى قوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) بأنها النظر إلى وجه الله تعالى.

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليس دونه سحاب لا تضامون فى رؤيته».

وعن الشافعى رحمه الله فى تفسير قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أنه قال: لما حجب هؤلاء عن رؤيته لسخطه عليهم دل على أن المؤمنين يرونه برضاه عنهم أو كما قال.

وقبل أن ينصرف موسى عليه السلام من هذه المقابلة أخبره الله عز وجل بما وقع فى قومه من الفتنة وإضلال السامرى لهم بالعجل الذى صاغه لهم من حليهم، فكيف كان ذلك؟

عجل السامرى

قال الله تعالى فى سورة الأعراف: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين، قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين.

وقال فى سورة طه (وما أعجلك عن قومك يا موسى، قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى، قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) إلى قوله (قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول

فنبذتها، وكذلك سولت لى نفسى).

هذه الآيات تصور تلك النكسة التى أصابت شعب إسرائيل بعودتهم إلى الشرك والوثنية التى ألفوها عند إقامتهم بمصر، فبمجرد أن خرج موسى عليه السلام لميقات ربه وقد استخلف على قومه أخاه هارون عليه السلام، وكان هارون رجلا لين الطبع حليما، فاهتبل القوم هذه الفرصة وأعطوا حليهم التى كانوا قد استعاروها من المصريين لموسى السامرى فصاغ لهم منها عجلا جسداً و يقال إنه ألقى عليه حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل عليه السلام فصار عجلا حيا له خوار، ثم قال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، فنسى فاستخف القوم فأطاعوه وعبدوا العجل. فقام هارون عليه السلام ينصحهم ويحذرهم عاقبة شركهم و يقول لهم (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى).

فانظر إلى أى حد بلغ هؤلاء القوم من الحمق والسفاهة؟ إن هذا العجل قد صيغ أمامهم من الحلى التى كانت لديهم، فلو كانت عندهم مسكة من عقل لما انحدروا إلى عبادته وهم يرون أنه لا يكلمهم ولا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولكن إلفهم بالوثنية فى مصر أعماهم وكانت ملكة التقليد للمصريين لا تزال متمكنة من نفوسهم. وقد رأينا كيف أنهم حينما عبروا البحر بتلك الصورة الخارقة لم يلبثوا أن قالوا لموسى حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة).

يقول فضيلة الشيخ العدوى رحمه الله «فهذا نبى الله موسى يمضى الأيام فى دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى، و يدأب على محاربة الشرك والوثنية أياماً وليالى، ثم يترك أخاه هارون عليه السلام فيطمع القوم فى حلمه ولين جانبه فيفترض السامرى تلك الفرصة و يضل القوم بعمل عجل من حلى الذهب والفضة على نحو خاص، بحيث إذا مر الهواء منه صوت كصوت العجل، و يستغل سذاجة بنى إسرائيل وجهلهم بحقيقة تلك الصنعة، و يريهم أن ذلك هو الذى

ينبغى أن يعبد، فيعود نبى الله موسى فيحزن على ذلك العمل الحزن العميق، و يأسف غاية الأسف على إضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه واستعدادهم لكل أنواع التخريف.

« التوراة ودعوتها إلى التوحيد »

كانت التوراة أول كتاب سماوى نزل متضمنا لشريعة كاملة البناء فإن ما نزل قبلها لم يعد أن يكون صحفا مشتملة على بعض الوصايا والمواعظ، كصحف إبراهيم وما أنزل على إسحاق و يعقوب.

وقد ورد ذكر التوراة فى القرآن فى عدة مواضع ووصفت بأنها هدى ونور وضياء وذكر وتمام على الذى أحسن، وتفصيل لكل شىء. وأن الله أمر بنى إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها، وأن يأخذوها بقوة وأن يقيموا أحكامها، وأن لا يشتروا بها ثمنا قليلا وأن لا يحرفوا كلمها عن مواضعه إلخ ما جاء فى شأنها، وشأن من نزلت عليهم.

والذى يعنينا هنا بيان ما جاء فيها من الدعوة إلى التوحيد الذى هو لب كل شريعة وأساسها والتوراة غنية من هذه الناحية جدا فقد جاءت بتفاصيل العبادة التى لا تنبغى إلا لله، وحذرت من صور الشرك وبوائق الوثنية.

فقد جاء فى سفر الخروج: (أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر أرض العبودية).

وفى سفر التثنية (فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة العظيم الجبار المهيب والرب إلهك تتقى، وإياه تعبد و به تلتصق و باسمه تحلف وهو إله واحد لا شريك له الرب إلهنا رب واحد لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم، لأن الرب إلهكم إله غيور فى وسطكم.

وفى الوصية الثانية من الوصايا العشر التى كتبت على الألواح الحجرية

المنزلة على موسى عليه السلام والتى انتظمها الإصحاح العشرون من سفر الخروج (لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة مما فى السماء من فوق، وما فى الأرض من أسفل. وما فى الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى، وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى.

(وجاء فى سفر التثنية) لا تنصب لنفسك سارية من شجرة ما بجانب مذبح الرب إلهك الذى نصبه لك، ولا تقم لك نصبا الشىء الذى يبغضه الرب إلهك، فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب فى حوريب من وسط النار، لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتاً صورة مثال ماشية ذكر أو أنثى شبه بهيمة مما على الأرض، شبه طير ماذى جناح مما يطير فى السماء، شبه دبيب ما مما على الأرض، شبه سمك مما فى الماء تحت الأرض).

وجاء فى سفر لاويين (لا تلتفتوا إلى الأوثان وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم).

وكما نهوا عن عبادة الأوثان، نهوا عن عبادة النجوم وغيرها من الأجرام العلوية كما جاء (لا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التى قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التى تحت كل السماء، فتغتر وتسجد لها وتبعدها)، وليس هذا فحسب بل أمروا أن يعاملوا بالشدة جميع الأمم التى تدين بعبادة الأوثان كقوله فى التثنية.

(فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهدا، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم بنتك لا تعط لابنه و بنته لا تأخذ لابنك لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى تهدمون مذابحهم وتكسرون أصنامهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار وتماثيل آلهتم تحرقون بالنار. لا تشته فضة ولا ذهباً مما عليها لتأخذ لك لئلا تصاد به لأنه رجس عند الرب إلهك.

وكما أمروا بالقسوة على الأمم الوثنية أمروا بمثل ذلك فى حق من يشرك منهم

فقد أمر موسى عليه السلام بنى لاوى رهطة بقتل عبدة العجل حين عبد العجل فى غيبته.

ففى سفر الخروج: «هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه، ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل وفى رواية ثلاثة وعشرون ألف رجل، وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وأخيه فيعطيكم اليوم بركة.

وجاء فيه أيضاً (من ذبح لآلهة غير الرب يهلك).

وفى التثنية (والرجل أو المرأة الذى يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس أو للقمر أو لكل من جند السماء يخرج ويرجم بالحجارة حتى يموت).

والقرية التى تعبد آلهة أخرى يضرب سكانها بحد السيف ويحرم كل ما فيها مع بهائمها بحد السيف وتحرق جميع أمتعتها بالنار وتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعد وإذا أغرى أحد بالشرك يقتل، ولو كان المغرى أخاك ابن أبيك، أو ابنك أو بنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك، فلا ترض منه، ولا تسمع له، ولا تشفق عليه، ولا ترق له، ولا تستره بل تقتله قتلا، يدك تكون عليه أولا تقتله، ثم أيدى جميع الشعب أخيرا ترجمة بالحجارة حتى يموت.

«هل عددت التوراة»

يقول الأستاذ أمين الخولى فى محاضراته عن اليهودية التى وضعها لطلبة كلية أصول الدين: إن الباحثين فى الأديان لا ينظرون إلى الدعوة الشائعة عن الوحدانية فى اليهودية وكما لها بعين الاطمئنان ويستشفون فى التوراة آثاراً للتعدد، مثل قولها (لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم) وقولها (لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى).

فيلاحظون من مثل تلك النصوص أن التوراة تذكر هذه الآلهة بصيغة الجمع على أنها آلهة لها على عابديها مظاهر الألوهية والقدرة، وأن إله إسرائيل إنما يغار من تلك الآلهة فينهى عن اتباعها كما يستشفون هذا التعدد من تخصيص الآلهة وإضافتها، فيقال إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب الخ.

ولهذا يرون أن التوحيد عند اليهود خطوة متأخرة. وأنها تدرجت عن تعدد وثنى.

ونحن نرى أن هذا رأى خاطىء رغم ما يظهر من موافقة الأستاذ أمين الخولى عليه. وليس فى النصوص التى أوردوها ما يشهد لهذا الرأى، فإن النهى فى التوراة عن عبادة آلهة الأمم الأخرى، وذكر غيرته سبحانه من عبادتها لا يقتضى أنها آلهة حقيقية. وكل الرسل الذين بعثهم الله عز وجل كانوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله وحده وترك ما كانوا يعبدونه من آلهة مزعومة لا دليل عليها. فهل معنى هذا أن هذه الآلهة كانت لها حقيقة الإلهية. كلا وإنما تسميتها آلهة بحسب ما زعم لها عابدوها، وقد جاء فى القرآن إطلاق لقب الآلهة عليها تبعاً لذلك. قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام فى مخاطبته لقومه (أإفكا آلهة دون الله تريدون).

وقال سبحانه فى شأن المشركين: (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك).

وقال على لسان أهل الكهف (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين).

وأما مازعموه من التعين بالإضافة والتخصيص فهو أشد بطلاناً من سابقه، فإنه لم يرد بهذه الإضافات المتعددة أن تدل على أن لكل واحد من المضاف إليهم إلهاً خاصاً، فيكون لإبراهيم إله ولإسحاق إله وليعقوب إله حاشا لله من ذلك، وإنما المراد بيان أن هؤلاء جميعاً إلههم واحد، كما يدل عليه عجز الآية الكريمة التى وردت على لسان أولاد يعقوب حين قال لهم أبوهم (ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون).

وكيف يعقل أن تحتوى التوراة على ما يفهم التعدد، وقد تقدم لك من نصوصها ما هو صريح فى التوحيد المحض البعيد عن كل شائبة من شوائب الوثنية. وتقدم لك أيضاً ما أجاب به موسى عليه السلام قومه حين قالوا له «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون الخ).

بل إنهم حين اتخذوا العجل الذى صاغه لهم السامرى فى غيبة موسى عليه السلام كان من توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم. من عبده، حتى قيل أن من قتل فى هذا اليوم كان نحواً من سبعين ألفاً».

ومن العجيب أن تكون نظرة هؤلاء الباحثين فى الأديان إلى تلك الديانات المؤلهة التى جاءت بها الرسالات نظرتهم إلى الديانات الوثنية عند الآشوريين والبابليين وغيرهم.

وأعجب منه أن ينقل هذه الآراء أستاذ مسلم ثم لا يعقب عليها بكلمة تدل على خطئها.

«ما بعد موسى عليه السلام»

جاءت التوراة بشريعة أساسية أمر الله بنى إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها وأن يحافظوا عليها؛ ونهاهم أن يتراخوا فى القيام بما تضمنته من تكاليف أو يحاولوا التملص منها بأنواع التحريف والتأويل. ومع أن التوراة كانت بهذه المثابة من التمام الكفاية لهذا الشعب، فإن الله سبحانه أرسل فيهم بعد موسى عليه السلام رسلا وأنبياء كثيرين لإحياء شريعة التوراة ومراقبة تنفيذ أحكامها والحكم بمقتضى نصوصها كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء).

ولكن القوم رغم ذلك لم يوفوا بعهودهم، وامتلأ تاريخهم بأنواع المخالفات التى

ارتكبوها، وقد أورد القرآن الكريم الكثير منها. ولم يسلم التوحيد نفسه الذى هو أصل ديانتهم من التأثر بما وقع من أنواع الإنحراف فى هذه الديانة الموسوية.

ولعل أهم ما اصاب التوحيد من هذا الانحراف هو ما حكاه القرآن الكريم عن هؤلاء اليهود من قولهم (عزير بن الله) وكانت الشبهة التى قادتهم إلى هذه الحماقة ما رواه السدى وغيره من أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكى عند قبر وهى تقول: وامطعماه واكاسياه، فقال لها ويحك، من كان يطعمك و يسقيك قبل هذا؟ قالت الله: قال فإن الله حى لا يموت قالت يا عزير: فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال الله قالت فلم تبكى عليهم؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به، ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصلى هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله، فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ: فقال له: افتح فمك فتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة، فقالوا يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على إصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها الجبال وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحا، فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله) رواه ابن كثير.

وكذلك نجد فى التوراة التى بين أيدينا الآن نزوعاً شديداً إلى التجسيم والتشبيه مما نعتقد أنه مما حرفه اليهود من كتابهم، وأنه لا يمكن أن يكون فى التوراة الأصلية التى أنزلت على نبيهم موسى عليه السلام.

يقول الأستاذ أمين الخولى فى محاضراته (لكن هذه الوحدانية المتشددة المتجردة التى رأينا عنفها فى المخالفين، قريبين أو بعيدين ورأينا استئصالها

لأسباب الشرك الظاهرة والخفية، هذه الوحدة القوية قد شيبت في التوراة بتجسيم واضح بارز لا يتفق مع روح التجريد التى حرمت التصوير والنحت، بل حرمت اتخاذ السارية فى المعبد وتكرر هذا التجسيم فى مواطن متعددة.

والقرآن نفسه يحكى عنهم مقالتهم فى التشبيه، ووصفهم الرب جل وعلا بما لا يليق به من صفات النقص والسوء. كقولهم (إن الله فقير ونحن أغنياء) وقولهم (يد الله مغلولة) وقولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) وقولهم: إنه ابتدأ الخلق يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت، الخ ما ذكر عنهم فى هذا الباب، مما يدل على طبعهم المادى الذى لم يهتد إلى الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

يقول الشهرستاني فى كتابه الملل والنحل «وقد أجمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيا على قفاه واضعا إحدى رجليه على الأخرى»(١).

« داود وسليمان عليهما السلام »

كانا من أنبياء بنى اسرائيل، وقد ذكرت قصتهما فى كثير من سور القرآن الكريم مطولة أحيانا ومختصرة أحيانا، فهى فى كل من الأنبياء والنمل وسبأ وص على شىء من التفصيل، وأحيانا يذكران معا، وأحيانا يفرد أحدهما عن الآخر، ففى سورة البقرة يحكى الله عز وجل أن داود عليه السلام كان فى الجيش الذى خرج به طالوت لقتال العماليق، وأنه قتل جالوت، وأن الله آتاه من أجل ذلك الكتاب والحكمة وعلمه مما يشاء.

وفى سورة النساء والأنعام يذكران معا على أنهما من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم، وأنهما من نسل إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى فى سورة النساء: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٠ تخريج الأستاذ بدران.

من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما).

وفى سورة الأنعام يقول سبحانه (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين).

والذى يعنينا هنا من قصة داود وسليمان أنهما أسسا مملكة للتوحيد وسط عالم مشرك، ولم يجتمع الملك النبوة لأحد قبلهما فى بنى إسرائيل، فإن داود كان فى جيش طالوت، وكان هو الذى قتل جالوت ملك العمالقة فورثه الله ملكه وشده له وقواه، قال تعالى: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب).

وقال سبحانه عن ولده سليمان (قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين فى الأصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب).

وقد بلغ من عظمة ملك سليمان أن كانت الملوك من حوله تخطب وده وتخشى بأسه.

وقد حكى الله عز وجل فى سورة النمل قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، حين أخبره الهدهد بأنه وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فأرسل إليها سليمان كتاباً يدعوها فيه إلى الدخول فى الإسلام، وهو توحيد الله عز وجل والعمل بشريعته، وأنها استشارت أهل الرأى فى مملكتها ففوضوا الأمر إليها فرأت أن ترسل إلى سليمان بهداياها علها أن تثنيه عما أراده منها من الدخول فى طاعته ولكنه رد هديتها قائلا (أتمدوننن بمال فما آتانى الله خير مما

آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون).

ثم رأى سليمان عليه السلام أن ينقل عرشها إليه قبل أن تأتيه هى وقومها مسلمة مذعنة وأنه لما رآه مستقرا عنده، قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر.

ثم لما جاءت بلقيس عرض عليها عرشها منكرا، وقال لها أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو، وقال لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فقيل لها إنه صرح ممرد من قوارير، فلما رأت عظمة ملك سليمان وما آتاه الله من الغنى وتسخير الجن له، قالت (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

« افتراءات اليهود على داود وسليمان »

عرف اليهود فى تاريخهم الطويل بالطعن على أنبيائهم والاستهانة بأقدارهم، فكثيراً ما آذوا موسى عليه السلام، هو الذى كان خلاصهم من العبودية على يده حيث عبر بهم البحر وأتاهم بالتوراة شريعة لهم، ولم ينج الأنبياء بعد موسى من ظلم هؤلاء المسرفين. وقد حكى القرآن عنهم أنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقا يقتلون.

يقول الأستاذ أمين الخولى (وإذا جاء نبى وادعى نزول الوحى عليه من الله وصدق على التوراة ولكنه أضاف اليها وصية جديدة زعم نزولها عليه بالوحى أو أمر بإبطال أحد أحكام التوارة يقتل.

وإذا جاء نبى وأقر على ما فى التوراة وسلك بموجب أوامرها ونواهيها تطلب منه الآيات المثبتة لكرامته ومتى ثبتت عد نبياً، وإلا حكم عليه بالقتل أو الجنون).

وقد لقى داود وسليمان من هؤلاء القوم أشد العنت وأشنع الاتهامات، أما

داود فقد رموه بأنه أحب زوجة قائده أوريا، وانه أرسله مراراً على رأس الجيش مؤملا أن يقتل ليتخلص منه.

ومن العجيب أن كثيرا من المفسرين قد انساقوا وراء هذه الفرية وحملوا عليها قوله تعالى فى سورة ص: «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب».

وذهبوا إلى هذين الخصمين اللذين تسورا المحراب على داود عليه السلام إنما هما ملكان بعثهما الله عز وجل إليه ليتنبه إلى خطئه فى محاولة ضم زوجة أوريا إليه، وعنده أكثر من تسع وتسعين امرأة.

وهكذا يسقط المفسرون فى هذه الحماقة جريا وراء إسرائيليات باطلة ناسين ما فى هذا الصنيع من إلصاق تهمة شنيعة برسول كريم.

وأما اتهام اليهود لسليمان عليه السلام فقد كان أشد وأنكى حيث أنكروا رسالته واتهموه بأنه كان ساحراً، وأنه إنما سخر الجن والإنس بواسطة السحر، ولقد برأ الله سليمان مما نسبوه إليه قال تعالى فى سورة البقرة: (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) الآية.

ومما رموا به سليمان عليه السلام أنه نمى إليه خبر ملك تحصن فى جزيرة فخرج إليه بالريح وقتله وأخذ ابنته وكانت فى غاية الجمال فأحبها وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها، فأمر سليمان الجن بان يعملوا لها تمثالا على صورة أبيها فكسته كسوة نفيسة، وكانت تغدو وتروح إليه مع ولائدها يسجدن له على

عادتهن فى ملكه، فسقط الخاتم من يد سليمان عليه السلام لعصيانه باتخاذ الصنم الذى يسجد له فى بيته، فقال آصف إنك مفتون بذنبك: فتب إلى الله، فخرج إلى فلاة وقعد على الرماد تائباً إلى الله سبحانه وتعالى، و يفسرون بهذه الفرية قوله تعالى: (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً، ثم أناب).

يقول صاحب المواقف وشارحها فى رد هذه الفرية:

«والجواب أن هذه الحكاية الخبيثة التى يروجها الحشوية كتاب الله مبرأ عنها فإنه قال النبى عليه السلام فى تفسير هذا الكلام (قال سليمان أطوف الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة منهن ولداً يقاتل فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله فلم تحمل من تلك المائة إلا واحدة فولدت نصف غلام، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه بين يديه ولو أنه قال إن شاء الله كان كما قال فالابتلاء المذكور فى الآية إنما كان لترك الاستثناء لا لمعصية.

وقيل كان ابتلاؤه بالمرض فإنه مرض حتى صار مشرفا على الموت لا يقدر على حركة كجسد بلا روح.

وقيل ولد له ولد فقالت الشياطين إن عاش ولده لم ننفك عن السخرة، فعزمت على قتله فعلم سليمان ذلك فخاف على ولده من الشياطين أن تهلكه، فأمر السحاب أن يحمله وأمر الريح أن تحمل إليه غذاءه فمات الولد فى السحاب، فألقى على كرسيه، فتنبه سليمان إلى خطئه حيث لم يتوكل على ربه.

«نبذ من كلام داود وسليمان عليهما السلام فى التوحيد»

جاء فى أخبار الأيام الأول من كتاب العهد القديم أن داود عليه السلام خطب بنى اسرائيل فى يوم إصعاد التابوت إلى مكانه الذى أعده له فقال ما ملخصه:

«احمدوا الرب. أدعوا باسمه. أخبروا فى الشعوب بأعماله. غنوا له. ترنموا

له. تحادثوا بكل عجائبه. افتخروا باسم قدسه. تفرح قلوب الذين يلتمسون الرب. اطلبوا الرب وعزة التمسوا وجهه دائما يا ذرية إسرائيل عبده، و بنى يعقوب مختاريه، هو الرب إلهنا فى كل الأرض أحكامه. حدثوا فى الأمم بمجده، وفى كل الشعوب بعجائبه، لأن الرب عظيم ومفتخر جدا وهو مرهوب فوق جميع الآلهة، لأن كل آلهة الأمم أصنام وأما الرب فقد صنع السموات).

و يقول فى مكان آخر (يا رب ليس مثلك ولا إله غيرك حسب كل ما سمعناه بآذاننا).

ومن كلامه فى وصيته ولده سلميان عليه السلام.

(يا بنى قد كان فى قلبى أن أبنى بيتا لاسم الرب إلهى فكان إلى كلام الرب قائلا قد سفكت دماً كثيرا وعملت حروبا عظيمة فلا تبنى بيتاً لإسمى، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحة من جميع أعدائه حواليه، لأن اسمه يكون سليمان، فأجعل سلاماً وسكينة فى إسرائيل فى أيامه، هو يبنى بيتاً لإسمى، والآن يا بنى ليكن الرب معك فتفلح وتبنى بيت الرب إلهك كما تكلم عنك إنما يعطيك الرب فطنة وفهماً و يوصيك بإسرائيل لحفظ شريعة الرب إلهك، حينئذ تفلح إذا تحفظت لعمل الفرائض والأحكام التى أمر بها الرب موسى لأجل إسرائيل.

وأنت يا سليمان إننى أعرف إله أبيك وأعبده بقلب كامل ونفس راغبة، لأن الرب يفحص جميع القلوب و يفهم كل تصورات الأفكار، فإذا طلبته يوجد معك وإذا تركته يرفضك إلى الأبد.

* * *

وأما سليمان عليه السلام فإنه بعد أن أنفذ وصية أبيه داود و بنى بيت أورشليم صعد على منبر ووقف تجاه إسرائيل وخطب فيهم قائلا ما ملخصه أيضاً:

«أيها الرب إله إسرائيل، لا إله مثلك فى السماء والأرض، حافظ العهد

والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم، فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهى، واسمع الصراخ والصلاة التى يصليها عبدك أمامك. واسمع تضرعات عبدك وشعبك إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع، واسمع أنت من موضع سكناك فى السماء، وإذا سمعت فاغفر إن أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حلف ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت، فاسمع أنت من السماء واقض بين عبيدك، إذ تعاقب المذنب فتجعل طريقه على رأسه وتبر البار إذ تعطيه بره.

وإن انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لكونهم أخطأوا إليك ثم رجعوا واعترفوا باسمك، وصلوا وتضرعوا أمامك، نحو هذا البيت، فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وارجعهم إلى الأرض التى أعطيتها لهم ولآبائهم.

عيسى بن مريم عليها السلام

وهو يمثل آخر طور من أطوار الديانة الإسرائيلية، فهو آخر أنبياء بنى إسرائيل، وقد جعله الله عز وجل هو وأمه آية فى ولادتها ونشأتها حيث كان الشعب الإسرائيلى فى ذلك الوقت قد فقد الروح الدينى الصحيح وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة وأكب على المادة وارتكب الجرائم المروعة التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة النساء فى قوله: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) وقوله قبل ذلك (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا).

فأراد الله سبحانه أن يهز فى هذا الشعب ما جد من عواطفه ويحرك فيه المعانى الروحية التى نسيها، فأجرى له ثلاث آيات كبار جاءت متتابعة متقاربة؛

الأولى فى ولادة مريم عليها السلام وكانت أمها حمنة عقيما لا تلد، فنذرت إن رزقها الله بولد لتهبنه لخدمة بيت المقدس، فلما وضعتها أسفت لكونها أنثى لا تصلح للخدمة، وقالت تعتذر إلى الله (رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ولكن الله قبلها منها وأنبتها نباتاً حسناً، فذهبت بها إلى العلماء فى بيت المقدس وألقتها بين أيديهم وقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فى كفالتها، ولكن الله كفلها زكريا عليه السلام لأن خالتها كانت تحته، وقد جعلها زكريا فى محراب المسجد فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، (قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب).

فأطمع هذا زكريا عليه السلام فى أن يرزقه الله الولد ولو فى غير أوانه، فدعا ربه بهذا الدعاء الضارع الذليل متوسلا إلى الله بأحب الوسائل إليه، وهو إظهار الضعف والافتقار إلى الله والرغبة إليه وحده فقال (رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا يرثنى و يرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) فما فارق زكريا المحراب حتى نادته الملائكة مبشرة له بأن الله قد وهبه يحيى مصدقا بكلمة من الله وسيد وحصوراً ونبياً من الصالحين.

وعجب زكريا من أن يكون له غلام على كبر منه وعقم من زوجه، فقيل له كذلك الله يفعل ما يشاء، وطلب آية تدل على حمل امرأته فقيل له آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا.

وولد يحيى عليه السلام فشب على الطهر والاستقامة وكان آية فى ورعه وزهده وطاعته لربه و برّه بوالديه وآتاه الله العلم والحكمة ومنّ عليه بالرسالة، وقد روى أنه لم يهم بمعصية قط وأن الأولاد كانوا ينادونه وهو صغير ليلعب معهم فيقول لهم (ما للعب خلقنا).

ويحيا هذا هو الذى يسميه بنو إسرائيل (يوحنا المعمدان) وكان هو الآية

الثانية لبنى اسرائيل.

وأما الثالثة فكانت ولادة عيسى عليه السلام ولا نجد فيما يتعلق بها أروع ولا أصدق مما قصه علينا القرآن الكريم فى سورة مريم حيث يقول (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا — إلى قوله تعالى — ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون).

« دعوة عيسى عليه السلام إلى التوحيد »

ذكر القرآن الكريم فى معرض الرد على النصارى فى ادعائهم بنوة عيسى عليه السلام وفى قولهم إن الآلهة ثلاثة، أنهم غيروا رسالة عيسى وخالفوا دعواته، فإنه ما دعاهم إلا بما كانت الرسل قبله تدعو إليه من توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، قال تعالى فى سورة آل عمران (و يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقاً لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم).

وقال فى سورة المائدة: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار).

وقال فى سورة الزخرف: (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم).

ويحكى الله عز وجل لنا فى سورة المائدة صورة لما سيكون يوم القيامة حين يسأل عيسى عليه السلام عما يقوله النصارى من أنه أمرهم أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فيجيب على ذلك البهت بهذا الجواب المفحم الرصين (سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم).

وهكذا فى كل موضع من هذه المواضع يؤكد القرآن الكريم براءة عيسى عليه السلام مما نسب إليه و يقرر أنه ما كان إلا واحداً من هؤلاء الرسل الذين بعثوا بالدعوة إلى التوحيد وإبطال عبادة الطاغوت.

« الدعوة إلى التوحيد فى الأناجيل »

وإذا نحن تجاوزنا عن إنجيل برنابا الذى لا يعترف به النصارى والذى يصرح بأن عيسى عليه السلام مجرد عبد رسول ليس إلهاً ولا ابن إله، وتأملنا فى الأناجيل الأربعة المعتبرة عندهم. وهى إنجيل متى و يوحنا ومرقص ولوقا نجد فيها إشارات بل عبارات صريحة فى التوحيد.

ففى إنجيل متى فى الإصحاح الرابع يقول إبليس للمسيح: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، فإنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك، فيقول له المسيح: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك.

وحين أخذه إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى. قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.

وفى الإصحاح السادس يقول المسيح لتلاميذه: «فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ليات ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين».

وفى الإصحاح الثانى والعشرين يقول (أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل أنا القائل: أنا إله إبراهيم وإله اسحاق وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء.

وفى إنجيل مرقس من الإصحاح الثانى عشر يسأل أحد الكتبة يسوع: أية وصية هى أول الكل؟ فيجيبه بأن أول كل الوصايا هى إسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هى الوصية الأولى.

وفى إنجيل لوقا عند تعليم المسيح لتلاميذه ما يقولون فى الصلاة نحواً مما سبق فى إنجيل متى مع اختلاف يسير فى العبارة.

وفى الإصحاح الثامن عشر: (وسأله رئيس قائلا: أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعونى صالحاً، ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله).

وفى إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس «كيف تقدرون ان تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلبونه».

وفى الإصحاح السابع عشر من هذا الإنجيل يقول يسوع المسيح (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك، و يسوع المسيح الذى أرسلته.

هذه هى بعض نصوص الأناجيل تشهد بلسان صدق على المسيح عليه السلام أنه دعا إلى عبادة الله وحده، ولم يدع أحداً إلى عبادة نفسه وأما ما جاء فيها

كثيرا من قوله أبى الذى أرسلنى ونحو ذلك فيجب حملها على المجاز وأن مراده به أبوة الرعاية والرحمة إذلو حمل على الأبوة الحقيقية كما يزعم النصارى لتناقض مع هذه النصوص المحكمة التى نقلناها من الأناجيل الأربعة، وللزم أيضاً أن يكون الله عز وجل أبا لغير المسيح فقد ورد إضافة هذه الأبوة إلى أتباعه حيث كان يقول لهم: (أبى وأبوكم الذى فى السموات).

« ظهور الشرك فى المسيحية وعبادة القديسين »

لعل أمة لم تضل فى دينها كما ضلت النصارى، ولعل أمة لم تختلف فى نبيها وتغل فى شأنه، كما أختلفت النصارى وغلت، والقرآن الكريم ينبه على هذا الضلال الذى وقع فيه النصارى فى آيات كثيرة فقد ورد فى تفسير قوله تعالى من سورة الفاتحة (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) حديث مرفوع، يقول اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.

و يقول سبحانه فى سورة النساء، ناهيا لهم عن الغلو واتباع الهوى والانسياق وراء العاطفة الهوجاء (يا أهل الكتاب لا تغلوفى دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرلكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد وله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا).

و يقول فى سورة المائدة (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل).

ولا تكاد تخلو عقيدة من العقائد الأساسية عند النصارى من إغراق فى الوهم وجموح فى الخيال ونزوع إلى المغالاة فعقيدة التثليث والبنوة والصلب والفداء كلها عقائد تجافى العقل مجافاة صارخة وتتحداه تحديا سافرا ومع ذلك تجد من يؤمن بها و يتعصب لها. وهى لم تقم إلا على شبهات واهية لبس بها الشيطان على هذه الأمة ليفتنها عن دينا و يفسد عليها أمرها فإن وجود ولد بلا أب ليس خارجا عن

نطاق القدرة الإلهية، ولا يوجب أبداً نسبة هذا الولد إلى الله، فقد خلق آدم بلا أب ولا أم، وأعطى زكريا الولد على شيخوخة منه وعقم من امرأته، وكذلك وهب الله إسحاق لإبراهيم وهو وسارة شيخان كبيران وما ورد فى الإنجيل من لفظ البنوة لا يوجب أن تكون بنوة حقيقية، وكذلك ما ورد فيه من تلقيب عيسى عليه السلام بأنه روح الله أو كلمته لا يقتضى أن يكون هو الله ولا أن يكون جزءا من الله، فإن الروح اسم لما به الحياة ولا شك أن عيسى كان حياة لمن أرسل إليهم، جاءهم بما فيه حياة لأرواحهم وقلوبهم. وأما كونه كلمة الله فلأنه خلق بالكلمة التى هى قوله تعالى (كن) دون توسط الأسباب العادية.

وهكذا لو أنصف القوم لوجدوا لهذه النصوص محامل صحيحة لا تفضى إلى ما يجبله كل عقل من نسبة الزوجة والولد إلى الله.

وأما عقيدة الصلب والفداء التى هى أساس دينهم فقد نفى القرآن أن يكون عندهم يقين بها وأنهم إنما اتبعوا فيها الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً قال تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما).

وقد نسج الخيال المحموم لهذا الفداء قصة طويلة مليئة بالمتناقضات التى لا يقبلها عقل كقولهم إن آدم حين عصى الله بالأكل من الشجرة ووقع فى الخطيئة استحق هو وذريته العقوبة وظل الرب يفكر فى طريقة يجمع بها بين رحمته وعدله، لأنه إن عاقب آدم وذريته كان ذلك منافيا لرحمته، وإن عفا عنهم كان ذلك منافياً لعدله وأخيرًا اهتدى إلى الحل وهو أن يفدى البشر بنفسه فنزل فى بطن أنثى من خلقه، وظل حبيساً به مدة الحمل، ثم خرج وعاش دهراً طويلا بين الناس يأكل ويشرب ويلتذ ويألم: ثم مكن أعداءه من نفسه ليقتلوه أشنع قتلة، ويصلبوه على الخشبة، وكل ذلك إنما تحمله من أجل أن يفدى خطيئة آدم وذريته. ولنا هنا بصدد نقد هذه الحماقة التى يضحك منها أبسط العقول(١).

(١) وحدة الدين لأبى الفيض ص ١٣٢، الجانب الإلهى للدكتور البهى الجزء الأول ص ١٠٦.

ويكفى القارىء أن يرجع إلى كتاب (عقيدة الصلب والفداء) للسيد رشيد رضا رحمه الله، ولكنا نعجب أن يقوم دين على خرافة تمرغ الله فى الوحل، وتسقيه كأس الضراعة والذل، وتصفه بمنتهى العجز عن غفران خطايا خلقه إلا إذا قدم نفسه أو ولده قربانا.

وأما مبدأ التغير فى دين المسيح عليه السلام حتى لم يبق فى أيدى النصارى منه شىء الآن فيذكر ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان) أن أمرهم قد استقام على السداد نحو ثلاثمائة سنة ثم أظهر (آريوس) مقالته التى أنكر فيها لاهوت المسيح وحكم بأنه مخلوق محدث ليس مولودا من الله وأنه لا يساويه فى الجوهر(١) وكان يعلل رأيه بقوله كيف تتفق دعوى وحدة الإله مع جعل عيسى إلها أيضاً، فلم ترض مقالته هذه رجال الكنيسة، فمنعه بطريق الإسكندرية من دخول الكنيسة ولعنه، فخرج آريوس إلى الإمبراطور (قسطنطين) يستعديه على ذلك البطريق وتناظرا بين يديه، فقال قسطنطين (لآريوس) اشرح مقالتك، فقال أقول (إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الابن فكان كلمة له إلا أنه محدث، ثم فوض الأمر إلى ذلك الإبن فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما ثم إن تلك الكلمة اتخذت بعد من مريم العذراء ومن روح القدس فصار ذلك مسيحاً واحداً فالمسيح الآن كلمة وجسد إلا أنهما جميعاً مخلوقان فقال بطريق الإسكندرية فأيما أوجب علينا عندك؟ عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟ قال آريوس بل عبادة من خلقنا — قال البطريق فعبادة الابن الذى خلقنا وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تصير عبادة الأب الخالق كفراً أو عبادة الابن المخلوق ايمانا(١).

(١) يقول العلامة ابن القيم فى إغاثة اللهفان (وهذه الأمة ارتكبت محظورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل، أحدهما الغلو فى المخلوق حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه وإلها آخر معه والثانى تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم إلخ).

(١) الدين الخالص ج ٢ ص ٤٦٣.

فاستحسن الملك والحاضرون قول البطريق ومن معه، وأمر الملك أن يلعنوا آريوس وأهل مقالته فانتهز البطريق هذه الفرصة وطلب من الملك أن يجمع البطارقة والأساقفة للاتفاق على عقيدة واحدة فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق حتى اجتمع عنده منهم ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً(٢) وكانوا مختلفى الآراء متباينى الأهواء، فكثر لغطهم ولم يتفق منهم إلا ٣١٨ أسقفاً على رأى، وناظروا فيه بقية الأساقفة وظهروا عليهم، فعقد لهم الملك مجلساً خاصاً جلس فى وسطه، ودفع إليهم خاتمه وسيفه وقضيبه، وقال لهم: سلطتكم على المملكة فاصنعوا ما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم، فباركوه عليه وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه، ودفعوا إليه الأمانة التى اتفقوا على وضعها، فلا يكون عندهم نصرانى من لم يقربها، ولا يتم له قربان إلا بها، وهى هذه:

«نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شىء صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع بن الله الواحد، بكر الخلائق كلها الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع، إله حق من إله حق من جوهر أبيه، الذى بيده أتقنت العوالم وخلق كل شىء، الذى من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً، وحمل به ثم ولد من مريم البتول وأولم وأوجع، وقتل وصلب ودفن، وقام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجىء مرة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، وروح الحق الذى يخرج من أبيه، روح محييه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية جاثليقية وبقيامة أبداننا والحياة الدائمة أبد الآبدين، وافترقوا على هذه العقيدة وعلى لعن من خالفها.

ثم تعددت مجامعهم بعد ذلك وفى كل مرة يعلنون تمسكهم بهذه العقيدة ويزيدون عليها ضلالات ويلعنون ويكفرون كل من خرج عليها من أساقفتهم،

(٢) كان هذا المجتمع فى نيقية سنة ٣٢٥.

ففى عام ٤٥٠م قرر مؤتمر الكنيسة البيزنطية تحت رعاية الامبراطورة بولشير يا المنعقد بمدينة خلقيدون بآسيا الصغرى اعتبار نسطور وجماعته خارجين عن الجماعة المسيحية المؤمنة ومستحقين للعنة الرب والمسيح بسبب أنهم أنكروا وجود ثلاث ذوات مستقلة، وقالوا إن هذه الألفاظ: الله والكلمة والروح القدس ترجع مدلولاتها إلى شىء واحد ولا تدل على ذوات ثلاث فى واقع الأمر، بل الله هو الذات الواحدة، وهو وحده أصل العالم، وكلمته على معنى علمه والروح القدس على معنى القوة المدبرة حالان أو اعتباران لذاته(١).

والخلاصة أن جميع المذاهب المسيحية المعروفة الآن مهما اختلفت فى تحديد شخصية المسيح فإنها مؤلهة له ليس فيها من يدين بدين الحق الذى يجعل عيسى مجرد رسول من عند الله ليس إلهاً ولا ابن إله بل هو فى معتقدهم الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس وكلمة الله المتجسد من مريم العذراء لخلاص العالم(١).

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله».

«العناصر الوثنية فى الديانة المسيحية»

ذكرنا أن التغيير الذى طرأ على المسيحية بعد رفع المسيح عليه السلام كان تغييراً جذرياً تناول المسيحية من أساسها، فلم يبق شىء مما جاء به المسيح معروفا إلا بعض بقايا أخلاقية تتعلق بتهذيب النفس وضروب الزهد، وأما العقائد نفسها فقد تناولها كلها التبديل ودخل إليها الفساد بتأثير العناصر التى دخلت فى المسيحية، وكانت قبل ذلك تدين بالوثنية، فمالبثت هذه العناصر أن بثت أفكارها وعقائدها فى الدين الجديد، وتناولت نصوصه بالشرح والتأويل الذى يجعلها متسقة مع عقائدهم الوثنية.

(١) الجانب الإلهى الجزء الأول ١٢١.
(١) المنجد فى الأدب والعلوم للوليس معلوف ص ٥٨٤.

وقد حاول بعض الباحثين أن يعقد موازنة بين عقيدة المسيحيين فى المسيح وبين ما تقوله الهنود الوثنيون فى كرشنة، وقابل النصوص الدينية عند المسيحيين بمثيلها عند الهنود، حتى بلغ من وجوه المقابلة بينها ستة وأربعين وجهاً، ثم قال فى نهاية ذلك « وهذا شىء قليل من كثير اكتفينا به حبا للاختصار(٢) ».

ثم عمد إلى إجراء مثل هذه الموازنة بين عيسى و بوذا، مقابلا كل نص عند المسيحيين بمثله من أتباع بوذا مما لا يترك مجالا للشك فى أن عناصر مخربة دخلت فى المسيحية بقصد إفسادها وإلقائها فى حمأة الوثنية.

و يطول بنا القول لو حاولنا أن نعدد وجوه المشابهة التى ذكرها هؤلاء الباحثون. و يكفى أن نذكر أن من أهمها القول بالتثليث؛ فهو موجود فى كافة الديانات الوثنية. وعقيدة الفداء والصلب لتخليص العالم من الخطيئة، والقول بتجسد الإله المخلص ونزوله إلى الأرض وولادته، وظهور نجم فى السماء عند ولادته وحدوث الظلمة فى الأرض عند قتله وتجربة الشيطان لأبناء الآلهة المخلصين ونزولهم إلى الجحيم لتخليص الأموات. كل هذه العقائد وغيرها موجود فى المسيحية كما هو موجود تماماً فى غيرها من الديانات الوثنية.

« عبادة الرهبان والقديسين »

لم يقف النصارى فى وثنيتهم عند هذا الحد من عبادة المسيح وأمه وروح القدس، بل تعدوا ذلك إلى عبادة الرهبان والقديسين كما قال تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم).

وقد روى أن عدى بن حاتم رضى الله عنه: وكان نصرانيا، قال: يا رسول الله ما كنا نعبدهم، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلونه ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه ؟ قال بلى، قال فتلك

(٢) كتاب العقائد الوثنية فى الديانة النظرية تأليف محمد طاهر التنير.

عبادتهم).

وكما غلا النصارى فى نبيهم عيسى عليه السلام فقد غلوا فى قديسيهم وصالحيهم، فاتخذوا قبورهم كنائس وملأوها بصور هؤلاء القديسين وهم يجثون على الركب أمام هذه الصور و يتضرعون إليها و يستشفعون بها و يعتقدون أن روح المسيح حلت فيها، ولقد بلغ افتتانهم بها حداً كبيراً.

وفى الكتاب الذى ألفه الكاتب الفرنسى ج. ا. س كولان دى بلانس وسماه (قاموس الأضرحة والمقابر) وترجمه وعلق عليه الدكتور أمين رضا فصول مثيرة عن كثرة الآثار المقدسة لدى المسيحيين وعكوف عامتهم على الخضوع لها حتى أنهم نسوا دعاء الله إلى جانب دعاء هذه الأضرحة والتماثيل.

يقول فى موضع من هذا الكتاب:

« ولقد كان عامة الكاثوليك لا يفكرون فى دعاء الله، بل كانوا يتوجهون بالضراعة إلى ضريح القديسة جنيفيف أو إلى مقدسات السيدة العذراء المتعددة أو بقايا يسوع ».

وقد استولى القسس والرهبان على جميع العيون المعدنية التى اشتهرت بميزة خاصة علقوا فيها صوراً صغيرة و بعد لأى من الزمن أصبح معروفاً أن هذه المياه المعدنية لم تكن تشفى المرضى لعنصر فعال طبيعى جعله الله فيها، بل رحمة من القديسين الذين كانت العيون تسمى بأسمائهم. وهكذا كانت المعجزات كثيرة جداً مع أن إيمان هؤلاء السلف لم يكن أكثر من إيماننا إخلاصاً وقوة.

وكانت جميع أنحاء فرنسا تهتم بتعقب أخبار قديس سافر من مكان إلى مكان آخر، أو بأخبار نقل ضريح من مكان إلى آخر. وكان اهتمام الناس بهذه الأخبار يماثل اهتمامنا اليوم بأعياد النصر.

وكانت الطرق بين المدن لا يطرقها إلا حجاج مؤمنون مخلصون يؤمون قديساً مشهوراً بقضاء حاجة فى أنفسهم.

ومما يحكى أن فيليب الطويل لم يشف من الحمى الرباعية إلا بعد أن لمس

المسمار المقدس وذراع القديس سيميون الذى كان يعبده الناس فى مدينة سان دنيس، وقد صنعت هاتان البروكتان معجزة الشفاء أيضاً فى دوق (نورماندیا) ابن الملك فيليب دى فالوومع أن شفاءه لم يتم إلا بعد ستة أسابيع إلا أنه أصر على السفر إلى سان دنيس لتقديم الشكر.

وكان المؤمن المخلص فى إيمانه يعتقد أن من يستعمل الطب إنما يسب القديسين، وأن جميع الأمراض تشفيها مقدساتهم.

ويقال إن أحد الأتقياء مرض فقصد طبيبا فظهرت له السيدة العذراء وأنذرته بأنه سيظل طول حياته مريضاً إن هو لم يتوجه للعلاج إلى إحدى النوتردامات، ولم يشرك معها فى علاجه أحداً إلى أن يقول (ولم يكد يمر يوم من غير أن يسمع الناس فيه بشفاء أحد المرضى بتأثير بركة أحد الآثار المقدسة، ولم تكن الأقطار الكاثوليكية تشغل نفسها بأى شىء غير شد الرحال إلى الأضرحة، وكان شد الرحال إلى الأرض المقدسة أهم الأعمال التى كان يقوم بها أتقى الأتقياء وكانت المعبودات منتشرة فى كل مكان حتى أصغر القرى وأبسط الأديرة، وعلاوة على هذه الكنوز المقدسة المحفوظة فى الكنائس كانت هناك فئة من الناس الذين كانوا يحملون الآثار المقدسة معهم من صورة وعظام و يتجولون بها من قرية إلى قرية، وكانت النساء تتهافت عليهم فيلمسن بهذه الأشياء المقدسة قطعاً من القماش أو المسابح لكى يكتسبن بها بركة القديسين نظير قروش قليلة إلى أن يقول :

وكانت الآثار المقدسة متصفة بقوة هائلة حتى إن الناس كانوا يصنعون آثاراً مقدسة من كل شىء، ففى عام ١٨٥٦ عثر سكان قرية بون دى شاتو بإقليم أوفرنى بفرنسا على صندوق يحتوى على جثة طفل محنطة على الطريقة الشرقية، وكانت الجثة لا تزال محتفظة بنضارتها وهيئتها الطبيعية، فاعتبروها معجزة واعتبروها مقدسة وحجوا إليها وعبدوها إلى أن صدر أمر من الحكومة بالاستيلاء عليها ووضعها فى أحد متاحف التاريخ الطبيعى بباريس.

وكان هذا الدين الخرافى المبنى على عبادة التصاوير والمقاصير والأضرحة وغيرها من الآثار المقدسة متفشيا فى كل مكان ولذلك كانوا يحرقون من يقصر فى احترام تمثال من تماثيل القديسين ويجلدون الذين لا يبجلون الآثار المقدسة تبجيلا لائقاً.

وبعد فهذه هى المسيحية الموجودة الآن فى عقائدها وتصوراتها وأفعال أهلها لا نكاد نلمح فى تضاعيفها أثارة تربطها بأصلها الأول بل هى ديانة جديدة من وضع قسطنطين اتخذت من المسيح محوراً تدور حوله جميع عناصرها الوثنية.

إسماعيل عليه السلام

هو ولد إبراهيم خليل الرحمن من هاجر التى كانت أمة لزوجته سارة أهداها إليها فرعون مصر فوهبتها لإبراهيم وأذنت له فى التسرى بها عسى أن تأتى له بولد، فولدت له إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

وقد تحدث القرآن الكريم عن إسماعيل فى غير موضع يذكره فى بعضها مع أبيه إبراهيم وفى بعضها الآخر يذكره وحده.

ففى سورة البقرة يذكره بمناسبة قيامه مع أبيه فى بناء البيت الحرام فيقول : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم).

و يذكره كذلك فى جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بما أنزل إليه فيقول: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.

وفى سورة النساء يذكر فى جملة الأنبياء الذين نزل الوحى عليهم قال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب والأسباط وعيسى وأيوب و يونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) .

و يذكر كذلك فى سورة الأنعام ومريم ، والأنبياء والصافات وص ، إلا أن الصافات تختص من بينها بذكر تلك القصة المثيرة التى ابتلى فيها إبراهيم بذبح ولده إسماعيل وتصور لنا إسماعيل فى صورة الشاب الصابر المستسلم لأمر الله ، المعين لأبيه على تنفيذه حيث يقول له عندما أخبره برؤ ياه (يا أبت افعل ما تؤمر / ستجدنى إن شاء الله من الصابر ين) .

وكذلك ورد ذكر إسماعيل فى كتب العهد القديم ، فقد جاء فى الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين (وأما سارای امرأة إبرام فلم تلد له ، وكانت لها جارية مصرية إسمها هاجر ، فقالت سارای لإبرام هوذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، أدخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين ، فسمع إبرام لقول سارای .

فأخذت سارای امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام فى أرض كنعان وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له ، فدخل على هاجر فحبلت ، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلث فتلدين إبناً وتدعين إسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنسانا وحشياً يده على كل واحد و يد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن . فولدت هاجر لإبرام ابناً ودعا إبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل ، وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل .

وفى الإصحاح السابع عشر (قال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش امامك ، فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو إسمه إسحاق وأقيم عهدى معه عهداً أبدياً لنسله من بعده ، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه

وأثمره وأكثره كثيراً جدا وإثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة .

فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عشية كما كلمه الله ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين حين ختن فى لحم غرلته ، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته .

وفى الإصحاح الحادى والعشرين (ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق ، فكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعاً إياها على كتفها ، والولد وصرفها ، فضت وتاهت فى برية سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد ، فجلس مقابله ورفعت صوتها و بكت فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : ما لك يا هاجر لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر) .

وفى سوق القصة على هذا النحو تحريف كثير يظهر للقارىء عندما يقارن بينه وبين ما صح به الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : (أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب ؟ وتتركنا بهذا الوادى الذى

ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت إذاً لا يضيعنا .

ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : (رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ (يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش إبنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : (فلذلك سعى الناس بينهما) فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت «صه» تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت (قد أسمعت إن كان عندك غواث) فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ــ قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ــ أو قال لولم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً) قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك (لا تخافى الضيعة ، فإن ها هنا بيتاً لله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله» .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائدا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا

هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم .

قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : (فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه ، قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً ، فقال هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام و يقول غير عتبة بابك قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فألحقى بأهلك وطلقها وتزوج منهم بأخرى .

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعده فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا ، قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقال نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل ، قال ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت الماء قال (اللهم بارك لهم فى اللحم والماء) قال النبى صلى الله عليه وسلم (ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه ، فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه) قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته : أنا بخير ، قال فأوصاك بشىء ؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ، و يأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى

أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال يا إسماعيل: إن الله أمرنى بأمر، قال فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعيننى؟ قال وأعينك، قال فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتاً، واشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم).

وهكذا يقوم إبراهيم خليل الرحمن وولده إسماعيل عليهما السلام بتنفيذ أمر الله إليهما فى بناء البيت الحرام ليكون مثابة للناس وأمناً، وليكون متعبد الله فى أرضه تهوى إليه أفئدة الموحدين، قال تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير).

« قصة الذبح ودلالتها على سمو التوحيد »

قال الله تعالى فى سورة الصافات فى شأن إبراهيم عليه السلام (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين. رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعى قال: يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو

البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم).

وقد اختلف العلماء فى أيهما كان الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟ والذين ذهبوا إلى أنه إسحاق قد تأثروا فى ذلك بكلام كعب الأحبار الذى كان يهودياً ثم أسلم فى زمان عمر رضى الله عنه، فكان يروى ما عنده من إسرائيليات، وكان كثير من الصحابة رضى الله عنهم يحسنون به الظن، فيأخذون مما يرويه لهم من غث العلم وسمينه، ولكن الذى رجحه كثير من السلف أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وقد روى ابن كثير فى تفسيره عن محمد بن كعب القرظى انه كان يقول (إن الذى أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم قال (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين).

و يقول تعالى (فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) يقول بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل).

وقد أورد العلامة ابن القيم فى كتابه زاد المعاد من الحجج على هذا الرأى ما لا يبقى معه شك فى أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وأما ما تزعمه اليهود من أن الذبيح هو إسحاق، فهو مما حرفوه من كتابهم، حسداً منهم أن يكون الذبيح هو إسماعيل أبو العرب وأياً ما كان فقد كان كل منهما كما قال ابن كثير طيباً طاهراً مطيعاً لله عز وجل، والذى يهمنا هنا هو ما تحمله القصة من معانى التضحية والإخلاص وإيثار الله عز وجل على كل محبوب، فهذا والد قد تقدمت به السن ودلفت إليه الشيخوخة يؤمر بذبح ولده ووحيده بعد ما كبر و بلغ السعى معه، فلا يتباطأ ولا يتريث بل ينهض من فوره لتنفيذ أمر ربه، فيعرض الأمر على ولده كأنه يستشيره، فلا يكون من الولد إلا أن يبدى من الثبات والصبر ما يثير الإعجاب، بل و يتعجل والده تنفيذ الأمر قائلا له (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين).

ثم يبلغ البلاء بها أقصى غاياته حين يصرع إبراهيم ولده على جبينه و يضع السكين على رقبته : فلا يلبث أن يأتيه النداء الإلهى بالفداء ، فيالها من لحظة لا تصبر لها إلا قلوب الصديقين والمخلصين من أمثال الخليل وولده إسماعيل ، و يا له من موقف من مواقف التوحيد الرائعة التى كان الخليل إماماً فيها والتى استحق بها ما أعطاه الله من كرامة فى هذه الدار حيث جعل الأنبياء جميعاً من ذريته ، وجعل له لسان صدق فى الآخرين فوق ما أعد له فى الآخرة من جزاء يناسب ما أبلى فى سبيل التوحيد وما قام به من جليل الأعمال .

رسالة إسماعيل عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة مريم : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) .

فرسالة إسماعيل عليه السلام إنما كانت للعرب الذين نشأ بينهم وتزوج منهم من قبيلة جرهم على ما سبقت الرواية به عن ابن عباس رضى الله عنهما . ولكن شريعته كانت قد درست ولم يبق منها إلا بقايا تتعلق ببعض أعمال الحج من الطواف بالبيت وتعظيمه ، والوقوف بعرفة ومنى والذبح والتلبية ونحو ذلك ، وقد اختلطت هذه الأعمال عند العرب بمظاهر الشرك ، واتخذ البيت الحرام الذى بنى لعبادة الله عز وجل وحده مكانا لعبادة الأصنام .

« متى حدث الشرك فى العرب »

قال الكلبى فى كتابه (الأصنام) (إن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما ، لما سكن سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ، ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا فى البلاد والتماس المعاش .

وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون و يعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتحثوا ما كان يعبد قوم نوح (عليه السلام) منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف ، والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة و إهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه) اهـ .

فهذه الرواية تفيد أن سبب عبادة العرب للأصنام هو تعظيمهم للحرم وللبيت الحرام ، فلما اضطرتهم ضرورة العيش إلى النزوح عنه اتخذوا منه حجارة تذكرهم به و يطوفون حولها كما كانوا يطوفون حوله ، ثم نسوا ذلك بعد أمد ، واتخذوا هذه الحجارة آلهة يعبدونها من دون الله .

ولكنا نجده فى مكان آخر من نفس الكتاب يذكر رواية أخرى فى سبب عبادة العرب للأصنام وابتداء حدوث ذلك فيهم فيقول(١) .

« فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامى عمرو ابن ربيعة وهو ـ أى ربيعة ـ لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى ، وهو أبو خزاعة ، وكانت أم عمرو بن لحى ، فهيرة بنت عمرو بن الحارث ، و يقال قمعه بنت مضاض الجرهمى .

وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى

(١) كتاب الأصنام للكلبى ص ٨ .

كتاب دعوة التوحيد للهراس

الولاية وقاتل جرهماً بنى إسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم.

ثم إنه مرض مرضاً شديداً فقيل له أن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه فقالوا «نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة».

وفى مكان آخر يقول (إن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن يكنى أبا ثمامة، فقال له عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة فقال له عمرو: جير ولا إقامة، قال انت ضف جدة، تجد فيها أصناما معده، فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب).

فأتى شط جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة، فأجابه عوف بن عذره بن زيد اللات فدفع إليه (وداً) فحمله إلى وادى القرى فأقره بدومة الجندل وجعل ابنه عامراً سادناً له، فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام وأجابته كذلك مضر بن نزار فدفع إلى رجل منهم يقال له الحارث ابن تيم بن سعد هذيل سواعاً فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخله، يعبده من يليه من مضر.

وأجابته مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادى يغوث، وكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج، وأجابته همدان، فدفع إلى مالك بن مرثد يعوق، فكان بقرية يقال لها (خيوان) تعبده همدان ومن والاها، وأجابته حمير فدفع إلى رجل من ذى رعين يقال له معد يكرب نسراً، فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها، ثم يقول: (فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بهدمها).

ويستشهد ابن الكلبى لهذه الرواية الثانية فى سبب عبادة العرب للأصنام

بحديث يرويه عن أبى صالح، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: (رفعت لى النار فرأيت عمراً رجلا قصيرا أحمر أزرق يجر قصبه فى النار، قلت من هذا؟ قيل هذا عمرو بن لحى اول من بحر البحيرة ووصل الوصيلة وسيب السائبة، وحمى الحامى، وغير دين إبراهيم، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان).

وسواء صحت هذه الرواية أم تلك فى سبب عبادة العرب للأصنام فقد انتشرت تلك العبادة فيهم حتى لم يبق حى ولا قبيلة فى العرب إلا ولها صنم تعبده وجاء الإسلام والأصنام تملأ جوف الكعبة وتحيط بها، وكانت كل قبيلة من العرب تحج كل عام إلى صنمها تذبح له وتطيف به وتستشيره فى مهامها.

«أشهر الأصنام عند العرب»

ذكرنا أن عمرو بن لحى جاء بعدد من الأصنام من البلقاء بالشام أو استثارها من مكامنها بجدة، وأنه دعا العرب إلى عبادتها فى موسم الحج، فأجابته بعض القبائل إلى ما دعا إليه فوزع عليهم هذه الأصنام التى كانت تسمى باسماء أصنام قوم نوح وهى ود وسواع و يغوث و يعوق ونسراً).

ومن أشهر أصنامهم كذلك (اللات والعزى ومناة) وهى التى ذكرها الله عز وجل فى سورة النجم فى قوله (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى).

أما اللات فكان ابن عباس يقول إنه كان رجلا يلت السويق للحجيج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه ولهذا كان يقرأ اللات بتشديد التاء، وقيل إنه كان سخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وكانت تعبدها ثقيف ومن تابعها و يفخرون بها على من عداهم من أحياء العرب، وأنهم استقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عما يقولون.

وأما العزى فكانت عبارة عن ثلاث سمرات ببطن نخلة، كانت تعبدها قريش وتخصها بالزيارة والهدية دون غيرها، ولهذا لما ظهر المشركون على

المسلمين بأحد نادى أبوسفيان (لنا العزى ولا عزى لكم فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يردوا عليه بقولهم (الله مولانا ولا مولى لكم).

ولما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان من الهجرة بعث خالد بن الوليد رضى الله عنه لهدم العزى وقطع السمرات الثلاث، و يروى المقريزى فى كتابه (إمتاع الاسماع) بروايته عن الواقدى أن خالد ابن الوليد هدم العزى لخمس بقين من رمضان سنة ثمان، وكان سادنها أفلح بن النضر الشيبانى من بنى سليم، وأنه لما رجع إليها بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليهدمها جرد سيفه فإذا امرأة سوداء عريانة ناشرة شعر الرأس فجعل السادن يصبح بها لتحمل على خالد، قال خالد وأخذنى اقشعرار فى ظهرى. قال فأقبل خالد بالسيف وهو يقول ياعز كفرانك لا سبحانك. إنى رأيت الله قد أهانك، قال فضربها بالسيف فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال نعم تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب أما أنها لن تعبد بعد اليوم، ثم قال خالد (أى رسول الله الحمد لله الذى أنقذنا بك من الهلكة).

وأما مناة فكان من اقدم أصنامهم، وكانت العرب تسمى به فتقول عبد مناة وزيد مناة، وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله، ولم يكن أحد أشد إعظاما له من الأوس والخزرج حتى إنهم كانوا إذا حجوا ووقفوا المواقف كلها مع الناس لا يحلقون رؤوسهم حتى يأتوه فيحلقوا عنده و يقيموا عنده أياما لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك، وقد بعث إليها النبى صلى الله عليه وسلم عليا وهوفى طريقه إلى مكة عام الفتح فهدمها.

ومن أعظم أصنامهم كذلك هبل، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب، و يقال إن أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر حتى إنه كان يقال له هبل خزيمة.

قال ابن الكلبى (وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً).

فلما بعث الله نبيه وأتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له قالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشئ عجاب) يعنون الأصنام، واستهترت العرب فى عبادة الأصنام، فنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم (الدوار).

هذا قليل من كثير يبين لنا ما كانت عليه الحال فى جزيرة العرب من تمرغ فى أوحال الشرك وأرجاس الوثنية قبل أن يطهرهم الله بالإسلام.

الدعوة المحمدية

«حال العالم قبيل البعثة»

روى الإمام أحمد رضى الله عنه عن عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «وإن ربى أمرنى أن أعلمكم مما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا، كل مال نحلته عبدى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من بنى إسرائيل، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً و يقظان الخ».

والشاهد من هذا الحديث هو قوله عليه السلام: «ثم إن الله عز وجل نظر إلى

عقيدتنا

عقيدتنا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فنؤمن بربوبية الله تعالى، أي بأنه الرب الخالق الملك المدبِّر لجميع الأمور.

ونؤمن بأُلوهية الله تعالى، أي بأنه الإله الحق وكل معبود سواه باطل.

ونؤمن بأسمائه وصفاته، أي بأنه له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا.

ونؤمن بوحدانيته في ذلك، أي بأنه لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ونؤمن بأنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ

عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ونؤمن بأنه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ونؤمن بأنّ له ملك السموات والأرض ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

ونؤمن بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١١، ١٢].

ونؤمن بأنه ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

ونؤمن بأنه ﴿عِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ونؤمن بأن الله ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ونؤمن بأن الله يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

ونؤمن بأنه ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ونؤمن بأن كلماته أتم الكلمات صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وحسناً في الحديث، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ونؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى تكلَّم به حقًّا وألقاه إلى جبريل، فنزل به جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وسلّم ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

ونؤمن بأن الله عز وجل عليٌّ على خلقه بذاته وصفاته لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

ونؤمن بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]. واستواؤه على العرش: علوه عليه بذاته علوًّا خاصاً يليق بجلاله وعظمته لايعلم كيفيته إلا هو- جل وعلا -.

ونؤمن بأنه تعالى مع خلقه وهو على عرشه، يعلم أحوالهم، ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ويدبِّر أمورهم، يرزق الفقير ويجبر الكسير، يؤتي الملك من يشاء، وينزع

الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير. ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم: إنه مع خلقه في الأرض، ونرى أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال؛ لأنه وصف الله بما لا يليق به من النقائص.

ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلّم أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»[1].

ونؤمن بأنه سبحانه وتعالى يأتي يوم المعاد للفصل بين العباد لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الذكر في آخر الليل والإجابة (٧٥٨).

يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢١-٢٣].

ونؤمن بأنه تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

ونؤمن بأن إرادته – تعالى – نوعان:

كونية: يقع بها مراده ولا يلزم أن يكون محبوباً له، وهي التي بمعنى المشيئة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وشرعية: لا يلزم بها وقوع المراد ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً له كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

ونؤمن بأن مراده الكوني والشرعي تابع لحكمته؛ فكل ما قضاه كوناً أو تعبد به خلقه شرعاً فإنه لحكمة وعلى وفق الحكمة، سواء علمنا منها ما نعلم أو تقاصرت عقولنا عن ذلك ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ونؤمن بأن الله تعالى يحب أولياءه وهم يحبونه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ونؤمن بأن الله تعالى يرضى ما شرعه من الأعمال والأقوال ويكره ما نهى عنه منها ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ونؤمن بأن الله تعالى يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

ونؤمن بأن الله تعالى يغضب على من يستحق الغضب من الكافرين وغيرهم ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

ونؤمن بأن لله تعالى وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

ونؤمن بأن لله تعالى يدين كريمتين عظيمتين ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] وقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١).

وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتان، ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلّم في الدجال: «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور»(٢).

ونؤمن بأن الله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٧١٣١)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٢٩٣٣).

﴿ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

ونؤمن بأن الله تعالى لا مثل له لكمال صفاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ونؤمن بأنه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمال حياته وقيوميته.

ونؤمن بأنه لا يظلم أحداً لكمال عدله، وبأنه ليس بغافل عن أعمال عباده لكمال رقابته وإحاطته.

ونؤمن بأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وبأنه لا يلحقه تعب ولا إعياء لكمال قوته ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي من تعب ولا إعياء.

ونؤمن بثبوت كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلّم من الأسماء والصفات لكننا نتبرأ من

محذورين عظيمين هما التمثيل والتكييف.

فالتمثيل: أن يقول بقلبه أو لسانه: صفات الله تعالى كصفات المخلوقين.

والتكييف: أن يقول بقلبه أو لسانه: كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا.

ونؤمن بانتفاء كل ما نفاه الله تعالى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلّم، وأن ذلك النفي يتضمن إثباتاً لكمال ضده، ونسكت عما سكت الله عنه ورسولُه.

ونرى أن السير على هذا الطريق فرض لابد منه، وذلك لأن ما أثبته الله لنفسه أو نفاه عنها سبحانه فهو خبرٌ أخبر الله به عن نفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً، والعباد لا يحيطون به علماً.

وما أثبته له رسوله أو نفاه عنه فهو خبرٌ أخبر به عنه، وهو أعلم الناس بربِّه، وأنصح الخلق، وأصدقهم، وأفصحهم.

ففي كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلّم كمال العلم والصدق والبيان؛ فلا عذر في ردِّه أو التردد في قبوله.

فصـــل

وكل ما ذكرناه من صفات الله تعالى تفصيلاً أو إجمالاً، إثباتاً أو نفياً؛ فإننا في ذلك على كتاب ربِّنا وسُنَّةِ نبينا معتمدون، وعلى ما سار عليه سلف الأُمَّة وأئمة الهدى من بعدهم سائرون.

ونرى وجوبَ إجراء نصوص الكتاب والسُنّة في ذلك على ظاهرها وحملها على حقيقتها اللائقة بالله عزّ وجل.

ونتبرَّأُ من طريق المحرّفين لها الذين صرفوها إلى غير ما أراد الله بها ورسوله.

ومن طريق المعطّلين لها الذين عطّلوها عن مدلولها الذي أراده الله ورسوله.

ومن طريق الغالين فيها الذين حملوها على التمثيل أو تكلفوا لمدلولها التكييف.

ونعلم علم اليقين أنّ ما جاء في كتاب الله تعالى أو سُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلّم فهو حق لا يناقض بعضه بعضاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولأن التناقض في الأخبار يستلزم تكذيب بعضها بعضاً، وهذا محال في خبر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلّم.

ومن ادّعى أن في كتاب الله تعالى أو في سُنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم أو بينهما تناقضاً فذلك لسوء قصده وزيغ قلبه؛ فليتب إلى الله تعالى ولينزع عن غيّه.

ومن توهم التناقض في كتاب الله تعالى أو في سُنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم أو بينهما، فذلك إمّا لقلّة علمه، أو قصور فهمه، أو تقصيره في التدبر، فلْيبحث عن العلم وليجتهد في التدبر حتى يتبين له الحق، فإن لم يتبين له فليكل الأمر إلى عالمه، وليكفَّ عن توهمه، وليقل كما يقول الراسخون في العلم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وليعلم أن الكتاب والسُنَّة لا تناقض فيهما ولا بينهما ولا اختلاف.

فصل

ونؤمن بملائكة الله تعالى وأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

خلقهم الله تعالى من نور فقاموا بعبادته وانقادوا لطاعته ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. حجبهم الله عنا فلا نراهم، وربما كشفهم لبعض عباده، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلّم جبريل على صورته، له ستمائة جناح قد سدّ الأفق[1]، وتمثل جبريل لمريم بشراً سوياً، فخاطبته وخاطبها، وأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وعنده الصحابة بصورة رجل لا يُعرف ولا يُرى عليه أثر السفر، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، فجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فأسند ركبتيه إلى ركبتي النبي صلى الله

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (١٧٤).

عليه وسلّم، ووضع كفيه على فخذيه، وخاطب النبي صلى الله عليه وسلّم، وخاطبه النبي صلى الله عليه وسلّم، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلّم أصحابه أنّه جبريل[1].

ونؤمن بأنّ للملائكة أعمالاً كلفوا بها.

فمنهم جبريل الموكل بالوحي، ينزل به من عند الله على من يشاء من أنبيائه ورسله.

ومنهم ميكائيل: الموكل بالمطر والنبات.

ومنهم إسرافيل: الموكل بالنفخ في الصور حين الصعق والنشور.

ومنهم ملك الموت: الموكل بقبض الأرواح عند الموت.

ومنهم ملك الجبال: الموكل بها.

ومنهم مالك: خازن النار.

ومنهم ملائكة موكلون بالأجنّة في الأرحام، وآخرون

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

موكلون بحفظ بني آدم، وآخرون موكلون بكتابة أعمالهم، لكل شخص ملكان ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وآخرون موكلون بسؤال الميت بعد الانتهاء من تسليمه إلى مثواه، يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومنهم الملائكة الموكلون بأهل الجنة ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلّم أن البيت المعمور في السماء يدخله ـ وفي رواية يصلي فيه ـ كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله (١٦٤).

فصل

ونؤمن بأن الله تعالى أنزل على رسله كتباً، حجّة على العالمين، ومحجة للعاملين، يعلّمونهم بها الحكمةَ ويزكّونهم.

ونؤمن بأن الله تعالى أنزل مع كل رسول كتاباً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ونعلم من هذه الكتب:

أ ـ التوراة: التي أنزلها الله تعالى على موسى صلى الله عليه وسلّم، وهي أعظم كتب بني إسرائيل ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ب ـ الإنجيل: الذي أنزله الله تعالى على عيسى صلى الله عليه وسلّم، وهو مصدق للتوراة ومتمم لها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦]. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

جـ ـ الزبور: الذي آتاه الله تعالى داود صلى الله عليه وسلّم.

د ـ صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام.

هـ ـ القرآن العظيم: الذي أنزله الله على نبيه محمد خاتم النبيين ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فكان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] فنسخ الله به جميع الكتب السابقة، وتكفّل بحفظه عن عبث العابثين وزيغ المحرفين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] لأنه سيبقى حجّة على الناس أجمعين إلى يوم القيامة.

أما الكتب السابقة فإنها مؤقتة بأمد ينتهي بنزول ما ينسخها ويبيِّن ما حصل فيها من تحريف وتغيير؛ ولهذا لم تكن معصومة منه، فقد وقع فيها التحريف والزيادة والنقص.

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨، ٧٩].

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧].

* * *

فصل

ونؤمن بأن الله تعالى بعث إلى الناس رسلاً ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ونؤمن بأن أولهم نوح وآخرهم محمد، صلى الله عليهم وسلم أجمعين ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وأن أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى ابن مريم، وهم المخصوصون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

ونعتقد أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلّم حاوية لفضائل شرائع هؤلاء الرسل المخصوصين بالفضل لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ونؤمن بأن جميع الرسلَ بشَرٌ مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء، قال الله تعالى عن نوح وهو أولهم: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] وأمر الله تعالى محمداً وهو آخرهم أن يقول: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] وأن يقول: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وأن يقول: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

ونؤمن بأنهم عبيد من عباد الله أكرمهم الله تعالى بالرسالة، ووصفهم بالعبودية في أعلى مقاماتهم وفي سياق الثناء عليهم، فقال في أولهم نوح: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] وقال في آخرهم محمد صلى الله عليه وسلّم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال في رسل آخرين: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وقال في عيسى ابن مريم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

ونؤمن بأن الله تعالى ختم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلّم وأرسله إلى جميع الناس لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ونؤمن بأن شريعته صلى الله عليه وسلّم هي دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد ديناً سواه لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ونرى أن من زعم اليوم ديناً قائماً مقبولاً عند الله سوى

دين الإسلام، من دين اليهودية أو النصرانية أو غيرهما، فهو كافر، ثم إن كان أصله مسلماً يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتداً لأنه مكذب للقرآن.

ونرى أن من كفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلّم إلى الناس جميعاً فقد كفر بجميع الرسل، حتى برسوله الذي يزعم أنه مؤمن به متبع له، لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فجعلهم مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يسبق نوحاً رسول. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ونؤمن بأنه لا نبي بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومن ادّعى النبوة بعده أو صدّق من ادّعاها فهو كافر؛ لأنه مكذب للكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

ونؤمن بأن للنبي صلى الله عليه وسلّم خلفاء راشدين خلفوه في أمته علماً ودعوة وولاية، وبأن أفضلهم وأحقهم

بالخلافة أبوبكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وهكذا كانوا في الخلافة قَدَراً كما كانوا في الفضيلة شرعاً، وما كان الله تعالى ـ وله الحكمة البالغة ـ ليولي على خير القرون رجلاً وفيهم من هو خير منه وأجدر بالخلافة.

ونؤمن بأن المفضول من هؤلاء قد يتميز بخصيصة يفوق فيها من هو أفضل منه، لكنه لا يستحق بها الفضل المطلق على مَنْ فَضَلَه؛ لأن موجبات الفضل كثيرة متنوعة.

ونؤمن بأن هذه الأمة خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ونؤمن بأن خير هذه الأمة الصحابة ثم التابعون ثم تابعوهم، وبأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين، لا يضرّهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمرُ الله عز وجل.

ونعتقد أن ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من الفتن، فقد صدر عن تأويلٍ اجتهدوا فيه، فمن كان منهم مصيباً كان له أجران، ومن كان منهم مخطئاً فله أجر واحد وخطؤه مغفور له.

ونرى أنّه يجب أن نكف عن مساوئهم، فلا نذكرهم إلا بما يستحقونه من الثناء الجميل، وأن نطهّر قلوبنا من الغل والحقد على أحد منهم، لقوله تعالى فيهم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وقول الله تعالى فينا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *

فصل

ونؤمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده، حين يُبعثُ الناسُ أحياء للبقاء، إمّا في دار النعيم وإمّا في دار العذاب الأليم.

فنؤمن بالبعث، وهو إحياء الله تعالى الموتى حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، حفاة بلا نعال، عراة بلا ثياب، غرلاً بلا ختان ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ونؤمن بصحائف الأعمال تعطى باليمين أو من وراء الظهور بالشمال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ١٢]. ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ

وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ونؤمن بالموازين تُوضع يوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٤] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ونؤمن بالشفاعة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلّم خاصة، يشفع عند الله تعالى بإذنه ليقضي بين عباده، حين يصيبهم من الهمِّ والكرب ما لا يُطيقون فيذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى تنتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٦١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣، ١٩٤).

ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها، وهي للنبي صلى الله عليه وسلّم وغيره من النبيين والمؤمنين والملائكة، وبأن الله تعالى يُخرج من النار أقواماً من المؤمنين بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته[1].

ونؤمن بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، طوله شهر، وعرضه شهر، وآنيته كنجوم السماء حسناً وكثرةً، يرده المؤمنون من أُمّته، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك[2].

ونؤمن بالصراط المنصوب على جهنم، يمرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم، فيمر أولهم كالبرق ثم كمرِّ الريح ثم كمرِّ الطير وأشدِّ الرجال، والنبي صلى الله عليه وسلّم قائم على

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٤٥٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٢٧٦٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٨٥)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم (٢٢٩١).

الصراط يقول: يا رب سلّم سلّم. حتى تعجز أعمال العباد، فيأتي من يزحف، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة، تأخذ من أُمِرَتْ بِهِ؛ فمخدوشٌ ناجٍ ومكردسٌ في النار[1].

ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله ـ أعاننا الله عليها ويسَّرها علينا بمنّه وكرمه.

ونؤمن بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلّم لأهل الجنة أن يدخلوها. وهي للنبي صلى الله عليه وسلّم خاصة.

ونؤمن بالجنّة والنار، فالجنّة: دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

والنار: دار العذاب التي أعدَّها الله تعالى للكافرين الظالمين، فيها من العذاب والنكال ما لا يخطر على البال

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٧٤٣٨)، وكتاب الرقاق (٧٥٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢)، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٥).

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وهما موجودتان الآن ولن تفنيا أبد الآبدين ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق: ١١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

ونشهد بالجنّة لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين: الشهادة لأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، ونحوهم ممن عيّنهم النبي صلى الله عليه وسلّم.

ومن الشهادة بالوصف: الشهادة لكل مؤمن أو تقي.

ونشهد بالنار لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين: الشهادة لأبي لهب وعمرو بن لحي

الخزاعي ونحوهما.

ومن الشهادة بالوصف: الشهادة لكل كافرٍ أو مشركٍ شركاً أكبر أو منافق.

ونؤمن بفتنة القبر: وهي سؤال الميت في قبره عن ربّه ودينه ونبيه فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمد، وأمّا الكافر والمنافق فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

ونؤمن بنعيم القبر للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ونؤمن بعذاب القبر للظالمين الكافرين ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

والأحاديث في هذا كثيرة معلومة، فعلى المؤمن أن يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسُّنَّة من هذه الأمور الغيبيَّة، وألا يعارضها بما يشاهد في الدنيا، فإن أمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا لظهور الفرق الكبير بينهما، والله المستعان.

* * *

فصل

ونؤمن بالقدر خيره وشرّه، وهو تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته.

وللقدر أربع مراتب:

المرتبة الأولى: العلم، فنؤمن بأن الله تعالى بكل شيء عليم، علم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم.

المرتبة الثانية: الكتابة، فنؤمن بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

المرتبة الثالثة: المشيئة، فنؤمن بأن الله تعالى قد شاء كل ما في السموات والأرض، لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

المرتبة الرابعة: الخلق، فنؤمن بأن الله تعالى ﴿خَالِقُ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣].

وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من الله تعالى نفسه ولما يكون من العباد، فكل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده، والله تعالى قد شاءها وخلقها ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة بهما يكون الفعل.

والدليل على أن فعل العبد باختياره وقدرته أمور:

الأول: قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ [التوبة: ٤٦] فأثبت للعبد إتياناً بمشيئته وإعداداً بإرادته.

الثاني: توجيه الأمر والنهي إلى العبد، ولو لم يكن له اختيار وقدرة لكان توجيه ذلك إليه من التكليف بما لا يطاق، وهو أمر تأباه حكمة الله تعالى ورحمته وخبره الصادق في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الثالث: مدح المحسن على إحسانه وذم المسيء على إساءته، وإثابة كل منهما بما يستحق، ولولا أن الفعل يقع بإرادة العبد واختياره لكان مدح المحسن عبثاً، وعقوبة المسيء ظلماً، والله تعالى منزّه عن العبث والظلم.

الرابع: أن الله تعالى أرسل الرسل ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولولا أن فعل العبد يقع بإرادته واختياره، ما بطلت حجّته بإرسال الرسل.

الخامس: أن كل فاعل يحسُّ أنّه يفعل الشيء أو يتركه بدون أي شعور بإكراه، فهو يقوم ويقعد، ويدخل ويخرج، ويسافر ويقيم بمحض إرادته، ولا يشعر بأن أحداً يكرهه

على ذلك، بل يفرّق تفريقاً واقعياً بين أن يفعل الشيء باختياره وبين أن يكرهه عليه مكرِه. وكذلك فرّق الشرع بينهما تفريقاً حكمياً، فلم يؤاخذ الفاعل بما فعله مكرهاً عليه فيما يتعلق بحق الله تعالى.

ونرى أنه لا حجة للعاصي على معصيته بقَدَرِ الله تعالى، لأن العاصي يقدم على المعصية باختياره، من غير أن يعلم أن الله تعالى قدّرها عليه، إذ لا يعلمُ أحد قَدَر الله تعالى إلا بعد وقوع مقدوره ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] فكيف يصح الاحتجاج بحجة لا يعلمها المحتجّ بها حين إقدامه على ما اعتذر بها عنه، وقد أبطل الله تعالى هذه الحجة بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لماذا لم تقدم على الطاعة مقدراً أنّ الله تعالى قد كتبها لك، فإنه لا فرق بينها

وبين المعصية في الجهل بالمقدور قبل صدور الفعل منك؟ ولهذا لمّا أخبر النبي صلى الله عليه وسلّم الصحابة بأن كل واحد قد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: أفلا نتكل وندع العمل؟ قال: «لا، اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلِقَ له»[1].

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لو كنت تريد السفر لمكة وكان لها طريقان، أخبرك الصادق أن أحدهما مخَوفٌ صعب والثاني آمن سهل، فإنك ستسلك الثاني ولا يمكن أن تسلك الأول وتقول: إنه مقدر عليَّ؛ ولو فعلت لعدّك الناس في قسم المجانين.

ونقول له أيضاً: لو عرض عليك وظيفتان إحداهما ذات مرتب أكثر، فإنك سوف تعمل فيها دون الناقصة، فكيف تختار لنفسك في عمل الآخرة ما هو الأدنى ثم تحتجّ بالقدر؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ (٤٩٤٥)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧).

ونقول له أيضاً: نراك إذا أصبت بمرض جسمي طرقت باب كل طبيب لعلاجك، وصبرت على ما ينالك من ألم عملية الجراحة وعلى مرارة الدواء. فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟

ونؤمن بأنّ الشر لا ينسب إلى الله تعالى لكمال رحمته وحكمته، قال النبي صلى الله عليه وسلّم: «والشر ليس إليك» رواه مسلم[1]. فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شر أبداً، لأنّه صادر عن رحمةٍ وحكمة، وإنّما يكون الشرُّ في مقضياته، لقول النبي صلى الله عليه وسلّم في دعاء القنوت الذي علّمه الحسن رضي الله عنه: «وقني شر ما قضيت»[2]. فأضاف الشر إلى ما قضاه، ومع هذا فإنّ الشر في المقضيات ليس شراً خالصاً محضاً، بل هو شر في محله

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الوتر (١٤٢٥)، والترمذي، أبواب الوتر (٤٦٤)، والنسائي، كتاب قيام الليل (١٧٤٥)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة (١١٧٨).

من وجه، خير من وجه، أو شر في محله، خير في محل آخر.

فالفساد في الأرض من: الجدب والمرض والفقر والخوف شر، لكنه خير في محل آخر. قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقطع يد السارق ورجم الزاني شر بالنسبة للسارق والزاني في قطع اليد وإزهاق النفس، لكنه خير لهما من وجه آخر، حيث يكون كفارة لهما فلا يجمع لهما بين عقوبتي الدنيا والآخرة، وهو أيضاً خير في محل آخر، حيث إن فيه حماية الأموال والأعراض والأنساب.

* * *

كتاب / دعوة التوحيد للهراس

حتى جاءه نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .
وهكذا بلغ الرسول صلوات الله وسلامه عليه من السمو فى الدعوة والجهاد الغاية التى تتضاءل دونها كل همة . وتتضاءل عندها هيبة الرقاب .

نشــوء الخــلاف

بعد وفاته صلى الله عليه وسلم

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضيا مرضيا بعد أن بلغ رسالة ربه كأتم ما يكون التبليغ ، وأدى الأمانة كأحسن ما يكون الأداء وترك أمته على المحجة البيضاء ، ونزل عليه وهوبعرفة فى حجة الوداع : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) . المائدة آية (٣)

وقد سار أصحابه من بعده على نهجه واقتفوا أثره ووقفوا عند حدود الكتاب والسنة ، فكانوا فى عقيدتهم على رأى واحد وهو الإيمان بكل ما تضمنته النصوص من غير لجوء إلى التأويل ولا نزوع إلى التشبيه أو التعطيل :

ولكن شاء الله أن يجرى على هذه الأمة من الخلاف فى أصول دينها ما جرى على الأمم من قبلها مصداق قوله صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) .

وقوله فى الحديث الآخر «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم فى النار إلا واحدة ، وهى ما أنا عليه اليوم وأصحابى — وفى رواية : وهى الجماعة — وإنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ولا يبقى منه مفصل ولا عرق إلا دخله) .

وكان النزاع السياسى بين على ومعاوية رضى الله عنهما حول الخلافة قد أسفر عن وجود فرقتين كبيرتين من أهل الابتداع والضلالة .

أولاهما فرقة الخوارج الذين كانوا فى الأصل فى جيش على رضى الله عنه ، ثم انشقوا عنه بعد حادثة التحكيم المشهورة وما لبثوا أن كونوا لأنفسهم رأيا خاصا فى بعض المسائل الدينية فذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار . وبناء على هذا الأصل كفروا علياً ومعاوية ومن كان بعسكرهما من الصحابة ، واستحلوا دماء من خالفهم من المسلمين وسبى ذراريهم ونسائهم وذهبوا إلى أن الخلافة لا يشترط لها أن يكون الخليفة قرشيا ، واجتمعوا فى كل زمان على واحد منهم بشرط أن يبقى على مقتضى اعتقادهم ؛ ويجرى على سنن العدل فى معاملاتهم وإلا خذلوه وخلعوه ، وربما قتلوه .

وأما الفرقة الثانية فهم الشيعة الذى غلوا فى على رضى الله عنه حتى زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على إمامته وكان زعيم هذه الفئة رجلا يقال له عبدالله بن سبا وكان يهودياً وأظهر الإسلام ليتمكن من إفساد على أهله كما فعل ذلك بعض اليهود فى المسيحية ، واتخذ من شخصية على مادة لفتنته فزعم أن الله حل فيه وتبعه على ذلك جماعة فاضطر على أن يحرقهم بالنار ، و يروى أنه أنشد فى ذلك :

لما رأيت الأمر أمراً منكرا ** أججت نارى ودعوت قنبرا

وقد اتسعت هذه الفتنة فيما بعد وتولد منها كثير من الشر الذى عانى منه الإسلام وأهله ، ولا يزالون يعانون من خبث هؤلاء الشيعة وفتنهم .

« بدعــة القــدريــة »

ظهرت هذه البدعة فى آخر أيام الصحابة رضى الله عنهم قام بها (معبد الجهنى) و(غيلان الدمشقى) اتبعهما عليها واصل بن عطاء رئيس المعتزلة . وكان يقول فى تقرير هذه البدعة فيما حكاه الشهرستانى عنه (إن البارئ تعالى

حكيم عادل لا يجوز أن يضاف إليه شر ولا ظلم ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه.

فالعبد هو الفاعل للخير والشر، والايمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المجازى على فعله والرب تعالى أقدره على ذلك كله وأفعال العباد محصورة فى الحركات والسكنات والاعتمادات والنظر والعلم، قال و يستحيل أن يخاطب العبد (بأفعل) وهو لا يمكنه أن يفعل ولا هو يحس من نفسه الاقتدار والفعل، ومن أنكره فقد أنكر الضرورة».

وقد اتسعت هذه البدعة حتى شغلت أذهان كثير من الناس وحتى أشفق منها من كان موجودا فى ذلك العصر من الصحابة كابن عباس وابن عمر وغيرهما، فأخذوا يروون للناس ما عندهم من أحاديث القدر.

ومن العجيب أن بعض كبار التابعين قد حاك فى صدره من هذه البدعة بل قيل إن الحسن البصرى رحمه الله وهو من ساداتهم كان يرى رأى هؤلاء القدرية.

يقول الشهرستانى (ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصرى كتبها إلى (عبد الملك ابن مروان) وقد سأله عن القول بالقدر والجبر فأجابه بما يوافق مذهب القدرية واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل).

ولكن الشهرستانى يستدرك على ذلك بقوله (ولعلها لواصل ابن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله تعالى فإن هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم).

وهذا الذى نميل إليه فإنه لا يظن بالحسن أن يذهب مذهب هؤلاء فى إنكار القدر السابق والقول بأن الله لم يقدر على العبد طاعة ولا معصية ولا علم بوقوع ذلك منه ولا أراده منه. ولعل الذى كان يقوله الحسن رحمه الله هو إثبات نوع من الاختيار للعبد بمعنى أنه ليس مجبورا على الفعل بحيث لا يقدر على الترك وقد دفع هذه التهمة عن الحسن كثير من أئمة أهل السنة، روى أبو داود عن حميد الطويل قال (قدم علينا الحسن مكة فكلمنى فقهاء أهل مكة ان أكلمه فى أن يجلس لهم

يوما يعظهم فيه، فقال نعم فاجتمعوا فخطبهم فما رأيت أخطب منهم، فقال رجل يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ فقال سبحان الله هل من خالق غير الله؟ خلق الله الشيطان وخلق الخير وخلق الشر قال الرجل قاتلهم الله كيف يكذبون على هذا الشيخ؟ وروى مثل هذا أيضاً عن ابن عون وحماد بن زيد وأيوب السختيانى رحمهم الله.

وكانت هذه البدعة (بدعة القدرية) أول سهم يوجه إلى كبد التوحيد فإنها تجعل للعبد استقلالا بخلق فعله ولذلك ورد فى بعض الأحاديث (أن القدرية مجوس هذه الأمة إذا مرضوا فلا تعودوهم وإذا ماتوا فلا تشهدوهم) وهو حديث ضعيف.

ورد عن أبن عباس رضى الله عنهما أنه قال (القدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده).

وقد روى عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (ما هلكت أمة قط إلا بالشرك بالله عز وجل وما أشركت قط إلا كان بدء إشراكها التكذيب بالقدر) وفى إسناده ضعف.

المرجئة

يقول الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل):

(الإرجاء على معنيين أحدهما بمعنى التأخير كما فى قوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه) أى أمهله وأخره والثانى إعطاء الرجاء.

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد وأما بالمعنى الثانى فظاهر فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل الجنة، أو من أهل النار، فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان،

ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى الأخير صحيح. فإن مذهب أهل السنة أن صاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب منها فأمره إلى الله إن شاء غفرها له وإن شاء عذبه بها لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

وأما الإرجاء بالمعنى الأول وهو تأخير الأعمال عن الإيمان واعتقاد أن الإيمان قول ومعرفة، فهذا هو الذى ذمه السلف رحمهم الله وحذروا الناس من مقالة أصحابه، وقد روى الآجرى فى كتابه (الشريعة) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه قال:

(إنى لأعلم أهل دينين هذين الدينين فى النار قوم يقولون الإيمان كلام، وقوم يقولون ما بال الصلوات الخمس؟ وإنما هما صلاتان).

وقد روى أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: (مثل المرجئة مثل الصابئين) وأنه حذر أيوب السختيانى من مجالسه (طلق) لأنه مرجىء. وروى عن وكيع أنه كان يقول: (أهل السنة يقولون الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون الإيمان قول، والجهمية يقولون الإيمان المعرفة).

وقال محمد بن الحسين الآجرى: (من قال الإيمان قول دون العمل يقال له رددت القرآن والسنة وما عليه جميع العلماء وخرجت من قول المسلمين وكفرت بالله العظيم.

فإن قال بماذا؟ قيل له إن: الله عز وجل أمر المؤمنين بعد أن صدقوا فى إيمانهم أمرهم بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وفرائض كثيرة يطول ذكرها مع شدة خوفهم على التفريط فيها العقوبة الشديدة، فمن زعم أن الله تعالى فرض على المؤمنين ذكرها ولم يرد منهم العمل ورضى منهم بالقول، فقد خالف الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الله عز وجل لما تكامل أمر الإسلام بالأعمال قال: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا). المائدة آية (٣)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم (بنى الاسلام على خمس) وقال صلى الله عليه وسلم (من ترك الصلاة فقد كفر) ومن قال الإيمان المعرفة دون القول والعمل، فقد أتى بأعظم من مقاله من قال الإيمان قول، ولزمه أن يكون إبليس على قوله مؤمناً، لأن إبليس قد عرف ربه (قال رب بما أغويتنى) وقال (رب فأنظرنى) و يلزم أن تكون اليهود — لمعرفتهم بالله و برسوله — أن يكونوا مؤمنين. قال الله عز وجل (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) فقد أخبر عز وجل أنهم يعرفون الله تعالى ورسوله إلى أن يقول «بل نقول — والحمد لله — قولا يوافق الكتاب والسنة وعلماء المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم، وقد تقدم ذكرنا لهم أن الإيمان معرفة بالقلب تصديقاً يقيناً وقول باللسان وعمل بالجوارح لا يكون مؤمناً إلا بهذه الثلاثة لا يجزىء بعضها عن بعض والحمد لله على ذلك).

وإنما أطلنا الكلام فى هذه المقالة لأنها خرق شديد لسياج التوحيد، فإن الأعمال من حقوق التوحيد ومكملاته فإهمالها نقص فى التوحيد، وقد سمى الله تركها شركاً وكفراً.

قال تعالى من سورة الروم (وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) وقال من سورة حم فصلت (وو يل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة).

وقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب المرجئة والقدرية» وهو ضعيف.

الجهمية

هم أصحاب (جهم بن صفوان) ظهرت بدعته (بترمذ) وقتله «سالم بن أحوز المازنى» — بمرو — فى آخر زمن بنى أمية، وقد غلا فى التعطيل حتى نفى الأسماء والصفات جميعاً، وقال لا يجوز أن يوصف البارى بصفة يوصف بها خلقه، فلا

يسميه حياً ولا عالماً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا متكلما، لان ذلك فى زعمه يقتضى التشبيه، ولم يثبت له سبحانه إلا كونه قادراً فاعلا خالقاً، لأن المخلوق عنده لا يوصف بشىء من ذلك.

وقد استعظم السلف مقالة الجهم وعدوها كفراً شنيعاً، حتى روى عن بعضهم أنه كان يقول «إنا لنحكى كلام اليهود والنصارى ولا نحكى كلام الجهمية».

وقد صنفوا كتباً كثيرة فى الرد على هؤلاء الجهمية، ولفظ الجهمية عندهم كان يتناول كل فرق المعطلة من جهمية وفلاسفة وأشعرية ومعتزلة.

وقد جمع هذا الخبيث بين الشناعات الثلاث: التعطيل والجبر والارجاء أما التعطيل فقد ذكرناه وأما الجبر فإنه كان يقول إن الإنسان لا يقدر على شىء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور فى أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار؛ وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات. والثواب والعقاب جبر كما ان الأفعال كلها جبر والتكليف أيضاً جبر.

وأما الإرجاء فقد كان يرى أن الإيمان هو المعرفة، فمن أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده، لان العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد فهو مؤمن، والإيمان عنده لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وآحاد أمتهم على نمط واحد؛ إذ المعارف لا تتفاضل والمعارف واجبة قبل ورود السمع.

وهكذا صار الجهم بهذه الضلالات الثلاث رأس فتنة كبرى لمن جاءوا بعده من فرق الزيغ والضلال الذين جروا فى مضماره وتعلقوا بأذياله؛ وكانت حماقاته هذه كفيلة أن تكسر منجنيق التوحيد لولا قيام السلف رحمهم الله بدحض مفترياته والذب عن حمى الدين القويم.

فرقة من علماء الكلام تنتسب إلى رجل يقال له (واصل بن عطاء الغزال) كان تلميذاً للحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والأخبار، ثم اعتزله لسبب ما وعمل له حلقة بالمسجد يقرر فيها آراءه. فسمى هو وأصحابه بالمعتزلة، وكان من أشهر تلاميذه رجل يقال له (عمرو بن عبيد).

وقد اشتهر المعتزلة بالغلو فى تقديس العقل واعتباره المصدر الأول للاعتقاد، وهم لا يترددون فى تأويل ما يرونه من النصوص متعارضاً مع حكم العقل، لأن حكم العقل قطعى فى زعمهم، وأما النصوص فدلالاتها ظنية.

والمعتزلة كلهم — على تعدد فرقهم ومدارسهم — متفقون على خمس مبادىء أساسية لا يكون معتزلياً عندهم إلا من أخذ بها وهى: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين. والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والذى يعنينا هنا من هذه المبادىء هو المبدأ الأول وهو التوحيد فإن هؤلاء المعتزلة قد فهموا التوحيد بأنه وحدة الذات، بأن لا يكون لها صفات قديمة زائدة عليها، وعللوا ذلك بأن أخص صفات الألوهية هو القدم فلو كان للذات صفات قديمة معها للزم أن تكون آلهة فيتعدد الإله.

وإذا كان الله عز وجل قد كفر النصارى لقولهم بآلهة ثلاثة فكيف بمن أثبت سبعة أو ثمانية أو أكثر؟

وهكذا عطل المعتزلة الذات عن صفاتها بهذه الشبهة الواهية، وكان منشأ غلطهم هو قولهم إن أخص صفات الألوهية هو القدم ولو سلم فإن الصفات لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم بالذات وقدمها تابع لقدم الذات، فلا يلزم من قدمها تعدد الآلهة والنصارى إنما كفروا لإثباتهم ثلاثة آلهة مستقلة منفصلا بعضها عن بعض. ولكنا نقول إن الله بجميع صفاته إله واحد، فلا غيرية فى الوجودين الذات والصفات.

الفلاسفة

هم فرقة نظرت فى كتب فلاسفة اليونان كارسطو وأفلاطون وأفلوطين الاسكندرى فآمنوا بما فيها من خزعبلات ظنا منهم أن هؤلاء الفلاسفة لا يخطئون لأنهم يجرون فى بحثهم على مقتضى البرهان، ثم حاولوا عبثاً وتزلفا إلى المسلمين وسترا لزندقتهم أن يوفقوا بين هذه الفلسفة، وبين عقائد الدين، فأخذوا يتلاعبون بالنصوص يريدون تأويلها بما يوافق فلسفتهم العفنة فضلوا ضلالا بعيدا، وقد انبرى كثير من العلماء للرد عليهم، والكشف عن تلبيساتهم لا سيما الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) وشيخ الاسلام (ابن تيمية) فى (منهاج السنة) و(الموافقة بين المعقول والمنقول).

والفلسفة الإلهية لهؤلاء تقوم على أن أخص خصائص الألوهية هو وجوب الوجود بالذات، ولهذا يهتمون بإثبات أن لا واجب وجود إلا الله وواجب الوجود عندهم لابد أن يكون واحدا بسيطا لا تكثر فيه لاذهناً ولا خارجا ولهذا نفوا كالمعتزلة جميع الصفات الوجودية ولم يثبتوا إلا سلوبا وإضافات. بل إن كلامهم فى هذا الباب ينتهى كما يقول ابن تيمية رحمه الله — إلى إثبات وجود مطلق لا تعين فيه ومعلوم أن الوجود المطلق لا وجود له فى الأعيان بل فى الأذهان ومعنى هذا أن كلامهم يؤول إلى نفى وجود الواجب وجعله أمراً تقديرياً صرفا.

وهكذا أفسد هؤلاء الفلاسفة كإخوانهم المعتزلة معنى التوحيد وحصروه فى مدلولات اصطلاحية بعيدة عما يفهم من نصوص الدين.

وهم من جهة أخرى لا يقرون بتوحيد الربوبية الذى كان يقر به المشركون فإن الله عندهم ليس خالقاً للعالم ولا مدبراً له بل ولا يعلم ما يجرى فيه من حركات وأحداث، وإنما ينسبون الخلق والتدبير إلى ما يسمونه (العقل الفعال) أو عقل القمر، فأثبتوا واسطة فى الخلق، كالتى أثبتها المسيحيون، والصابئة والديانات الشركية الوثنية.

الاشعرية

هم أتباع أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المولود بالبصرة سنة ٢٦٠هـ والذى كان تلميذا لأبى على الجبائى رئيس معتزلة البصرة ثم خالفه وأعلن براءته من مذهب الاعتزال.

والمعروف عن هؤلاء الأشاعرة أنهم يثبتون لله سبع صفات يسمونها صفات المعانى وهى العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام.

وهى عندهم صفات أزلية قائمة بذاته تعالى زائدة عليها.

وأما ما وراء ذلك من الصفات الخبرية التى وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، كالوجه واليد، والعين والاستواء والنزول والمجىء والإتيان والغضب، والرضى والمحبة والكراهية ونحوها فكان أبو الحسن وتلامذته كأبى بكر الباقلانى وابن مجاهد يثبتونها كما يدل على ذلك ما بأيدينا من كتبهم التى لا شك فى نسبتها إليهم.

بل إن أبا الحسن يؤكد دائماً أنه على مذهب الإمام الفاضل والرئيس الكامل، ناصر السنة، وقامع البدعة، أحمد بن حنبل الشيبانى) رحمه الله.

والمعروف أن من اشتغل بتأويلها من الأشاعرة هو (ابن فورك) فى كتابه (التأويلات) ثم تبعه على ذلك متأخرو الأشعرية كإمام الحرمين والغزالى والرازى والحليمى والآمدى وابن عقيل وابن الجوزى وغيرهم، وقد ضل فى هذا الباب كثير من فضلاء الأشاعرة الذين كان لهم قدم راسخة فى العلم والعبادة وحفظ السنة كالنووى والعز بن عبد السلام وغيرهما.

ومن العجيب أن هؤلاء الأشاعرة يرون أن أخص خصائص الألوهية هو الانفراد بالخلق والاختراع ولهذا اهتموا فى كتبهم بإقامة البراهين على ذلك كالذى يسمونه ببرهان (التمانع) ومعلوم أن الانفراد بالخلق هو توحيد الربوبية الذى كان يقر به المشركون أما التوحيد الأهم والأعظم وهو توحيد الإلهية فإنهم لا

يهتمون به ولا يوجد له ذكر فى كتبهم، ولعل هذا هو السر فى انخراط كثير منهم فى بدع التصوف. واقرارهم للوسائل الشركية التى ترتكب عند أضرحة المشايخ المقبورين.

« الصـــوفيـــة »

هم جماعة زعموا أنهم يريدون سلوك الطريق إلى الله عز وجل ولكنهم بدلا من أن يسلكوا طريق الكتاب والسنة الذى لا طريق إلى الله غيره راحوا يشرعون لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله و يضعون لأنفسهم قواعد للسلوك تقوم على الزهد والحرمان، ورياضة النفس ومجاهدة الشهوات، ولما وجدوا أن النهج الإسلامى القائم على الاعتدال والتكامل ومحاربة الغلو والتطرف لا يشبع نزعاتهم السلبية الغالبية راحوا يطوفون بالمذاهب والديانات المختلفة و يقمشون منها فأخذوا من البوذية والنصرانية والصابئة والمانوية والغوصية وادعوا لأنفسهم أحوالا وواردات ومواجد وأذواقا، لا يعرفها الدين، وتكلموا فى كل ذلك بما يشبه الألغاز، وما زال الشيطان بهم يصور لهم من الخيالات ما لا حقيقة له حتى أوقعهم فى القول بالحلول ووحدة الوجود، وأفضى بهم إلى القول بالجبر وبطلان التكليف والتسوية بين الطاعات والمعاصى والإيمان والكفر بدعوى شهود الربوبية فى كل موجود.

وكما غلا الشيعة فى تقديس أئمتهم واعتقاد عصمتهم غلا هؤلاء الصوفية فى تقديس شيوخهم ووجوب الانقياد لهم فى كل ما يأمرون به ولو كان فعل معصية أو تحريم حلال، فاتخذوهم بذلك أربابا كما اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ونحلوهم من الكرامات فى الحياة وبعد الممات ما ألحقهم بأبطال الأساطير وآلهة الأغريق. بل هم أشد تقديساً لهم بعد موتهم منهم فى حياتهم حيث يحجون إلى أضرحتهم يقيمون عندها المهرجانات و يذبحون القرابين و يقدمون النذور، و يطيفون بهذه الأضرحة مستغيثين متضرعين معتقدين

أن هؤلاء الموتى أحياء فى قبورهم، بل إن الواحد منهم ليكون فى بلده و يدعو شيخه حياً أو ميتاً، و بينه و بينه آلاف الأميال، ولا يمكن فى مثل هذه العجالة الضيقة الكشف عن كل مخازى هذه الطائفة وفضائحها، ولكنى أحيل القارىء على كتاب جد نفيس، وهو كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزى. وكذلك كتب زميلنا الفاضل الشيخ عبدالرحمن الوكيل الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية، فله فى هذا الميدان ركضات وجولات نصر الله بها الحق وقمع بها كيد هؤلاء المشعوذين.

الفرق التي تكلمت في أصول الديانات

وقد تكلمت فِي أصول الديانات فرق مختلفة الاتجاه، وهي تنقسم إلَى قسمين:

* **القسم الأول:** وهي الفرق الَّتِي تكلمت فِي الديانات وهي لا تنتسب إلَى ملة الإسلام، وأهمها:

١- اليهودية. ٢- النصرانية. ٣- الدهرية.

٤- الثنوية "هم القائلون بالأصلية: النور والظلمة".

٥- المجوسية "وهم عباد النار".

٦- الصابئة. ٧- الهندوكية. ٨- البوذية.

٩- الزنادقة "وهم طوائف من القرامطة الباطنيين.

١٠- الفلاسفة بِجميع فرقهم "وهم عشاق الحكمة فِي زعمهم؛ لأن لفظة "فيلو" معناه: مُحب الحكمة، ويسمون كبارهم: الحكماء، بينما يسمون بقية الناس: عوامًّا ولو كانوا أهل العلم والمعرفة".

هذا هو اصطلاح الفلاسفة وهم قوم أنانيون كما ترى.

* **القسم الثاني:** وهي الفرق الَّتِي تكلمت فِي الديانات وهم ينتسبون إلَى الإسلام.

إذا تحدثنا بإيْجاز عن بعض الفرق الَّتِي تكلمت فِي الديانات وهم

لا ينتسبون إلَى ملة الإسلام؛ فلنتحدث بإيْجاز أيضًا عن الفرق المنتسبة إلَى الإسلام.

وأما المسلمون؛ فقد كانوا مُجتمعين ومتفقين غير متفرقين فِي أصول دينهم، وقد مضى عصر الصحابة وهم على ذلك، لا يعرفون للاختلاف فِي العقيدة وأصول الدين معنى أبدًا، بل كانوا أمة واحدة.

روى أبو عبيد الله الحاكم عن الأوزاعي -وهو من كبار أئمة أتباع التابعين من أقران الإمام مالك بن أنس رحِمهما الله-: "كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله ﷻ فوق عرشه، ونؤمن بِما وردت به السنة من صفاته".

ومِمن روى الإجْماع على هذا المنهج: الإمام مُحَمَّد بن الحسن صاحب أبِي حنيفة، والإمام ابن عبد البر -رحِمهما الله-، بل تفيد جميع المصادر فِي هذا الموضوع أن وضع العقيدة كان مستمرًّا على نَهج موحد من عهد الصحابة إلَى عهد الخليفة السابع من خلفاء بني العباس "المأمون".

وفِي هذا المعنى يقول الإمام البيهقي -رحمه الله-: "ولَم يكن من خلفاء بني أمية وبني العباس خليفة؛ إلا على مذهب السلف ومنها جهم، ولَمَّا تولى المأمون الخلافة؛ اجتمع به هؤلاء المعتزلة؛ فحملوه على نفي الصفات والقول بخلق القرآن" اهـ.

* * * * *

ظهور الفرق

مضى عصر الصحابة الكرام -عليهم رضوان الله-، وهم مُجتمعون على نَهج واحد، وهو العمل بالكتاب والسنة عقيدة وشريعة، وكذلك التابعون الذين ورثوا علم الصحابة.

بيد أنه قد حدث في أواخر أيام الصحابة القول بالقدر. كما ظهرت الخوارج في أيامهم، وتشيعت الشيعة.

هذه الفرق الثلاث ظهرت في أواخر أيام الصحابة في عهد علي ابن أبي طالب ﷺ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

١- الخوارج أو الحرورية

تعتبر فرقة الخوارج أول فرقة ظهرت في أيام الصحابة، وفي عهد علي بن أبي طالب ﷺ بالتحديد، بعقيدتهم الجريئة المتطرفة في الجرأة، واتِّجاههم الشاذ المنفرد، حيث اعتبروا عدم ارتكاب الكبائر أصلاً من أصول الدين والإيْمان؛ فانطلاقًا من ذلك صرَّحوا بكفر مرتكب الكبيرة كفرًا بواحًا ناقلاً من الملة، كما صرحوا بجواز الخروج على الإمام، بل كانوا يعتبرون أنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

❊ قصة خروجهم:

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لما خرجت الخوارج أو الحرورية؛ اجْتمعوا في دار لَهم أو لبعضهم في ضاحية البصرة في مكان يقال له: "الحروراء" وعددهم ستة آلاف مقاتل، وأخذوا يتهيئون للقتال مع علي ﷺ، فطلب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من علي بن أبي طالب الإذن ليخرج إليهم ليحاورهم لعلهم يرجعون إلى الحق، فقال علي لابن عباس: إنِّي أخاف عليك. فقال ابن عباس: كلا.

ثُم قال ابن عباس: فخرجت إليهم وأنا لابس أحسن ما يكون من حلل اليمن.

قال أبو زميل -راوي القصة-: كان ابن عباس رجلاً جَميلاً جهيرًا.

يقول ابن عباس: فخرجت إليهم، وأتيتهم وهم مُجتمعون في دار لَهم بالحروراء، فسلمت عليهم، فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس؛ فما هذه الحلة؟

قال: قلت: ما تعيبون علي؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل، وتلوت عليهم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢].

قالوا: ما جاء بك؟

قلت: أتيتكم من عند صحابة رسول الله ﷺ، من المهاجرين والأنصار؛ لأبلغكم ما يقولون؛ فعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بالوحي منكم، وفيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحد.

فقال بعضهم: لا تُخاصموا قريشًا؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

قال ابن عباس: ورأيت قومًا لَمْ أر قط أشد اجتهادًا منهم، وجوههم من السهر، كأن أيديهم وركبهم تثنى عليهم.

فمضى من حضره، قال بعضهم: لنكلِّمنَّه ولننظرنَّ ما يقول.

قلت: أخبروني ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار؟

قالوا: ثلاثًا.

قلت: ما هنَّ؟

قالوا: إحداهنَّ: فإنه حكم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]. وما للرجال وما للحكم؟!

قلت: هذه واحدة.

قالوا: وأما الأخرى؛ فإنه قاتل ولَمْ يسب ولَمْ يغنم؛ فلئن كان الذين قاتل كفارًا؛ لقد حل سبيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين؛ ما حلَّ قتالهم!

قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟

قالوا: إنه مَحا نفسه من أمير المؤمنين؛ فهو أمير الكافرين.

قلت: أعندكم سوى هذا.

قالوا: حسبنا هذا.

فقلت لَهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ ما يُرَدُّ به قولكم؛ أترضون؟!

قالوا: نعم.

فقلت لَهم: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد ردَّ الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب ونحوها من الصيد، فقال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة:٩٥].

ثم قال: وأنتم تعلمون أن الله لو شاء لحكم ولَمْ يَجعل ذلك إلى الرجال.

وفي المرأة وزوجها قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء:٣٥].

فجعل حكم الرجال سنة مأمونة، أخرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

قال: وأما قولكم: قاتل ولَمْ يسب ولَمْ يغنم؛ أتسبون أمكم عائشة، ثُم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ ولئن قلتم: نعم؛ كفرتم، وهي أمكم، ولئن قلتم: ليست أمنا؛ لقد كفرتم؛ فإن الله يقول: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]. فأنتم تدورون بين الضلالتين: أيُّهما صرتم إليها؛ صرتم إلَى ضلالة.

فنظر بعضهم إلى بعض.

قلت: أخرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

قال: وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين؛ فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم، قد سَمعتم أن النَّبي ﷺ قال لأمير المؤمنين: «**اكتب يا عليُّ: هذا ما اصطلح عليه مُحَمَّد رسول الله**، فقال المشركون: لا والله ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله؛ ما قاتلناك. فقال رسول الله ﷺ: **اللهم إنك تعلم أني رسول الله، اكتب يا عليُّ: هذا ما اصطلح عليه مُحَمَّد بن عبد الله**». فوالله لرسول الله خير من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه.

قال ابن عباس: فرجع من القوم ألفان، وقُتِلَ سائرهم على ضلالته[1].

قال الحاكم: "هذا حديث على شرط مسلم، ولَمْ يُخرجه"اهـ.

وعلى الرغم من ذلك؛ فقد دخل في دعوة الخوارج خلق كثير، ورمي جَماعة من أئمة الإسلام بأنَّهم ذهبوا مذهب الخوارج، وعدَّ منهم غير واحد من رواة الحديث كما هو معروف عند أهله.

هكذا يفعل سوء الفهم وعدم التريث وقلة البصيرة بأهله.

وقد ظن الخوارج أنَّهم على شيء فيما ذهبوا إليه عندما خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقاطعوا المهاجرين والأنصار الذين نطق بهم القرآن وبه نطقوا، وقام بهم القرآن وبه قاموا، وهم خير هذه الأمة، حَتَّى حاورهم حبرُ الأمة وترجمان القرآن بما رزقه الله تعالى من الفقه في الدين، وأثبت لَهم خطأهم بما ساق من الأدلة من الكتاب والسنة؛ فقد تاب على يده عدد لا يستهان به، ألفان من ستة آلاف مقاتل يتهيئون لخوض المعركة، ولكن الله سلَّم، حيث تاب الله عليهم فتابوا، وهلك الباقون بعد إقامة الحجة عليهم بالأدلة الَّتي ساقها ابن عباس رضي الله عنهما، الذي بذل لَهم من النصح والإرشاد والدعوة إلَى الحق بالأسلوب الذي ذكرنا.

* * * * *

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/١٦٤).

٢- الشيعة

الشيعة: من الفرق الَّتي ظهرت في أواخر أيام الصحابة، وفي عهد الإمام علي ﷺ بالتحديد، والَّتي بدأت غلوها بحب علي بن أبي طالب والتشيع له إلَى حد المبالغة، والَّتي انتهت ببعضهم إلَى تأليهه وعبادته، ممَّا حدا بعليٍّ إلَى إحراق جَماعة منهم بالنار، حيث لَمْ يَجد بدًّا من ذلك؛ إذ لَمْ يؤثر فيهم الإنكار الشديد والمتكرر فأنشد علي في ذلك قائلاً:

لَمَّا رأيت الأمر أمرًا منكرًا ... أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد انتهز هذه الفرصة -فرصة تشيع الشيعة والغلوِّ في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ- يَهودي خبيث يدعي عبد الله بن وهب بن سبأ، وهو من اليهود الذين كانوا بصنعاء باليمن؛ فأخذ يؤجج نار الفتنة بين المسلمين، وأحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بالإمامة من بعده، وأنه خليفته على أمته بالنص؛ كما أحدث القول بالرجعة، أي: برجعة الإمام علي ﷺ بعد موته إلى الدنيا، بل زعم أن عليًّا لَمْ يقتل، بل لا يزال حيًّا، بل لا يمكن أن يَموت؛ لأنه فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يأتي من السحاب، فيكون الرعد صوته ... إلَى آخر تلك الخرافات الَّتي تحكيها بعض مصادر القوم ومن تأثروا بهم، حتَّى عرفت هذه العقيدة

عندهم بعقيدة الرجعة، أحدثها اليهودي ابن سبأ كيدًا للإسلام والمسلمين، بعد أن ادَّعى أنه مسلم، وأنه متشيع لآل البيت، ومُحب لَهم، وأما آل البيت الطيبون؛ فبريئون منه، ثُم تبنى هذه العقيدة الفاسدة الروافض، وابن سبأ مصدر كل عقيدة منحرفة ترددها الروافض اليوم.

هذا؛ والكلام حول هذه الفرقة طويل الذيل، وقد كتبت فيهم كتابات كثيرة، وكلها أو جلها معاصرة؛ لذا أرى أن أكتفي بهذه الإشارة، اكتفاء بما كتب، حيث إنِّي لن آتي بجديد.

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه هنا أن الشيعة بجميع فرقها على عقيدة الاعتزال في باب الأسْماء والصفات. والله أعلم.

* * * * *

٣- القدرية

ومن الفرق الَّتي ظهرت في أيام الصحابة -رضوان الله عليهم- القدرية.

فإذا أطلقت القدرية؛ فالمراد بها نفاة القدر، وهم أتباع معبد الجهني.

وقد تطلق هذه اللفظة أحيانًا على الغلاة في إثبات القدر، والذين بلغ بهم من الغلو في القدر إلى القول بأن العبد مَجبور على أعماله الاختيارية، يفعلها دون اختياره، بل لا قدرة له على أعماله، وهم المعروفون بالجبرية، وقد يطلق عليهم اسم القدرية.

نادى معبد الجهني بعقيدة القدرية لأول مرة في البصرة في أواخر أيام الصحابة، فنفى علم الله السابق وكتابه ومشيئته العامة، وصرح بأن الله لَمْ يعلم المقادير إلا بعد وقوعها، فضلاً عن أن يكتبها أو يشاءها، بل العباد يستأنفون أعمالَهم من عند أنفسهم، أي يعملونَها دون علم من الله بتلك الأعمال؛ إلا بعد أن يحدثها العباد، فلا تعد أفعال العباد من مقدورات الله ﷻ، وإنَّما يَختلفون: هل الله قادر على مثل أعمالِهم أم لا؟ وهكذا بالغوا في نفي القدر، كما بالغوا في إثبات قدرة العبد، حتَّى جعلوه خالقًا من دون الله ﷻ، حيث يستقل كل عبد بخلق أفعاله دون أن تتدخل قدرة الله في أفعاله الاختيارية.

وهذه عقيدة شاذة ومنكرة عقلاً وشرعًا ومنطقًا، وهي فكرة

دخيلة؛ لأن معبدًا الجهني الذي أظهرها إنَّما أخذها من شخص مَجهول يقال له: أبو يونس الأساوري، فتبناها معبد وعظمت به الفتنة في البصرة وما جاورها؛ فعذَّبه الحجاج ابن يوسف الثقفي بأمر من عبد الملك بن مروان الأموي، وكان ذلك سنة ثَمانين من الهجرة.

❊ موقف بعض الصحابة الذين حضروا هذه البدعة:

ولما ظهرت بدعة القدرية؛ بادر علماء السلف من الصحابة والتابعين إلَى إنكار بدعة القدرية، والتحذير منها، والتبرؤ منها ومن أهلها، وذموها، وبينوا للناس خطورتَها على الإيْمان بالله تعالى؛ لأن الإيْمان بالقدر نظام التوحيد، ومن كفر بالقدر؛ فقد نقض توحيده.

هذا، وذكرت بعض مصادر التاريخ والسير أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لما بلغته مقالة معبد الجهني؛ تبرأ منه ومن قولته المنكرة، وأعلن ذلك للناس، ونقل مثل ذلك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، بل تَمنى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن لو تَمكن من أحد منهم، حتَّى يُدخِل رقبته في يده، فيدقها حتَّى الموت، أو يَجدع أنفه على الأقل، وكان يومئذ قد عمي، كلُّ ذلك غيرة منه على دين الله وعلى عقيدة المسلمين الَّتي أخذت -لأول مرة- تتعرض للأفكار الشاذة.

وقد وردت آثار وأحاديث مرفوعة في ذم القدرية وأنَّهم مَجوس هذه الأمة، بل هم أسوأ حالاً وأردأ، حيث يثبتون خالقين كثيرين؛ إذ كل عبد من الجن والإنس والملائكة يخلق أفعال نفسه الاختيارية في زعمهم الفاسد.

والقدرية بالمفهوم المعاكس -الجبرية- تَجعل العبد مَجبورًا ومدفوعًا إلَى الأعمال من خير أو شر، ثُمَّ يُجازى خيرًا أو شرًّا، وهي ضلالة أخرى.

والصواب وسط بينهما، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو أنه لا خالق إلا الله؛ فالعبد وأعماله مَخلوقات لله، والعبد يأتي عمله باختياره، ويذرها باختياره، وهذا سر التكليف ومناط الجزاء خيرًا أو شرًّا، والعلم عند الله، والمسألة مبسوطة فِي موضع آخر.

٤- الجهمية

وبعد عصر الصحابة، فِي أوائل المائة الثانية، حدث مذهب الجهمية.

وأول من أحدثه الجعد بن درهم، حيث سُمع منه لأول مرة فِي الإسلام القول بأن الله "لَمْ يتخذ إبراهيم خليلاً، ولَمْ يكلم موسى تكليمًا".

فأفتى علماء التابعين بكفره؛ لتكذيبه كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فطورد حَتَّى قبض عليه، ثُم أخذ إلى مصلَّى العيد يوم عيد الأضحى، فذبح فِي المصلَّى على رءوس الأشهاد؛ ليكون عبرة لغيره، مِمَّن تسوِّل له نفسه مثل قوله، حيث خطب خطبة العيد أمير العراق والمشرق خالد القسري، وقال فِي آخر خطبته -رحِمه الله-: "أيها الناس! ضحوا، تقبل الله ضحايكم؛ فإنِّي مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ لأنه زعم أن الله لَمْ يتخذ إبراهيم خليلاً، ولَمْ يكلم موسى تكليمًا"، ثُم أمر بذبحه فذبح، وكان ذلك بإجْماع من علماء السلف، فجزى الله خالدًا القسري وعلماء التابعين خير الجزاء على صنيعهم الناصح.

وقبل أن يهلك الجعد أخذ عنه هذه العقيدة جهم بن صفوان، فأظهرها ودعا إليها حَتَّى انتشرت، ولذا أضيفت إليه دون الأول، فقيل: العقيدة الجهمية.

وإذا أردنا أن نعرف سند هذه العقيدة الجهمية؛ فإن جعدًا أخذها عن أبان بن سَمعان عن طالوت ابن أخت لبيد الأعصم اليهودي الساحر

الذي سحر النَّبي ﷺ.

هذا سندها كما ذكر غير واحد من أهل العلم.

ومن هنا تعلم أن الجهمية يَهودية السند كما رأيت؛ فكيف يطيب المسلم نفسًا أن يدين بعقيدة ينتهي سندها إلَى اليهودية؟!

وعلى كلٍّ؛ فإن جهمًا قد أخذ يدعو إليها ويناظر دونَها، حتَّى عظمت به الفتنة، وأخذ يشكك كثيرًا من الناس فِي صفات الله تعالى؛ إذ كان ينفي جَميع صفات الكمال -وصفات الله كلها كمال- جُملة وتفصيلاً، فأوهم الناس أن إثبات الصفات يتنافى والتنْزيه، وأورد على الناس شبهات مشككة.

كان يقول: إن إثبات الصفات والأسْماء لله تعالى إنَّما يعني تعدد القدماء ولا قديْم إلا الله.

وجواب هذه الشبهة: أن الله قديْم بأسْمائه وصفاته، وصفات الله وأسْماؤه ملازمة لذاته سبحانه ولا تنفك عنه، ولا يسمى هذا تعدد القدماء، وإنَّما ذلك لو قيل: إن هناك ذاتًا أو ذوات غير الله، وهي قديمة قدم الله تعالى؛ فليفطن لذلك.

وتعتبر فتنة الجهمية فِي باب الأسْماء والصفات أول فتنة عرفت فِي تاريخ العقيدة؛ إذ كانت فتنة القدرية فِي نفس القدر فقط، دون خوض فِي الصفات؛ بيد أنَّها انضمت إلَى عقيدة المعتزلة أخيرًا، وكانت فتنة الخوارج فِي باب أسْماء الإيْمان فِي أول أمرها، وإن كانوا قد اعتزلوا أخيرًا، وفتنة الشيعة فِي الغلو فِي آل البيت فِي أول الأمر، ثُم تأثروا

بعقيدة المعتزلة أيضًا، كل ذلك أيام نشاط المعتزلة فِي عهد المأمون العباسي؛ كما سيأتي تفصيل ذلك -إن شاء الله تعالى-.

وأما بدعة الجهمية وفتنتها؛ فقد أنكرها علماء أهل السنة أشد الإنكار، وضللوا أهلها، وحذروا الناس من مُجالستهم، بل عابوا على من جالسهم، وكتبوا فِي الرد عليهم كتبًا ورسائل، وهي معروفة لدى طلاب العلم.

ومِمَّا ينبغي التنويه به أن الجهمية وإن كانت فِي الأصل اسْمًا أو لقبًا للعقيدة الَّتي دعا إليها جهم وأتباعه؛ إلا أن علماء السلف أطلقوا هذا اللقب فيما بعد على كل من ينفي صفات الله تعالى أو بعضها، فيطلق هذا اللقب على المعتزلي والأشعري ومن شابَههما فِي نفي صفات الله كلها أو بعضها.

* * * * *

٥- المعتزلة

وبينما أهل السنة في مكافحة التجهُّم والتحذير منه؛ حدثت فتنة أخرى قريبة من فتنة الجهمية، وهي عقيدة الاعتزال.

وقد حدثت عقيدة الاعتزال في أيام الإمام الحسن البصري التابعي المعروف؛ إذ كان واصل بن عطاء زعيم الاعتزال من جلساء الإمام الحسن، ولكنه اختلف معه في مسائل في العقيدة، فاعتزل مَجلسه في المسجد الذي يدرس فيه الحسن، ولَمْ يذهب بعيدًا عن المسجد، وباعتزاله مَجلس الحسن؛ اعتزل المسلمين في عقيدتهم، وأطلق عليه وعلى أتباعه أنَّهم معتزلة.

وتذكر بعض المصادر أسبابًا أخرى لهذه التسمية، ولا منافاة بين تلك الأسباب، ولا طائل من ذكرها وتعدادها.

فزعمت المعتزلة أنَّهم يثبتون أسْماء الله تعالى مع نفي صفاته سبحانه، ولكن دون أن تدل على معانيها، وهو إثبات لا ينفعُهم شيئًا، بل هم متناقضون في هذا الإثبات الصوري، فإذا كان إثبات الصفات يؤدي إلَى تعدد القدماء على حد زعمهم إن قيل إن صفاته قديمة قدم الذات، أو يؤدي إلَى القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى إن قيل إنَّها حادثة؛ فهلاَّ لزم هذا المحظور من إثبات الأسْماء كما لزم من إثبات الصفات؟! أو هلاَّ انتظم هناك ما انتظم هنا؟! لأن الباب واحدٌ.

هكذا يتورط في التناقض كل من يتبع هواه واستحسان عقله القاصر

أو عقول الشيوخ معرضًا عن كتاب الله المبين وسنة رسوله الأمين ﷺ.

فالكتاب والسنة يثبتان صفات الله تعالى على ما يليق بالله ﷻ، وعقول المعتزلة تأبَى وتنفي! ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

وقد انفردت المعتزلة بتطوير مذهبها دون سائر الطوائف، حيث زعموا وجوب التزام الأصول الخمسة الَّتي ابتدعوها، والَّتي ما أنزل الله بها من سلطان، ولكن؛ بعد أن أطلقوا عليها ألقابًا مقبولة عند سَماعها قبل أن يعرف تفسيرها.

*** الأصول الخمسة عند المعتزلة:**

فلنورد أسْماء تلك الأصول المبتدعة الَّتي أشرنا إليها، والَّتي عارضوا بها أصول الإيْمان عند أهل السنة:

*** الأصل الأول: التوحيد:**

ومعناه عندهم نفي الصفات كما هو مفصل فيما بعد. بل وقد تقدم طرف من عقيدتهم.

*** الأصل الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

فاستباحوا بناءً على الأصل الأول الفاسد في معناه الخوض في أعراض صحابة رسول الله ﷺ، والتعرض والخوض فيما جرى بينهم من الأمور الاجتهادية الَّتي سببت الخلاف بينهم، بل ربَّما أدت إلَى القتال أحيانًا، ولقد كان موقف أهل السنة في هذا المقام -بل في كل مقام- شريفًا ونزيهًا ومنصفًا، حيث لَمْ ينحازوا إلَى جهة أو وجهة معينة بالهوى كما فعل غيرهم، بل قالوا قولتهم المشهورة: "وحيث صان الله رماحنا من دمائهم؛ فيجب علينا أن نصون ألسنتنا وأقلامنا من أعراضهم"، بل إنَّما كان قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

﴿وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠].

وفي هذا المعنى يقول أحمد بن رسلان الشافعي في منظومته المعروفة بـ"الزبد":

وما جرى بين الصحاب نسكت ... عنه وأجر الاجتهاد نثبت

هذا؛ وقد استباح المعتزلة بناء على أصلهم ذلك الخروج على الأئمة كما فعلت الخوارج من قبل، بل هُما طائفتان متقاربتان في بعض أفكارهما كما لا يَخفى.

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه أن هذه المسألة من المسائل الَّتي وافقت فيها الأشاعرة أهل السنة، وهي مسائل معدودة؛ كما سيأتي إن -شاء الله تعالى-.

❊ الأصل الثالث: القول بالمنزلة بين المنزلتين:

في مرتكب الكبيرة أي أنه يَخرج من الإيْمان ولا يدخل في الكفر، وهي منْزلة وهمية، لا وجود لَها في الواقع؛ لأن القسمة ثنائية: إما كفر وإما إيْمان، ولا واسطة بينهما؛ فمرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيْمان، ويوصف بأنه فاسق، ولكنه لا يزال في دائرة الإيْمان، وقد صح عن النَّبي ﷺ قوله: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»(١). فلو كان مرتكب الكبيرة كافرًا؛ لما نفعته شفاعة الشافعين؛ حيث يقول الله تعالى في شأن الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

هذا كله في أحكام الدنيا، وأما في الآخرة، فإنَّهم يزعمون أن مرتكب الكبيرة الذي مات قبل التوبة؛ يدخل النار في زعمهم خالدًا

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس ﷺ.

مُخلدًا فيها مع الكفار.

وهذه نقطة اتفاق بينهم وبين الخوارج، فيكون الاختلاف بينهم صوريًّا فقط.

فبناء على هذا الزعم نفوا شفاعة النَّبي ﷺ لأهل الكبائر مُخالفين النصوص الصحيحة الَّتي أشرنا إلَى بعضها آنفًا.

إنه لموقف جريء وجائر كما ترى، وهو داخل في الحكم بغير ما أنزل الله، وذلك كفر؛ كما نطق به الكتاب: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

❊ الأصل الرابع: العدل "ما أحسن هذا الاسم وما أسوأ المسمى":

ومعناه عندهم وجوب الاعتقاد بأنه يَجب على الله ﷻ فعل الأصلح فالأصلح للعباد؛ بحيث لو لَمْ يفعل ذلك؛ يكون ظالِمًا، وهي جرأة أخرى كالتي قبلها، أو هي أسوأ.

❊ الأصل الخامس: وجوب تنفيذ الوعد والوعيد:

فيزعمون أنه يجب على الله أن يثيب المطيع كما وعد، وأن يعاقب العاصي كما أوعد، وهم من جهلهم أو تَجاهلهم لا يفرقون بين خلف الوعد وتأخير الوعيد.

فليس للعباد حقٌ واجبٌ ... عليه ولا سعيٌ لديه ضائعُ

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... ففضله وهو الكريم الواسعُ

فتأخير الوعيد وعدم مؤاخذة المسيء بالإساءة مع القدرة كرم ومنة.

وأما إيفاء الوعد بإكرام أوليائه في دار كرامته وأحيانًا في هذه الدار

نفسها؛ فتفضل وإحسان من الله على عباده.

فليس على الله شيء واجب، هذا هو الذي عليه أهل السنة قديمًا وحديثًا؛ لأن الإيْجاب معناه الإلزام، فمن الذي يلزم الله تعالى بشيء؟!

وهي حقائق لا تَخفى على أهل البصيرة، بل لا يَجهلها إلا من اعتزل ملة المسلمين واتبع غير سبيل المؤمنين وجادل بالهوى، فيصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨].

وفي ذلك الوقت -أي: في المائة الثالثة من الهجرة النبوية- تتعاقب الفتن على المسلمين، فبينما هم في فتنة هوجاء؛ تفاجئهم أخرى فتشتد وطأتُها؛ إذ تظهر فتنة تلو الأخرى.

فظهرت المعتزلة والناس يعانون فتنة الجهمية وإلحادهم ويقاومونها، ظهرت المعتزلة وهي أشد تأثيرًا من غيرها؛ إذ أصبحت مذهبًا رسميًّا أو شبه رسمي، فرفعت صوتَها بنفي الصفات دون أدنى تَحفظ، وبالقول بخلق القرآن، فاستخدمت الجدل المنطقي والأسلوب الفلسفي في دعوتها، فاستطاعت أن تشوش على الناس، مع ما قام به أئمة المسلمين من المقاومة المشكورة، والتنفير والتحذير من مُجالسة أهلها، كما فعلوا من قبل مع الجهمية كما تقدم، فقابلتهم المشبهة بالقول بالتشبيه؛ ليكون ردًّا لتعطيلهم، وهم الكرامية وغيرهم، فشبهوا الله بخلقه في ذاته وصفاته، فزعموا أنهم يريدون بذلك الردّ على نفاة الصفات، وهو باطل؛ لأنه من باب رد الباطل بباطل مثله، فوقع الناس في الشبه كمستغيث من الرمضاء بالنار.

المحنة التاريخية

تَحدثنا فيما أسلفنا عن تأثير المعتزلة في جَميع الطوائف الموجودة آنذاك؛ إذ تبنّتْها كثير من الطوائف عقيدة لَها كما رأينا، بل أوضحنا سبب ذلك؛ إذ كان الخليفة المأمون داعية لَها بكل ما لديه من قوة وسلطة.

فلنتحدث الآن تحت هذا العنوان عن تلك الفتنة المتطرفة الّتي عرفت في التاريخ باسم "محنة خلق القرآن" بإيْجاز دون إطناب؛ خشية الإملال.

وملخص هذه الفتنة: إن جَماعة متطرفة من المعتزلة تَمكنت -كما أسلفنا- من الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، حتَّى أزاغوه عن المنهج السلفي الذي كان عليه الخلفاء من قبله -الأمويون والعباسيون-، وأوقعوه في باطل من العقيدة، فزينوا له القول بخلق القرآن ونفي صفات الله والخوض في جَميع المطالب الإلهية معتمدًا على عقله ومتبعًا هواه بكلّ جرأة، معرضًا عن نصوص الكتاب والسنة، بل مستخفًّا بها، وزاعمًا أنّها لا تفيد العلم، بل مُحاربًا لَها، وهي بدعة لَمْ تُعرف في الخلفاء الذين من قبله؛ كما تقدم.

يقول الإمام البيهقي في هذا المعنى: "ولَمْ يكن في خلفاء بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومنهاجهم، فلما تولى المأمون الخلافة؛ اجتمع به هؤلاء المعتزلة، فحملوه على نفي الصفات والقول

بخلق القرآن" اهـ. كما تقدم.

وكل الذين تحدثوا عن المحنة يتفقون على أن الخليفة المأمون أُتي من قبل بطانة السوء من كبار المعتزلة فيما تورط فيه، وحَمل الناس عليه بالقوة دون فتح لباب الحوار الحر والأخذ والردِّ والمناقشة الهادفة؛ كما هو المتوقع في مثل هذه المسائل العلمية والفكرية، بل نصب المأمون نفسه داعية لا يرد له قول ولا يعصى له أمر.

وفي حدود سنة ثمانية عشرة ومائتين كتب المأمون إلَى نائبه والى بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلَى القول بخلق القرآن!

هكذا! بهذه الجرأة! ودون مقدمة أو تمهيد! ولَمْ يسع الوالي إلا الامتثال، فجمع عددًا من العلماء من أئمة الحديث والقضاة والفقهاء، فعرض عليهم كتاب الخليفة، وبلَّغهم رغبته، ودعاهم إلَى القول بخلق القرآن، مع نفي صفات الله، وأنه تعالى لَمْ يتخذ إبراهيم خليلاً ولَمْ يكلم موسى تكليمًا.

فامتنع العلماء امتناعًا مطلقًا عن هذا الأمر العظيم، فأخذ يُهددهم بالضرب -وهم علماء الأمة-، ويقطع المرتبات بالنسبة لمن لَهم مرتبات من الدولة، فاختلفوا: منهم من أظهر الموافقة ظاهرًا ومكرهًا وقلبه مطمئن بالإيمان إن شاء الله، ومنهم من أصرَّ على الامتناع، وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-، الذي وقف عند

قوله، وثبت على عقيدته، ولَمْ يؤثر فيه التعذيب والتنكيل، ولَمْ تأخذ بقلبه تلك الفتنة، بل لَمْ يبال سلطان الخليفة وقوته وتهديدات واليه إسحاق بن إبراهيم.

تذكر بعض مصادر التاريخ أن الخليفة المأمون توفي بطرطوس قبل أن يصل إليه الإمام أحمد وهو مَحمول إليه، ولما توفي الخليفة؛ رُدَّ الإمام إلَى بغداد، ثُم تولى الامتحان والتعذيب المعتصم بالله -الخليفة الثامن-؛ إذ أصبح القول بخلق القرآن والدعوة إلَى ذلك جزءًا من سياسة الدولة العباسية في هذا العهد، يرثه اللاحق من السابق، ثُم استمر الوضع هكذا أيام الواثق بالله. وهو الخليفة التاسع من خلفاء بني العباس، وبانتهائه انتهت الفتنة الهوجاء.

وبقي الإمام أحمد بعد الخلفاء الثلاثة -خلفاء الاعتزال- الذين ماتت معهم المحنة؛ إذ تولى الخلافة بعد الواثق بالله المتوكل، فأعلن رفع المحنة، فشرع الإمام أحمد في نشر السنة الَّتي عذب من أجلها وفي سبيلها، فرفع صوته بنصوص الصفات من جديد بعد أن كانت مهجورة وممنوع ذكرها؛ إذ أتى الله بالفرج.

وهكذا انتهت تلك الفتنة الَّتي عرفت بـ"المحنة"، فجدَّد الإمام أحمد دعوته السلفية الَّتي عرفت بعد ذلك بـ"الحنبلية" نسبة إليه -رحمه الله- وتقبَّل منه جهاده وتجديده، ولذا لقبه أهل عصره "ناصر السنة وقامع البدعة"، وعرف بعد ذلك بإمام أهل السنة والجماعة، وحق له ذلك.

وبمناسبة انتشار آراء أهل البدع الَّتي تُحاول التشنيع على أهل السنة؛ إذ ترميهم بالتشبيه والتجسيم، أو أنَّهم مفوضة التفويض المطلق؛ بهذه المناسبة ولهذا السبب صرح الإمام أحمد تصريحات أوضح فيها موقفه وموقف جَميع أهل السنة من نصوص الصفات، وذلك فيما يرويه ابنهُ عبد الله بن أحمد.

إذ يقول -رحمه الله ورضي عنه-: "هذه الأحاديث نرويها كما جاءت".

ويقول أيضًا: "إن ما يرجع إلَى عالم الغيب لا ينبغي الخوض فيه، وإنَّما نفوِّض أمره إلَى الله".

ويعني بالتفويض قطعًا تفويض الكيفية والكنه وحقائق الصفات لا تفويض المعنى، وهو أمر لا يَختلف فيه اثنان من أهل السنة والجماعة قديْمًا وحديثًا.

ومن كلامه -رحمه الله-: "من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلَى الله" كما جاءت الأحاديث عن النَّبي ﷺ: «إن أهل الجنة يرون ربَّهم ﷻ»[1]. فيصدقها، ولا يضرب لَها الأمثال.

وأحاديث الرؤية الَّتي أشار إليها الإمام أحمد هنا قد بلغت التواتر؛ فليرجع فِي ذلك إلَى كتاب "**حادي الأرواح إلَى بلاد الأفراح**" للعلامة ابن القيم.

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

٦- القرامطة

ومن الطوائف الضالة: القرامطة، الَّتي ظهرت فِي أثناء نشاط الفرق.

القرامطة الباطنية متفرعة من الروافض، ظهرت القرامطة أول ما ظهرت بالكوفة، ثُمَّ انتشرت فِي العراق والشام وغيرهُما من البلدان المجاورة، فصرَّحوا بتأويل -تَحريف- الشرعية كلها، وأنَّها ليست على ظاهرها، بل لابدَّ من صرف ظواهرها!

وهكذا تتابعت الفتن والبدع فِي هذا الوقت، ولكنَّ الذي جعل مذهب المعتزلة يشتهر ويقوى حتَّى تأثرت به أكثر الطوائف والفرق هو ما حصل من مؤازرة قوية ورسْمية، حيث أثرت المعتزلة على فكر الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، فتبنَّى المذهب، ودعا إليه، ثُمَّ تبعه بعد موته الخليفة الثامن المعتصم بالله، ثُمَّ الواثق بالله، وهو تاسعهم.

وقد كان المأمون شغوفًا بكثرة الاطِّلاع على العلوم القديْمة من فلسفة الأمم السابقة، فترجمت له كتب كثيرة من تلك العلوم، فبادرت المعتزلة إلَى دراستها، وتأثرت بِها، ثُمَّ انتهزت فرصة شغف الخليفة بالمعرفة والمدارسة، فقربوا منه، بل تَمكنوا منه، وتملقوا له، حتَّى صاروا من بطانته والمقربين إليه، فزيَّنوا له القول بِخلق القرآن ونفي الصفات، مستخدمين الفلسفة الَّتي جلبها هو، فكثرت كتب الفلسفة فِي أيدي

الناس، وأقبلت جَميع الطوائف عليها من الجهمية والمعتزلة والرافضة والقرامطة وغيرهم، وانجَر من ذلك على الإسلام والمسلمين ما لا يوصف من البلاء والضلال والبدع.

وهكذا انتشر مذهب الاعتزال بين الطوائف، حَتَّى إن الشيعة اتَّخذت مذهب الاعتزال عقيدة لَها مع تشيعهم؛ ولذا؛ تَجد أن جَميع فرق الشيعة تدين بعقيدة المعتزلة، بل ذهب إلَى الاعتزال كثير من الفقهاء، على اختلاف مذاهبهم الفقهية، وأكثرهم من الحنفية.

٧- الأشعرية الكُلَّابية

إن الحديث عن الأشعرية يتطلب الحديث أولاً عن أبي الحسن الأشعري،

ولذا نقول: كان أبو الحسن يعيش فِي العراق، وتربَى فِي حجر إمام معتزلِي، هو مُحمَّد بن عبد الوهاب الجبائي، وهو زوج أمه، وهو المعروف بأبي علي الجبائي، وتعلم عليه، ولازمه عدة أعوام؛ كما تفيد مصادر التاريخ وكتب التراجم، حَتَّى صار إمامًا فِي الاعتزال.

فناظر شيخه فِي مسائل علم الكلام، واختلف معه فِي بعض تلك المسائل؛ كالقول بوجوب فعل الأصلح على الله للعباد وغيرها من المسائل، فظهر له بطلان مذهب الاعتزال، فتركه.

ثُمَّ سلك مذهب أبِي مُحمَّد عبد الله بن سعيد بن كلاب بعد النظر فيه والتفكير الطويل؛ إذ رآه خيرًا من مذهب الاعتزال نوعًا ما؛ لأنه يثبت بعض صفات الله تعالى، وهي الصفات العقلية، ثُمَّ إن ابن كُلَّاب لا يقول بوجوب شيء على الله؛ فنهج على منواله، واعتقد عقيدته فِي باب الأسْماء والصفات والقدر، وأثبت أن العقل لا يثبت ولا يوجب المعارف قبل الشرع، وأن العلوم وإن حصلت بالعقل ولكنها لا تَجب إلاَّ بالشرع، وأن الله لا يَجب عليه شيء كما تقدم، بل إن أنعم الله؛ فبفضله، وإن عذب؛ فبعدله؛ كما هو مذهب أهل الحق، وهم السلف،

وأن النبوات من الجائزات العقلية والواجبات الشرعية ... إلَى غير ذلك من المسائل الَّتي خالف فيها شيخه الجبائيَّ.

لِهذا أو لغيره من الأسباب اختار أبو الحسن مذهب ابن كلاب؛ إلا أن شهرة الأشعري غلبت على ابن كلاب، حَتَّى قيل: مذهب الأشعري؛ بدل أن يقال: مذهب الكلابِي؛ فليفهم هذا جيدًا؛ لأنه مهم.

*** عقيدته فِي الطور الثانِي وأسباب انتشارها:**

ذكرنا فيما أسلفنا أن أبا الحسن الأشعري عاش معتزليًّا فترة طويلة تقدر بنحو أربعين عامًا، ثُمَّ تاب لأسباب كثيرة بتوفيق الله تعالى، وقد أشرنا إلَى بعضها، وطوينا البعض الآخر خشية الإطالة.

فإذا كان أبو الحسن قد ترك مذهبه الأول لأسباب ظهرت له؛ فلابدَّ له من عقيدة يدين بِها فِي صفات الله تعالى خاصة، وفِي كل ما يَجب الإيْمان به عامة.

لذا مال أبو الحسن إلَى مذهب ابن كلاب كما تقدم، فأخذ يدعو إليه، حَتَّى مال إليه خلق كثير لما رأوا أنه خصم للمعتزلة، وداعية قويُّ الشخصية، وله تأثير ملموس، وهذه المرحلة هِي طوره الثانِي.

وفِي هذا الطور خاصم الأشعري المعتزلة النفاة والمشبهة المجسمة معًا، الذين شبهوا الله بِخلقه فِي ذاته وصفاته؛ كالكرامية وغيرهم؛ إلا أنه لَمْ يصل بعد إلَى منهج السلف الذي ينشده ويسعى إليه جادًّا، والذي انتهى إليه أخيرًا فى طوره الثالث، بل لا يزال فِي طوره الثانِي الذي يعتبر

برزخًا فاصلاً بين مذهبه الأول ومذهبه الأخير، ولكنَّ موقفه الحازم ونشاطه ضد المعتزلة جعل صيته يطير ويظهر مكانته العلمية وغيرته الشديدة، حَتَّى لا يكاد أن يذكر صاحب المذهب الأصيل ابن كلاب.

وقد تبعه على مذهبه الجديد الكلابِي جَماعة من الفقهاء؛ مثل القاضي أبِي بكر الباقلانِي المالكي، والشهرستانِي، صاحب "الملل"، والإمام الرازي الطبيب، والإمام الغزالي، ووالد إمام الحرمين، وإمام الحرمين نفسه .. وغيرهم، وأكثرهم من فقهاء الشافعية، فنصروا مذهبه الجديد وناظروا دونه وجادلوا من أجله، بل ألفوا فيه كتبًا كثيرة، فانتشر المذهب انتشارًا واسعًا فِي العراق، حيث مقر الإمام، فِي حدود سنة ثَمانين وثلاثمائة من الهجرة (٣٨٠هـ)، ثُمَّ انتقل إلَى الشام.

ولما مَلَك السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب ديار مصر؛ انتقل معه مذهب الأشعري؛ لأن صلاح الدين هو وقاضيه صدر الدين بن درباس كانا على مذهب الإمام الأشعري، وقد اعتنقاه فِي الشام عندما كانا بدمشق فِي خدمة السلطان العادل ابن زنكي، بل قد حفظ الملك صلاح الدين فِي صباه كتابًا فِي العقيدة الأشعرية ألفه له قطب الدين النيسابوري، فصارُ يحفظ هذه العقيدة صغار أولاده؛ فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري، بل كانوا لا يعرفون غيره.

واستمر الوضع على ذلك أيام ملوك الأيوبيين جَميعهم، ثُمَّ فِي أيام مواليهم ملوك الأتراك.

وحصل أن سافر أثناء ذلك من العراق أحد رحالات المغرب، وهو أبو عبد الله مُحمَّد بن تومرت، فأخذ العقيدة الأشعرية الكُلَّابية هذه عن أبي حامد الغزالي، فلما عاد إلَى بلده المغرب؛ أقام فِي المصامدة -اسم مكان هناك- يفقههم ويعلمهم العقيدة الأشعرية، بل وضع لَهم كتابًا فِي العقيدة نفسها، فتلقاها الناس بالقبول والاستحسان.

ثُمَّ توفِي التومرتِي الذي حَمل إليهم العقيدة، فخلفه من بعده عبد المؤمن بن علي القيسي، ولقب القيسي هذا بـ"أمير المؤمنين"، فتغلَّب على مَماليك المغرب هو وأولاده بعد فترة من الزمن، وسَمَّوا أنفسهم "الموحدين"، وهم حَملة العقيدة الأشعرية التومرتية الَّتِي جاءَتهم من العراق، فتمسكوا بِها بشدة، بل دعوا إليها الناس، بل ألزموها الناس قسرًا، حتَّى استباحوا دم من خالف عقيدة التومرتِي؛ إذ هو عندهم الإمام المعلوم والمهدي المعصوم؛ كما قال المقريزي.

يقول تقي الدين المقريزي فِي "خططه" وهو يتحدث عن هذا الموقف المتطرف للموحدين: "فكم أراقوا دماء خلائق لا يُحصيها إلا الله الذي خلقها سبحانه بسبب تلك العقيدة التومرتية" اهـ.

ومِمَّا يلاحظ أن ذلك التشدد مِمَّن سَموا أنفسهم موحدين، ذلك التشدد الذي وصل إلَى هذه الدرجة كما رأينا، وأن تلك الحماقة الممقوتة ليست لأجل العقيدة الأشعرية، وليست لكون العقيدة الجديدة هذه لأبِي الحسن الأشعري، بل لأنَّها لتومرت الذي اعتبروه الإمام المعلوم والمهدي

المعصوم على ما تقدم من كلام المقريزي.

فهذه الأمور مُجتمعة هي من أسباب انتشار العقيدة الأشعرية واشتهارها هذه الشهرة فِي الأقطار الإسلامية، حتَّى جهل غيرها من المذاهب.

ومن أهم تلك الأسباب كما لاحظتم الحماقة التومرتية الَّتِي استباحت دماء كل من خالف عقيدة تومرت، وهي حَماقة ما سجل التاريخ مثلها فيما نعلم.

وهكذا خلا الميدان لأبِي حمدان، وهكذا لعبت الأشعرية الكلابية ذلك البعد الخطير، على حين ضعف وتشتت من السلفيين؛ كما سنعلم قريبًا -إن شاء الله تعالى-؛ لأنَّها نشطت ذلك النشاط، مستغلة تلك الظروف المختلفة الَّتِي أسلفناها، وقد وقع ذلك قبل أن يستعيد السلفيون قوتَهم ونشاطهم فِي الدعوة، بعد خروجهم من معركتهم الَّتِي دامت فترة غير قصيرة مع المعتزلة وأقطابِها، وقد خرجوا منها منهكي القوى، وهم فِي حالة تشتت هنا وهناك.

ولكن الوضع لَمْ يستمر على ما هو عليه دون أن يقيض الله من يُجدد للناس عقيدتَهم ويدافع عنها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وهذا ما نريد أن نتحدث عنه فِي العنوان الآتِي الذي قد يبدو غريبًا لأول وهلة.

* * * * *

نشأة تدوين العقيدة الإسلامية :

التحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بعد أن ترك في هذه الأمة ما إن تمسكت به لن تضل بعده أبداً: كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان كتاب الله تعالى محفوظاً بحفظ الله، جمعهُ الصحابة في صدورهم وكتبوه في الصحف على ما كان متيسراً من وسائل الكتابة؛ ليكون ذلك وسيلة لتحقيق وعد الله تعالى بحفظه، مع وسائل أخرى، فتوفر لهذا الكتاب الكريم ما لم يتوفر لأي كتاب آخر سماوياً كان أو غير سماوي.

أما الحديث وسنة النبي صلى الله عليه وسلم فلم تدوّن رسمياً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما دُوّن القرآن الكريم، وكان أول من فكر بجمع السنة وتدوينها: عمر بن عبدالعزيز t فكَلَف الإمام الحافظ ابن شهاب الزهري بتدوين ما سمعه من أحاديث الصحابة فجمعها غير مبوبةٍ على أبواب العلم، وربما كانت مختلطةً بأقوال الصحابة والتابعين() . ثم تتابع العلماء على التدوين، فقل أن تجد بلداً من البلدان إلا وفيه عالم يجمع ويكتب، ففي مكة: ابن جريج وابن إسحاق، وفي المدينة: سعيد بن أبي عَرُوبة ومالك بن أنس، وفي البصرة: حماد بن سلمة، وفي الكوفة: سفيان الثوري، وفي اليمن: معمر، وبمصر: الليث بن سعد، وفي الشام: الأوزاعي، وبواسط: هشيم بن بشير، وبخرسان: عبدالله بن المبارك، وبالري: جرير بن عبدالحميد.

ثم جاء الجيل الآخر من أهل السنة، فكان التدوين والتصنيف، فصنفت المسانيد، والصحاح، والسنن: على ترتيب أحاديث الصحابة وعلى أبواب العلم() .

وكان هذا الجيل في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وكانت طريقة التدوين في هذا الجيل ضم الأبواب بعضها إلى بعض في كتاب واحد على ما فعله الإمام مالك في (الموطأ) والبخاري ومسلم في (صحيحيهما) وأصحاب السنن في كتبهم، وبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب مثل: باب الإيمان، باب العلم، باب الطهارة ... باب التوحيد، باب السنة، وهكذا() .

فكأن هذا التبويب للأحاديث، كان النواة الأولى في استقلال كل باب — فيما بعد- بالبحث والنظر والعناية والتدقيق وبيان الأحكام، فعن أبواب الوحي والإيمان والسنة والتوحيد ... نشأ علم العقيدة واستقل عن العلوم الأخرى المستنبطة من الكتاب والسنة() .

مراحل التدوين

ثم إن الفتن بعده صلى الله عليه وسلم رفعت رأسها رويداً، وشيئاً فشيئاً لتنال من أصول الدين قبل فُروعه، ومن عقائده قبل شرائعه، إمضاءً لسنته سبحانه في الابتلاء والامتحان

فظهرت بدعة الخوارج فالرفض، ثم الإرجاء والقدر، ظهرت بدع الجهمية المعطلة في أوائل المائة الثانية، وما تشعب منها بعد ذلك من فرق وطوائف، لتتحقق آية من آيات النبي صلى الله عليه وسلم في افتراق أمته كالأمم قبلها.

ثم إنه تنوعت بدع التعطيل في التجهم، ثم ورثه الاعتزال وكان منه على الدين وأهله من المصائب والويلات ما لا يخفى، ضلالاً وابتداعاً وافتراقاً، غصَّ بها تاريخ المسلمين، وحرقت به وحدتهم واجتماعهم، ولم تزل تعاني من آثار ذلك أشد العناء.

وفي المائة الثالثة فالرابعة تولَّد عن بدعتي التجهم والاعتزال بدعة أخرى، تمثلت في بدعة الكلابية، ومتولي كبرها أبو محمد عبدالله بن سعيد بن كلاب القطان، ومن تلقف بدعته من بعده، وهما الطائفتان الكبيرتان: الأشاعرة والماتريدية.

والسنة الحقة في ذلك ماضية وثابتة، في خضم هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن والبدع من لدن الصحابة g، وبعدهم كبار التابعين، فالتابعون فتابعوهم بإحسان إلى أن يشاء الله. على جادة واحدة، وطريقة واضحة، متمثلة فيما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وركبهم بعد ذلك يسير على هذا الهدى، ويصبر على ملمات الفتن، ويصابر شبهات وشهوات أهل البدع، ممن جعلهم الله سبحانه وتعالى في كل زمان فترةٍ من الرسل، وهم البقايا الباقية من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصابرون أهل الرى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس —بالشبهة والشهوة- قد أحيوه، وكم من ضالٍ تائه —عن طريق الحق- قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذي عقدوا ألوية البدع.

وبين يدي ذلك تتأكد أهمية العناية بالعقيدة الإسلامية، وتصفيتها مما يشوبها من عواري البدع، وذلك بتحري منهج السلف الصالح في تقرير العقيدة والدفاع عنها والرد على مخالفيها، ومن خلال الآثار السلفية المروية عنهم قولاً وفعلاً وحالاً ... والبحث عنها، وجمعها، ودراسة طرق روايتها، والتأمل فيها، والتفهم لها وإنزالها المكان اللائق بها على بصرة وهدى ... ولذلك ولغيره اعتنى أئمة الإسلام جيلاً بعد جيل، بنقل آثار الصحابة والتابعين وتابعيهم رضي الله عنهم ورحمهم بالأسانيد عنهم، وتناقلوها واحتفوا بها وزبروها في قلوبهم، وزينوا بها تصانيفهم() .

نماذج لبعض المصنفات التي دونت وذكرها حسب القرون:

((لم يكن التأليف إلا في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث؛ لأن ما سبق كان بين كبار السلف في الصدر الأول فأنكروه)) () .

القرن الثاني والثالث:

- كتاب الإيمان، لأبي عبيدالقاسم بن سلام، ولد سنة ١٥٩هـ، وتوفي سنة ٢٢٤هـ.

- الحيدة والاعتدال في الرد على من قال بخلق القرآن، للكناني، توفي سنة ٢٤٠هـ.
- الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل، ولد سنة ١٦٤هـ، وتوفي سنة ٢٤١هـ.

القرن الرابع:

- الاستواء، لابن الحداد القيرواني، ولد سنة ٢١٩هـ، وتوفي سنة ٣٠٢هـ.
- الشريعة، للآجري، توفي سنة ٣٦٠هـ.
- السنة، للطبراني، ولد سنة ٢٦٠هـ، وتوفي سنة ٣٦٠هـ.

القرن الخامس:

- السنة، للالكائي، توفي سنة ٤١٨هـ.
- الاعتقاد، لأبي نعيم الأصفهاني، ولد سنة ٣٣٦هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ.
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث، للصابوني، ولد سنة ٣٧٣هـ، وتوفي سنة ٤٤٩هـ.

القرن السادس:

- الحجة فيبيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لأبي القاسم الأصبهاني، توفي سنة ٥٣٥هـ.

قصيدة في السنة، للسلفي، ولد سنة ٤٧٨هـ، وتوفي سنة ٥٧٦هـ.

الاقتصاد في الاعتقاد، لعبدالغني المقدسي، ولد سنة ٥٤١ أو ٥٤٤هـ، وتوفي سنة ٦٠٠هـ.

القرن السابع:

- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لابن قدامة المقدسي، ولد عام ٥٤١هـ، وتوفي سنة ٦٢٠هـ.
- إثبات العلو، لابن الوليد الحنبلي، توفي سنة ٦٤٣هـ.
- القصيدة النونية للقحطاني() .

انظر الشبكة العنكبوتية على الرابط التالي:

http://islamport.com/k/mjl/٦٤٠٠/١٣٩٧٧.htm.

عِلْمُ العَقِيدَةِ

عَوَامِلُ النَّشْأَةِ، وتَطَوُّرُ التَّدْوِينِ

* تمهيد: منهج الصحابة في العقيدة:

• أولاً: عوامل نشأة علم العقيدة

أ ـ العوامل الداخلية:

١ ـ تدوين الأحاديث على الأبواب (الموضوعات).

٢ ـ الرد على المخالفين.

٣ ـ مواجهة البدع والانحرافات.

٤ ـ اختلاف طبيعة منهج التلقي.

ب ـ العوامل الخارجية:

١ ـ اللقاء المباشر مع أصحاب الديانات والمذاهب.

٢ ـ اللقاء غير المباشر عن طريق ترجمة كتب الإلهيات والفلسفة.

تمهيد

منهج الصحابة في العقيدة:

• **لم يكن الجيل الأول من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بحاجة إلى تدوين العلوم في العقيدة والشريعة وغيرها، فقد كانوا يتلقَّون من النبي ـ ﷺ ـ** مباشرةً كل ما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة، والقرآنُ الكريم يتنزل على النبي ﷺ حسب الحاجات والوقائع.

كما نجد ذلك واضحاً صريحاً في الآيات والسور التي أنزلت بعد الغزوات أو الحوادث التي كان لها أثرها في بناء المجتمع، أو في أعقاب سؤال أو استفتاء عن قضيةٍ معينة لمعرفة حكم الله فيها، ينزل القرآن فيصقل النفوس ويزكيها، ويربي الأمة، ويعالج ما يطرأ من مشكلات، ويجيب على ما ينشأ من تساؤلات، ويحمل المؤمنين على الالتزام بالأوامر الإلهية دون تردُّدٍ أو تلكؤ، ليحققوا بذلك مقتضى إيمانهم، فيتمّ التفاعل الكامل مع النصوص الشرعية: قرآناً ناطقاً، وسنةً عملية حادثة.

• **وكان الجيل الأول على عقيدة نقية صافية**، ببركة صحبة النبي ـ ﷺ ـ وقرب العهد بزمانه، ولِمَا فُطِروا عليه من سليقة تمكِّنهم من الفهم بعد التلقي، فالقرآن الكريم يتنزل بلغتهم التي يفهمونها وتجري على ألسنتهم كما يجري الدم في عروقهم، مما جعلهم جميعهم على عقيدة واحدة لا يختلفون فيها، رغم ما قد يقع من خلافٍ في أحكام فرعية تشريعية.

• ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ، وغيرها من مسائل العقيدة، سوى كتاب الله، فما عرف أحد

منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا المناهج الفلسفية، ولم يكن بحاجة إليها[1].

• لهذا كله لم يكن الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - بحاجة إلى تدوين علم العقيدة أو أصول الدين، وإلى ترتيب مباحثه كتباً وأبواباً وفصولاً، كما نجد اليوم مثلاً. ثم جدَّت بعد ذلك أمور اقتضت تدوين مسائل العقيدة في علمٍ مستقل.

* * *

(١) «الخطط المقريزية»: ٣/٣٠٩، ٣١٠ بتصرف، وانظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم ١/٤٩، «شرح العقائد النسفية» للتفتازاني ص (١٥)، «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» تأليف أحمد مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده: ٢/١٤٣، «التفكير الفلسفي في الإسلام» للدكتور عبد الحليم محمود ص (١١٩ - ١٢٦).

أولاً: عوامل نشأة علم العقيدة

ونشير فيما يلي إلى أهم هذه الأسباب والعوامل التي ساهمت في نشأة علم العقيدة واستقلاله، فيما نستخلصه من الوقائع، لعل باحثاً يقوم بتتبع ذلك وتقديم دراسة متكاملة عن مراحل التدوين وأساليبه في مجال العقيدة الإسلامية.

أ - العوامل الداخلية:

١ - تدوين الأحاديث على الأبواب والموضوعات: التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، بعد أن بلَّغ رسالة ربه تبارك وتعالىٰ، وترك في هذه الأمة ما إنْ تمسكت به لن تضل بعده أبداً: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وكان كتاب الله تعالى محفوظاً في صدور الصحابة، ومكتوباً في الصحف - على ما كان متيسراً من وسائل الكتابة - ليكون ذلك وسيلة لتحقيق وعد الله تعالى بحفظ الذكر، ثم جمع في مصحف واحد في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم كان الجمع الثاني ونسخ المصاحف وتوزيعها في الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه، وقد توفر لهذا الكتاب ما لم يتوفر لكتاب آخر، سماوي أو غير سماوي[1].

أما الحديث وسنة النبي - ﷺ - فلم تُدَوَّن رسمياً تدويناً شاملاً في عهد رسول الله ﷺ، كما دوِّن القرآن الكريم، وإنما كانت محفوظة في الصدور، نقلها صحابة رسول الله - ﷺ - إلى مَنْ بعدهم من التابعين مشافهة وتلقيناً، وإن كان عصر النبي ﷺ لم يَخْلُ من كتابة بعض الحديث، لكن على غير سبيل التدوين

(١) انظر: «الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي»: ٢/٥٨ - ٦١، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم: ٤/٤٥٣، ٤٥٤، «إظهار الحق» للشيخ رحمه الله الهندي ص (٢٠٧) وما بعدها.

الرسمي. ولقد انقضى عهد الصحابة ولم تدون فيه السنة إلا قليلاً.

ثم شاع التدوين في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، مع ضم الأبواب بعضها إلى بعض في كتاب واحد - على ما فعله الإمام مالك في «الموطأ» ثم من بعده البخاريُّ ومسلم في «صحيحيهما»، وأصحاب السنن في «جوامعهم وسننهم» - فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس، أصبحوا يرتِّبون الأحاديث على الأبواب، مثل: باب الإيمان، باب العلم، باب الطهارة، باب الطلاق... باب التوحيد... باب السُنة، وهكذا.

فكان هذا التبويب للأحاديث كان النواة الأولى في استقلال كل بابٍ، فيما بعد، بالبحث والنظر والعناية بالبيان وبيان الأحكام، فعن أبواب الإيمان، والوحي، والسنة، والتوحيد.. نشأ علم العقيدة واستقلَّ عن العلوم الأخرى المستنبطة من الكتاب والسنة. فكان هذا هو العامل الأول.

٢ - وأما العامل الثاني فهو الردُّ على المخالفين: فقد كان المسلمون عند وفاة رسول الله - ﷺ - على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه، غير من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً... وكانوا على كلمة واحدة في أصول الدين، وإنما كانوا يختلفون في مسائل فرعية كثيرة، بل يمتد هذا الخلاف إلىٰ عهد النبي، ﷺ، وكان اختلافهم هذا لا يورث تضليلاً ولا تفسيقاً،(١) لأنه في أمور لا تمسّ العقيدة، وإنما هي

---

(١) «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي ص (١٤). وعن الفرق بين ما يجوز من الاختلاف في الفروع وما لا يجوز من الاختلاف والتفرق في العقيدة، انظر: «الحجة في بيان المحجة» للأصبهاني: ٢/٢٢٨، ٢٢٩، «الإبانة» لابن بطة العكبري: ١/٥٥٧ - ٥٦٢، «أعلام الحديث» للخطابي: ١/٢١٨ - ٢٢١، «خلاف الأمة في العبادات» لابن تيمية ص (٢٩) وما بعدها.

مسائل فرعية، ثم هي مما لم يرد بها نص صريح عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ، أو جاءت في بعضها نصوص مختلفة، بعضها يعارض بعضاً في ظاهر الأمر.

ثم اختلف الناس في أشياء اتخذها قوم من بعدهم تكأة: إما للطعن في بعض الصحابة، وإمَّا جعلوها أساساً لنِحْلَتِهم، أو استدلوا بها في مسالة من مسائلهم التي اتخذوها شعاراً لهم، ثم تعمق الخلاف وأدى إلى نشوء جماعات متفرقة؟

وبعد هذا الاختلاف قامت كل فرقة تجادل عن رأيها وتؤيده بالأدلة، وتدفع رأي الآخرين وتردُّ عليه، فوُضِعَت في ذلك كتب ومؤلفات، فكان ذلك من عوامل نشأة الكتابة والتدوين في هذا الجانب.

٣ - ونضيف هنا عاملاً ثالثاً هو: مواجهة البدع والانحرافات عن العقيدة الصافية التي كان عليها الصحابة - رضوان الله عليهم - تلك البدع التي ظهرت بعد سنوات من خلافة علي - رضي الله عنه -(١).

---

(١) بل قد يقع شيء من الانحراف عن الإسلام والعقيدة حتى في حياة النبي ﷺ ولكنه بذاته لا يشكل فرقة أو مذهباً، إنما يشكل بذرة لمذهب أو أصلاً، كما يشير إليه حديث أبي سعيد الخدري فيما أخرجه البخاري (٦/٦١٨) ومسلم: (٢/٧٤٠١) - قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ، وهو يقسم قسماً، إذ أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله: اعدل. فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل».
فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فاضرب عنقه فقال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة...»
قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله، ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه.. «وهم الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه».
وانظر: «الوصية الكبرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٦٥ - ٦٨) بتحقيقنا، الطبعة الثانية.

ونجتزئ هنا بمقتطفات مما كتبه العلامة المقريزي في (الخُطط) وهو يدرس عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعري، ويرصد البدع التي ظهرت في المجتمع، ويرسم خطاً لتطورها التاريخي، فيقول:

مضى عصر الصحابة - رضي الله عنهم - على هذا ... إلى أن حدث في زمنهم:

● القول بالقدر، وأن الأمر أُنُفٌ، أي أن الله تعالى لم يقدّر على خلقه شيئاً مما هم عليه.

وكان أول من قال بالقدر في الإسلام: مَعْبَد بن خالد الجُهَنِيّ. وأخذ معبدٌ هذا الرأي عن رجلٍ يقال له: يونس سنسويه، ويعرف بالأسوري، فلما عظمت الفتنة به عذّبه الحجاج، وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان سنة ثمانين. ولما بلغ عبدَ الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، مقالةُ معبدٍ في القدر تبرّأ من القدرية، واقتدى بمعبدٍ في بدعته هذه جماعةٌ من الناس.

● وحدث أيضاً في زمن الصحابة - رضي الله عنهم - مذهبُ الخوارج وصرّحوا بالتكفير بالذنب، والخروج على الإمام وقتاله.

● وحدث أيضاً في زمن الصحابة، رضي الله عنهم: مذهب التّشيّع لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والغلوّ فيه، فلما بلغه ذلك أنكره وحرّق بالنار جماعة ممن غلا فيه(1)، وأنشد:-

(1) أخرج البخاري (6/149) عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرّق قوماً، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرّقهم، لأن النبي ﷺ قال: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم كما قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» وانظر: «فتح الباري»: 6/149 - 151، 12/269 - 272.

لمّا رأيتُ الأمْرَ أمراً منكـراً   أجّجْتُ ناري ودَعَوْتُ قُنْبرا

● وقام عبدُ الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبئي، وأحدث القول بوصية رسول الله - ﷺ - لعليٍّ بالإمامة من بعده، فهو وصي رسول الله ﷺ وخليفته على أمته من بعده بالنص، وأحدث القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله - ﷺ - أيضاً، وزعم أن علياً لم يُقتل، وأنه حيٌّ، وأن فيه الجزء الإلهيّ، وأنه هو الذي يجيء في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه، وأنه لا بد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلاً كما مُلِئت جوراً.

ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، وصاروا يقولون بالوقف، يعنون أن الإمامة موقوفة على أناس معينين، كقول الإمامية بأنها في الأئمة الاثني عشر، وقول الإسماعيلية بأنها في ولد إسماعيل بن جعفر الصادق.

● ثم حدث بعد عصر الصحابة - رضي الله عنهم: مذهب جَهْم بنِ صفوان (توفي 128 هـ)، فإنه نفى أن يكون لله تعالى صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثّرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة، تولّد عنها بلاء كبير، وكان قبيل المائة من سِنِيّ الهجرة.

● وفي أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال على يد واصل بن عطاء المتوفى سنة (131هـ)، وصنفوا في مسائل العدل والتوحيد وإثبات أفعال العباد، وأن الله تعالى لا يخلق الشر، وجهروا بأن الله لا يُرى في الآخرة، وأنكروا عذاب القبر على البدن، وأعلنوا أن القرآن مخلوق مُحْدَثٌ.. إلى غير ذلك من مسائلهم.

● ثم حدث مذهب التجسيم المضاد لمذهب الاعتزال، فظهر محمد بن كرّام السّجستاني، زعيم الطائفة الكرّامية، بعد المائتين من سِنِيّ الهجرة، وأثبت الصفات حتى انتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه.

• هذا، وأمر الشيعة يفشو بين الناس، حتى حدث مذهب القرامطة المنسوبين إلى حمدان الأشعث ـ المعروف بقِرْمِط ـ وكان ابتداء أمره في سنة أربع وستين ومائتين، وكان ظهوره بسواد الكوفة، فاشتهر مذهبه بالعراق. وقام أتباعه ببلاد الشام والعراق والبحرين بالدعوة إلى مذهبه الذي يقوم على القول بالباطن، وهو تاويل شرائع الإسلام وصرفها عن ظواهرها إلى أمور زعموها من عند أنفسهم، وتاويل آيات القرآن الكريم، ودعواهم فيها تاويلاً بعيداً، وانتحلوا بدعاً ابتدعوها باهوائهم فضلّوا وأضلّوا عالماً كثيراً ممن دخل في مذهبهم(١).

ولما ظهرت هذه البدع، وقف علماء السَّلف وأهل السنة يردّون عليها ويحذّرون منها، ويوضّحون أصول العقيدة، ويَدْعُون للتمسك بها. فكان ذلك واحداً من أهم العوامل التي ساعدت على تدوين علم العقيدة واستقلاله، في كتب ومؤلفات خاصة.

٤ ـ اختلاف طبيعة منهج التلقّي: هناك عامل رابع، كان له أثره في نشأة التدوين في العقيدة الإسلامية، وهو اختلاف طبيعة المنهج الذي سلكه المسلمون بعد عصر الصحابة في التفكير والفهم لمسائل الألوهية والعقيدة، وقد نشأ عن ذلك الانشغال ببعض المشكلات التي لم تظهر مُبَكِّرة، أو لم يكن هناك ما يدعو للانشغال بها أو التعمُّق في بحثها والتفكير فيها، ونشأ عن هذا ظهورُ مشكلاتٍ وقضايا شغلت الفكر الإسلامي، وكان لها أثرها في نشوء الفِرَق، ومن ثَمَّ الكتابة حولها.

• فقد ظهرت «مسألة الصفات» وشُغِلَ المسلمون بها وبالجدل حولها، وخاضت طائفة من المسلمين في البحث عنها وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان

(١) «الخطط المقريزية»: ٣/ ٣١٠ ـ ٣١٢ بتصرف. وانظر: «منهاج السنة» لابن تيمية: ١/ ١٠٦ ـ ١١٦.

قاطع، فخالفوا بذلك منهج السلف وسبيلهم، فوقعوا في التشبيه والتجسيم أو الإنكار والتاويل بحجة التنزيه، واستطالت كل فرقة على الأخرى(١). وتشعب البحث في قضايا كثيرة حولها: هل الصفات عين الذات أو غير الذات، أو هي وجوه للذات؟ وهل يوصف الله تعالى بصفات سلبية أم لا يوصف بها؟... الخ

• وظهرت كذلك مسألة «القدر» التي نهى النبيُّ ـ ﷺ ـ عن الخوض فيها(٢).

ولكن شَغَلَ المسلمون أنفسَهم بمسائل جديدة: هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟ وإذا كان كذلك فهل هو مسؤول عن عمله؟ وما حدود هذه المسؤولية..؟ وغير ذلك من الأسئلة التي طرحت في أعقاب التعمُّق في هذه المسالة مع البعد عن منهج السلف في العمل والعبودية والخضوع لله، فإذا انضمَّ إلى ذلك محاولةُ كلِّ فريقٍ أن يسند رأيه بآية أو حديث، يضعهما في غير موضعهما، أو يؤولهما ليؤيد رأيه بذلك، أو يأخذ بعض النصوص ليعارض بها نصوصاً أخرى؛ إذا انضمَّ هذا إلى ذاك

(١) انظر: «حجة الله البالغة» للدهلوي: ١/ ١٣١ ـ ١٣٥، «التفكير الفلسفي في الإسلام» د. عبد الحليم محمود، ص (١٣٤ ـ ١٤٤).

(٢) أخرج الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ١٧٨)، وابن ماجة في «السنن»: (١/ ٢٠) (صحيح ابن ماجة)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكانما يفقأ في وجهه حَبُّ الرمان من الغضب. فقال: «بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلكت الأمم قبلكم».

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٠٥٣) عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ، يوماً. قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ، يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».

عَلِمْنا مقدار الخسارة والجهد الذي أضاعه المسلمون في بحث هذه المشكلات والتعمُّق فيها والرد على أصحابها، وإن كان ذلك لا بدَّ منه لرد الشبهات وإقامة الحجة[1].

• والمسألة الثالثة التي شغلت التفكير الإسلامي كذلك: هي مسألة «مرتكب الكبيرة»، وفي أول الأمر كانت ممثلة في أحداث جزئية، ثم بالتدريج أخذت تظهر في صورة عامة وتفرعت عن هذه المسألة مسائل أخرى: كمسألة الإمامة وحقيقة الكفر، وحقيقة الإيمان، وزيادة الإيمان ونقصانه.

• وعن البحث في هذه المسائل نشأت في الجماعة الإسلامية فِرَق وأحزاب: الخوارج، والشيعة، والمرجئة، والمعتزلة..[2] وذهبت كل فرقة تدافع عن رأيها ومعتقدها فكان هذا من العوامل التي دفعت بأهل السنة إلى الرد على هذه الفرق فنشأت الكتابة في العقيدة لبيان الحق وردّ الشبهات.

ب - العوامل الخارجية: -

كانت تلكم هي أهم العوامل والمؤثرات الداخلية في نشأة علم العقيدة واستقلاله عن العلوم الأخرى. وهنا نشير إلى عوامل أخرى خارجية، ساهمت في نشوء وتطور التدوين في الجانب العقائدي. وهي:

(١) راجع: «التفكير الفلسفي في الإسلام»، (١٢٩ - ١٣٣)، «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام»: ١/٢٢٩ - ٢٣٣، «المذاهب الإسلامية» ص (٩٩ - ١٠٢) وعن الإيمان بالقدر وموقف السلف والنهي عن التعمق فيه انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» ص (٢٥٠ - ٢٨٠)، واقرأ ما كتبه الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الأول ص (١٤٣ - ١٥٤) عن التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة.

(٢) «الجانب الإلهي» للدكتور محمد البهي ص (٦٧، ٦٨)، «المذاهب الإسلامية» لأبي زهرة ص (١٠٢).

أ - احتكاك المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب الفلسفية، عن طريق اللقاء المباشر والجدل مع أصحابها.

ب - وعن طريق الترجمة التي بدأت في عهد الدولة الأموية، ثم اتسعت في عهد الدولة العباسية.

فاليهود الذين عاصرهم النبيُّ ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وهم الذين كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج ببعثة نبيٍّ جديد، هم الذين كفروا بالنبي ﷺ وناصبوه العداء من اللحظة الأولى، وتنوعت وسائلهم في الصدِّ عن الدعوة، والمماطلة والجدال، وإلقاء الشبهات، والحرب الفكرية والنفسية.

وكان القرآن الكريم يتولَّى مناقشتهم والردَّ عليهم وبيان مؤامراتهم، كما أوضح تحريفهم لكتبهم، ورسم صورة صادقة لطبيعتهم ونفسيتهم.

وبعد أن خرج اليهود من الجزيرة العربية. قاموا بدور كبير في عدائهم لهذا الدين - ومنهم من دخل فيه ظاهراً وهم على حقد وضغينة - وقد بدأ اتصالهم بالمسلمين لإثارة الفتنة، فكان لعبد الله بن سبأ دوره في الفتنة في عهد عثمان - رضي الله عنه - ثم تتابعت مظاهر الفتنة في نشر فكرة الإمام المعصوم والوصي والرجعة التي تلقفتها عنهم الفرق الباطنية، وأثاروا الجدل بين المسلمين حول الذات الإلهية والصفات، ومعروفٌ عنهم التشبيه والتجسيم كما هو في كتبهم، وقد انتقلت هذه الأفكار إلى التراث الإسلامي مما عرف بـ «الإسرائيليات» في كتب التفسير والحديث.

وأثاروا أيضاً بين المسلمين الجدل حول الجبر والاختيار، وغير ذلك من الأمور العقائدية وعندئذ قام المسلمون بالردِّ على مفتريات اليهود وشبهاتهم وناقشوا عقائدهم، واصطنعوا لذلك منهجاً يقوم على النظر والدليل، فكان بعد ذلك هذا

التراث الإسلامي من كتب العقيدة والرد على اليهود.

وأما النصارى: فقد بدأ الجدال بينهم وبين المسلمين في الحبشة أولاً، عند الهجرة الأولى للمسلمين في حقيقة المسيح، وفي الكلمة وغيرها وفي مسائل تدور حول العقيدة الإسلامية في المسيح. ثم وَفَدَ نصارى نجران إلى المدينة وجادلوا النبي ﷺ في شأن عيسى عليه السلام وقد دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

ثم وصل الإسلام إلى الشام والعراق ومصر، فبدأت النصرانية تنازعه نزاعاً فكرياً شديداً[1]. وثار الجدل حول طبيعة المسيح، وحول مسائل الألوهية، وفكرة الجوهر والعَرَض، والأقانيم الثلاثة، والوحدانية، وفكرة الخطيئة والصلب[2].

وساعد هذا الجدل على توجيه أنظار المسلمين إلى معالجة مسائل جديدة ومشكلات عقدية ظهرت على سطح المجتمع الفكري. وقد يكون علم الكلام أيضاً

---

(١) انظر: «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» د. علي سامي النشار: ١/٦٢.

(٢) وكان لعلماء المسلمين مناقشات لمذاهب المسيحيين، وتركوا لنا - تراثاً ضخماً في هذا المجال يتمثل فيما كتبه ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنِّحل» والجويني في «شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل» والغزالي في «الرد الجميل» والقرطبي في «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»، وابن تيمية في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وابن قيم الجوزية في «هداية الحيارى»، وأبو الفضل المالكي في «المنتخب الجليل» والميورقي في «تحفة الأريب»، والبغدادي في «الفارق بين المخلوق والخالق» والقرافي في كتابه «الأجوبة الفاخرة» وابن معمَّر في «منحة القريب المجيب في الرد على عُبَّاد الصليب»، وأبو عَبيدة الخزرجي في كتابه «بين الإسلام والمسيحية» وكلها مطبوعة. وأمثالها كثير.

- كما سمي في فترة من الزمن - نتيجة التأثر بعلم الكلام النصراني أو اللاهوت.

وكان لترجمة كتب الفلسفة اليونانية والرومانية وإقبال بعض المسلمين عليها، أثر في بعض المسلمين الذين فُتِنُوا بها فحاولوا التفلسف في ضوئها وتأثروا بها منهجاً وموضوعاً حين راحوا يفسرون تعاليم الإسلام في ضوء هذه الفلسفة، وحاولوا التوفيق بينها وبين الإسلام، وفسَّروا القرآن على ضوء الفكر اليوناني - على حد تعبير العلامة المفكّر محمد إقبال رحمه الله - ومع أن هذه الفلسفة وسَّعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام فإنها غشَّت على أبصارهم في فهم القرآن[1].

● وليست هذه الفلسفة هي كل ما اتصل به المسلمون وردوا عليه، فهناك أيضاً: - المذاهب الغنوصية الشرقية[2].

يقول الدكتور علي سامي النشار: «وقد قابل الإسلام هذه المذاهب في جميع البلاد التي دخلها بلا استثناء. فقابلها في العراق، وفي إيران، وقابلها في مصر في شكل الأفلاطونية المُحْدَثَة.

وقد بدأ غنوص تلك المذاهب يهدم الإسلام منذ قوّض الإسلام عقائد تلك المذاهب وطقوسها القديمة، وكانت من أخطر المذاهب الهدامة التي جالدت الإسلام... حاربته بالسيف والقلم، وهاجمته بقوة وعنف. على أن هذه الدعوة ما

---

(١) «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ص (٨، ٩).

(٢) «الغنوص» أو «الغنوسيس» كلمة يونانية الأصل، معناها: المعرفة. غير أنها أخذت بعد ذلك معنى آخر اصطلاحياً، هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا. أو هو تذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً بأن تلقى في النفس، فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية.
انظر: «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام»: ١/١٨٦، ١٨٧.

زالت آثارها حتى الآن تتمثل في غلاة الشيعة وفي الإسماعيلية وفي البهائية[1].

اتصل المسلمون بهذه المذاهب الدينية والفلسفية، وناقشوا أصحابها وردوا عليها، ومن خلال المناقشة والرد كانت تتضح كذلك الجوانب العقدية التي يدعو الإسلام إليها، فنشأت الكتابة في العقيدة الإسلامية.

نتائج وملاحظات:

ومن هذا العرض الموجز للعوامل المؤثرة في نشأة علم العقيدة وتدوينه يمكن أن نقول:

أ - إن هذه النشأة كانت استجابة لضرورة طبيعية ملحة، تمثلت في مشكلات سياسية واجتماعية نجمت في حياة المسلمين، وباتت تهدد باستفحالها المطرد البناءَ الدينيَّ، الذي قام عليه المجتمع الإسلامي. كما تمثلت في تحديات دينية وفلسفية مع الأديان والفلسفات القديمة، باتت تروج بين المسلمين وتهدد بنية العقيدة الإسلامية. فهذه المشكلات والتحديات، دفعت الفكر الإسلامي في سبيل الدفاع عن مرجعيته العقدية - إلى أن يتجه إلى معالجة تنظيرية، فكانت نشأة علم العقيدة بمنزلة الاستجابة لتحديات ناجمة من صميم واقع المسلمين[2].

ب - وهذا مما يدعو إلى التأكيد على وجوب الالتفات إلى التحديات الفكرية والعقدية والمشكلات المعاصرة ومناقشتها وبيانُ ما فيها من خطورة على العقيدة الإسلامية، بدلاً من الإغراق في دراسة أمور ومشكلات تاريخية لا وجود لها في حياتنا المعاصرة - على الأعم الأغلب.

---

(١) «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام»: ١/٦٢، ٦٣.

(٢) «في فقه التدين؛ فقهاً وتنزيلاً» للدكتور عبد المجيد النجار: ٢/٢٥، ٢٦. وانظر: «خصائص التصور الإسلامي»، للأستاذ سيد قطب، ص (١١ - ١٢).

ج - ولئن كانت مواجهة تلك العوامل أمراً ضرورياً، فإن بعضها قد سبَّب انحرافاً في المنهج الذي سلكه بعض العلماء، متمثلاً في «علم الكلام»، الذي وقف منه علماء السلف موقفاً متشدداً، كما وقفوا من الفلسفة بما فيها من انحرافات، ولذلك ينبغي التأكيد على أنه لا يجوز أن يعالج الخطأ بخطأ آخر، ولا الانحراف بانحراف مثله[1].

* * *

---

(١) انظر: «خصائص التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب ص (١١، ١٢).

ثانياً: التطور التاريخي لتدوين العقيدة

إجمال وبيان :

١ ـ **الفقه الأكبر** : الفقه لغة، وعرفاً .تطور استعمال كلمة الفقه . الفقه الأكبر والأصغر. أول من استعمل مصطلح «الفقه الأكبر» .

٢ ـ **الإيمان** : في اللغة والشرع ـ الإيمان في الشرع ـ مؤلفات في العقيدة تحت اسم الإيمان .

٣ ـ **السنة** : في اللغة ـ إطلاقات السنة في الشرع ـ السنة بمعنى الاعتقاد، شيوع مصطلح السنة بالمعنى الاعتقادي، أهم المؤلفات، منهج المصنفين في السنة .

٤ ـ **التوحيد** :المعنى اللغوي ـ المعنى الاصطلاحي للتوحيد، علم التوحيد ـ تطور الاستعمال ـ المؤلفات في التوحيد .

٥ ـ **الشريعة** : المعنى اللغوي ـ إطلاقات كلمة الشريعة ـ الشريعة بمعنى العقيدة أهم المؤلفات الاعتقادية بعنوان «الشريعة» .

٦ ـ **العقيدة** : في اللغة، وفي الاصطلاح، علم العقيدة، مؤلفات في العقيدة .

٧ ـ **أصول الدين** : تعريفات ـ ملاحظة على التعريف ـ أهم المؤلفات .

التطوُّر التَّاريخيُّ لتدوين العقيدةِ

إجمال وبيان:

• إن من أكثر الألفاظ دوراناً على الألسنة وتداولاً بين الناس: لفظ «العقيدة» وما يقاربها ويتفق معها في الاشتقاق، كالاعتقاد، والعقائد، والعَقَدي.... وعلى كثرة استعمال هذه الكلمة التي غدت مصطلحاً شائعاً، فإننا لا نجد لها استعمالاً في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الشريف، وإن كانت المادة موجودة في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١). وقوله: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ (المائدة: ٨٩).

• ولذلك يرى بعض الباحثين أنها مستحدثة في العصر العباسي للمعنى الذي استعملت فيه، وأن اللفظ المستعمل في القرآن الكريم والحديث الشريف: «الإيمان». وقد استُعمل لفظ «العقيدة» أجيالٌ من أئمة المسلمين بمعنى: الأفكار الأساسية التي يجب على المؤمن بدين أن يصدِّقها ويقبلها. أي: يعتقدها. واستعمال السلف من العلماء والأئمة دليلٌ على جواز استعمال هذه الكلمة لهذا الجانب من جوانب الدين(١).

• ولعل هذا يدعونا إلى استقراء المصطلحات الفنية بعد تدوين العلوم الإسلامية، التي بُحِثَتْ هذه الأفكار العَقَديَّة من خلالها، لنبيِّن أصل استعمال كلٍّ منها في اللغة، واستعماله في لسان الشرع بعامة، وفي الجيل الأول بخاصة. ثم

---

(١) «الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية» للأستاذ محمد المبارك. ص (٧٥).

كيف أصبح ذا مدلول خاص بعد ذلك. وقد يترتب على استعمال هذه المصطلحات آثار نلمح إلى شيء منها عرَضاً دون الدخول في التفصيلات[1].

والاستقراء - وإن لم يكن تاماً، بل على حسب الوسع والطاقة وما أتيح لي من اطلاع - يرشدنا إلى هذه المصطلحات الآتية التي رتبتها بحسب ظهورها واستعمالها تاريخياً، حيث أذكر أول من استعمل اللفظ أو كتب فيه، ثم أُتْبِعه بمن تابعه على ذلك ولو في عصور متأخرة، دون استقصاء أو استيعاب.

• ففي القرن الثاني الهجري كان تدوين العقيدة الإسلامية تحت عنوان «الفقه الأكبر».

وفي القرن الثالث ظهر مصطلحا «الإيمان» و«السنَّة».

وفي نهاية هذا القرن وبداية القرن الرابع كان التدوين تحت مصطلح «التوحيد» ثم «الشريعة» يليهما مصطلحا «العقيدة» و «أصول الدين».

واستقرت هذه المصطلحات أو الإطلاقات عند أهل السنة، فكان التدوين والتأليف في العقيدة الإسلامية تحت واحدٍ من هذه العناوين.

فإذا وصلنا إلى عصرنا الحاضر وجدنا بعض التجديد في الكتابة وأسلوبها، ويمكن أن نرصد هنا مصطلحاً جديداً هو «التصور الإسلامي».

وفيما يلي من صفحات عرض سريع لهذه المصطلحات وأهم الكتب حسب الترتيب التاريخي، ومن الله نستمد العون والتوفيق.

---

(١) أشار إلى ذلك الغزالي في «إحياء علوم الدين»: ١/٣٢ - ٣٦، والأستاذ المبارك في المرجع السابق ص (٧٥) وانظر كتاب الأستاذ أبي الحسن الندوي: «ربانية لا رهبانية».

١ - الفقه الأكبر:

الفقه في اللغة: هو الفهم والعلم بالشيء، أو هو فهم غرض المتكلم خاصة، ومنهم من يجعله خاصّاً بفهم وعلم الأمور الخفيَّة الدقيقة التي تحتاج إلى النظر والاستدلال[1].

الفقه في الاصطلاح الشرعي: ثم إن العرف قد خصَّ الفقه بعلم الدين أو العلم بأحكام الشريعة كلها. وهذا المعنى الشرعي العام هو الذي كان معروفاً عند السلف في العصر الأول قبل أن يخصصه المتأخرون بمعرفة الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية. كما هو المشهور عند الفقهاء والأصوليين[2].

تطوُّر استعمال كلمة «الفقه»:

• وقد أوضح الإمام الغزالي هذا في حديثه عما بُدِّل من ألفاظ العلوم إلى معانٍ غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، فقال في حديثه عن «الفقه»:

«فقد كان الفقه يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا - بالنسبة للآخرة - وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة. واستيلاء الخوف على القلب. ويدلُّك على هذا المعنى قول الله عز وجل: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾. (التوبة: ١٢٢)

وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق

---

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة»: ٤/٢٤٢، «الصحاح» للجوهري: ٦/٢٢٤٣، «ترتيب القاموس المحيط»: ٣/٥١٣، «التعريفات» للجرجاني ص (٢١٦).

(٢) انظر: «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي: ١/٤٢، «الكليات» للكفوي: ٣/٣٤٥. وعامة كتب الأصول.

ح الجامعة الإسلامية، ١٤٢٣هـ

فهرس مكتبة الملك عهد الوطنية أثناء النشر

الرحيلي، حمود بن أحمد بن فرج

منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين. / حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي - المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ

٩٨٩ ص، ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٥-٤٣٨-٠٢-٩٩٦٠

١ - الدعوة الإسلامية ٢- القرآن -مباحث عامة أ-العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٤/٤٩٣٩

رقم الإيداع: ٣٩ ١٤٢٤/٤

ردمك: ٥-٤٣٨-٠٢-٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

عمادة البحث العلمي

رقم الإصدار (٦٢)

منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام

تأليف

أ.د. حمود بن أحمد الرحيلي

الجزء الأول

الفصل الرابع

حالة العقائد قبيل البعثة المحمدية

أولاً: حالة العقائد داخل الجزيرة العربية.

أ-الحالة الدينية.

ب-الحالة الاجتماعية.

جـ-الحالة السياسية.

ثانياً: حالة العقائد خارج الجزيرة العربية.

١-الديانة اليهودية.

٢-الديانة النصرانية.

٣-بلاد فارس.

٤-بلاد الهند.

٥-بلاد الصين.

نظرة عامة على الوضع العالمي

أولاً: حالة العقائد داخل الجزيرة العربية.

أ-الحالة الدينية للعرب قبل الإسلام:

العرب كانوا على التوحيد:

كان العرب على دين إبراهيم وإسماعيل، وعلى دين من بعثه الله تعالى فيهم من أنبياء لعاد ولثمود ولمدين وغيرهم.

فقد بعث الله تعالى هوداً عليه السلام لعاد، الذين سكنوا الأحقاف جنوب الربع الخالي وشمال حضرموت، وبعث صالحاً عليه السلام لثمود الذين سكنوا بالحجر ووادي القرى بين المدينة النبوية وتبوك.

وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وإن كان ولد ببابل، إلاّ أنه لم يستقر بها، بل أخذ يتنقل بينها وبين حران ومصروفلسطين، ثم كان مهاجره إلى مكة ومعه ولده إسماعيل وأمه هاجر، وقد استقرّ المقام بإسماعيل وأمه بمكة، ورفع إبراهيم وابنه إسماعيل بمكة قواعد البيت الحرام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآيتان: ١٢٧-١٢٨.

وكانت على مقربة من الجزيرة العربية رسالة لوط، ورسالة شعيب عليهما السلام.

ولهذا فإنَّ العرب في الجزيرة العربية كانوا يؤمنون بدعوة التوحيد التي دعا إليها هؤلاء الأنبياء وغيرهم، لأنَّ الصحيح المقطوع به، أنّ الرسل المذكورين في القرآن الكريم ليسوا كل الرسل الذين بعثهم الله تعالى، بل إنه يوجد رسل غيرهم، كما قال تعالى لخاتم رسله بعد أن ذكر عدداً من الرسل: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

تحول العرب من التوحيد إلى الوثنية:

وعن تحول العرب عن عبادة الله تعالى إلى الوثنية، قال أبو المنذر الكلبي: "إن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما سكن مكة، وولد له بها أولاد كثيرون، حتى ملاءوا مكة، ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد إلتماساً للمعاش، وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة، إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً

(١) سورة النساء الآية: ١٦٤.

(٢) سورة فاطر الآية: ٢٤.

من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة[1] بمكة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم، وصبابة بالحرم، وحباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم سلخ ذلك بهم إلى أنْ عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتحثوا (استخرجوا) ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها، على إرث ما بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه"[2].

وقد كانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: "لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك" فيوحدونه بالتلبية، ويدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده، يقول تعالى لنبيه محمد صلى

(١) الصبابة: رقة الشوق وحرارته. مختار الصحاح ص: ٣٥٤.

(٢) الأصنام ص: ٦، وأخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ١٦٦/١، وسيرة ابن هشام ١٧٧/١، والبداية والنهاية لابن كثير ١٨٨/٢، وإغاثة اللهفان لابن القيم ٢١٠/٢، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ٥٥-٥٦.

الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

أي ما يوحدونني لمعرفة حقي، إلاّ جعلوا معي شريكاً من خلقي[2].

وذكر السهيلي وغيره: "أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي، وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه، ويقول كما يقول، واتبعه العرب في ذلك"[3].

وقد ذكر ابن الكلبي: "أنَّ أولّ من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية، عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة.

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة، فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية، وقاتل جرهما ببني إسماعيل، فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة، ونفاهم عن بلاد مكة، وتولى حجابة البيت بعدهم"[4].

وذكر السهيلي: "أن العرب قد جعلته رباً لا يبتدع لهم بدعة، إلاّ

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٦.

(٢) الأصنام للكلبي ص: ٧، وسيرة ابن هشام ١/٧٨، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٨٨، والفتاوى لابن تيمية ١/١٥٦، وإغاثة اللهفان لابن القيم ٢/٢١٠-٢١١.

(٣) الروض الأنف ١/١٠٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٨٨.

(٤) الأصنام للكلبي ص: ٨، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص: ٥٦، وبلوغ المرام للألوسي ٢/٢٠٠.

اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس، ويكسو في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة"[1].

وقد نص الشهرستاني أن عمرو بن لحي وضع الأصنام في البيت في أول ملك "سابور" ذي الأكتاف[2]"[3].

وعن جلب الأصنام من الشام إلى مكة، يروي ابن الكلبي أنّ عمرو بن لحي مرض مرضاً شديداً، فقيل له: إنَّ بالبلقاء من الشام حمة، إنْ أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة"[4].

وهناك رواية أخرى تذكر أنّ أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس هو: هذيل بن مدركة[5].

(١) الروض الأنف ١/١٠٢، وإغاثة اللهفان لابن القيم ٢/٢١١.

(٢) هو: سابور بن هرمز بن نرسي بن بهرام، أحد ملوك الفرس، قتله الروم وله من العمر ٧٢ سنة، وهلك في أيامه عامله على العرب امرؤ القيس بن عمرو بن عدي. انظر: الكامل لابن الأثير ١/٢٢٨-٢٣١، ومروج الذهب للمسعودي ١/٢٥٤.

(٣) الملل والنحل ٢/٢٣٣.

(٤) الأصنام ص: ٨، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص: ٥٦، وإغاثة اللهفان لابن القيم ٢/٢١١، وبلوغ الإرب للألوسي ٢/٢٠١.

(٥) الأصنام لابن الكلبي ص: ٩، ومعجم البلدان للحموي ٣/٢٧٦، وبلوغ الإرب للألوسي ٢/٢٠.

وعلى كل فالرواية الأولى هي المعروفة والمشهورة بين الإخباريين عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب[١].

والحق إنه إذا كان للدعوة الإلهية أنبياء ودعاة يدعون الناس إلى الخير، وإلى عبادة الله تعالى وحده، فكذلك فإن للدعوات الشيطانية دعاة يدعون إلى أبواب جهنم، وإلى عبادة الأوهام والطواغيت، ومن أكبر دعاة الضلال عمرو بن لحي الخزاعي، حيث استورد الأصنام من بلاد بعيدة، ووزعها في الجزيرة العربية، بل في أرض الحرم.

فإنَّ العرب جميعاً من قحطان وعدنان كانوا قبل عمرو بن لحي على التوحيد يعبدون الله وحده، ولا يشركون به شيئاً، فلما جاء عمرو بن لحي أفسدهم، ونشر بينهم الأضاليل بما جلبه لهم من بلاد الشام من أصنام، فكان داعي الوثنية عند العرب، ومضلهم الأول، وموزع الأصنام بين القبائل، ومقسمها عليها، فكان من دعوته تلك عبادة الأصنام والأوثان، إلى أن جاء الإسلام، فأعاد العرب إلى سواء السبيل.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رأيت عمرو

(١) انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٥/٧٣.

ابن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب»[١].

وجاء في صحيح البخاري أيضاً، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبه، وهو أول من سيب السوائب»[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق أبا بني كعب هؤلاء، يجر قصبه في النار »[٣].

وروى ابن كثير عن ابن إسحاق عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجوزي الخزاعي « يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك له، ولا بك منه»، فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله، قال: لا إنك مؤمن، وهو كافر، إنه أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحّر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة،

(١) صحيح البخاري بشرح الفتح ٨/٢٨٣ كتاب التفسير، المائدة، باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة.

(٢) صحيح البخاري بشرح الفتح ٨/٢٨٣ المرجع السابق.

(٣) صحيح مسلم ٤/٢١٩١ كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم: ٥٠.

وحمى الحامي))[١].

بعض أصنام العرب:

وفي طليعة الأصنام التي عبدها العرب:

الصنم "ود" وكان لبني كلب.. وكان منصوباً بدومة الجندل[٢].

ويذكر ابن الكلبي أن عمرو بن لحي قد دفع هذا الصنم إلى عوف ابن عذرة ابن زيد اللات.. من قضاعة بعد أن أجابه إلى عبادة الأصنام، وأن عوف بن عذرة هذا حمله إلى وادي القرى، فأقره بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد ود، فهو أول من سمى به، .. ثم سمت العرب به بعد ذلك، وجعل عوف ابنه عامراً ... سادناً له، فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه، فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد ود، وبنو عامر

---

(١) البداية والنهاية ١٨٩/٢، وقال: ليس في الكتب من هذا الوجه.
ورواه ابن جرير الطبري في التفسير بنحوه ٨٦/٧.
وانظر السهيلي في الروض الأنف ١٠٠/١، ابن إسحاق بإسناد حسن. انظر سيرة ابن هشام ٧٦/١، وانظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية د. مهدي رزق الله ص: ٦٨.

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٠.
وانظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٩٠/٢، ومعجم البلدان للحموي ٣٦٨/٥، وسيرة ابن هشام ٧٨/١.

الأجداد، فقاتلهم حتى قتلهم، فهدمه وكسره[١].

وكان "سواع" لبني هذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر، وكان منصوباً بمكان يقال له رهاط من بطن نخلة، يعبده من يليه من مضر[٢].

قال رجل من العرب:

تـراهم حـول قبلتهم عكوفاً   كما عكفت هذيل على سواع[٣]

وقد هدم هذا الصنم عمرو بن العاص رضي الله عنه[٤].

وكان "يغوث" لبني أنعم من طيء، ولأهل جرش بن مذحج، وكان منصوباً بجرش[٥].

ويذكر ابن الكلبي أن عمرو بن لحي دفع بهذا الصنم إلى أنعم بن عمرو المرادي، فوضعه بأكمة مذحج باليمن، فعبدته مذحج ومن والاها

---

(١) الأصنام ص: ٥٥-٥٦، وانظر: معجم البلدان للحموي ٣٦٨/٥.

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ٥٧، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩١/٢، وسيرة ابن هشام ٧٨/١.

(٣) بلوغ الإرب للألوسي ٢٠١/٢.

(٤) انظر: معجم البلدان للحموي ٢٧٦/٣، والطبقات لابن سعد ١٤٦/٢معلقاً، ولسان العرب لابن منظور ٢٤/١٠.

(٥) الأصنام لابن الكلبي ص: ٥٧، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩١/٢، وسيرة ابن هشام ٧٩/١.

من أهل جرش[١].

وكان "يعوق" منصوباً بأرض همدان من اليمن، لبني خيوان بطن من همدان[٢].

ويذكر ابن الكلبي أن عمرو بن لحي وضع بهذا الصنم إلى مالك بن مرثد بن جشم، وقد عبدته همدان وخولان ومن والاهما من قبائل، وكان في أرب، قال مالك بن نمط الهمداني:

يـــريش الله في الدنـــيا ويـــبري ولا يـــبري يعـــوق ولا يريش[٣]

وكان "نسر" منصوباً بأرض حمير، لقبيلة يقال لها ذو الكلاع، وقد أعطاه عمرو بن لحي قيل: لذي رعين، يقال له: معد يكرب، فوضعه في موضع "بلخ" من أرض سبأ، فتعبدت له حمير إلى أيام ذي نواس، حيث هودت معه، وتركت عبادته، فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ٣٠، ٧٥، واللسان لابن منظور ١٧٥/٢، ومعجم البلدان ٤٣٩/٥، والروض الأنف للسهيلي ١٠٣/١، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠١/٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٩١/٢.

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص: ٥٧، والروض الأنف للسهيلي ١٠٣/١، واللسان لابن منظور ٢٨١/١٠، ومعجم البلدان للحموي ٤٣٨/٥، وسيرة ابن هشام ٧٩/١-٨٠، وبلوغ الارب للألوسي ٢٠١/٢.

النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بهدمها[١].

وهذه الأصنام الخمسة، قد كانت في قوم نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا..﴾[٢].

ثم انتقلت هذه الأصنام في العرب بعد، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

ويعد الصنم "مناة" أقدم الأصنام التي اتخذها العرب، وكان منصوباً على ساحل البحر، بناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة، وكانت العرب تعظمه، وتذبح حوله، وكان أشد الناس إعظاماً له الأوس والخزرج وغسان من الأزد، ومن دان بدينهم من أهل يثرب (المدينة) وأهل الشام[٤].

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ٥٧-٥٨، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩١/٢، واللسان لابن منظور ٢٠٦/٥، وسيرة ابن هشام ٨٠/١، ومعجم البلدان للحموي ٢٨٤/٥، وبلوغ الارب للألوسي ٢٠١/٢.

(٢) سورة نوح الآية: ٢٢.

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٣-١٤، ٤٣٨، وسيرة ابن هشام ٨٥/١، وأخبار مكة للأزرقي ١٢٤/١، وتاج العروس لمحب الدين الحسيني ٣٥١/١٠، وإغاثة اللهفان لابن القيم ١١٢/٢، وبلوغ الارب للألوسي ٢٠٢/٢.

(٤) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٣-١٤، ٤٣٨، وسيرة ابن هشام ٨٥/١، وأخبار مكة =

ومناة هي التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[1].

وقد كان سدنة هذا الصنم يرتزقون باسمه، إلى أن خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سنة ثمان من الهجرة، وهو عام الفتح، فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس، بعث علياً فهدمها، وأخذ ما كان لها، فأقبل به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان فيما أخذ سيفان كان الحارث ابن شمر ملك غسان أهداهما لها، أحدهما اسمه (مخذم) والآخر (رسوب)، فوهبهما لعلي، فيقال: إنّ ذا الفقار سيف علي أحدهما، ويقال إنّ علياً وجدهما في "الغلس" صنم لطي، حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم فهدمه[2].

ويقال إنّ الذي هدمه أبو سفيان بن حرب[3].

وفي رواية للواقدي إن الذي هدم الصنم هو سعد بن زيد

= للأزرقي ١٢٤/١، وتاج العروس لمحب الدين الحسيني ٣٥١/١٠، وإغاثة اللهفان لابن القيم ١١٢/٢، وبلوغ الارب للألوسي ٢٠٢/٢.

(١) سورة النجم الآية: ١٩.

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٤-١٥، ومعجم البلدان للحموي ٢٠٤/٥، وبلوغ الارب للألوسي ٢٠٢/٢.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٩٢/٢.

الأشهلي[1].

وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بنو مُعَتِّبُ من ثقيف[2].

ويذكر أن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا فيلت سويقهم، وكان ذا غنم، فسميت صخرة اللات فمات، فلما فقده الناس، قال عمرو: إنّ ربكم كان اللات، فدخل في جوف الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات... فاتخذها ثقيف طاغوتاً، وبنت لها بيتاً وجعلت لها سدنة وعظمته وطافت به، وقيل كانت صخرة مربعة، وكان يهودي يلت عندها السويق[3].

وقد هدم اللات أبو سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في جملة من هدم من الأصنام، وأحرق البيت، وقوضت حجابته بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي بعض الروايات، أنّ المغيرة هدمها لوحده[4].

---

(١) المغازي للواقدي ٨٧٠/٢، والطبقات الكبرى لابن سعد ١٤٦/٢ معلقاً.

(٢) البداية والنهاية ١٩٢/٢.

(٣) الأصنام ص: ١٦ وما بعدها، ومعجم البلدان ٤/٥، وأخبار مكة ١٢٦/١، وبلوغ الارب ٢٠٣٤/٢.

(٤) الأصنام ص: ١٧، ومعجم البلدان ٥/٥، والبداية والنهاية ١٩٢/١، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠٣٠٢/٢.

وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجشمي حين هدمت وحرقت، ينهى ثقيفاً عن العود إليها والغضب لها:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها ... وكيف نصركم من ليس ينتصر

إن التي حرقت بالنار فاشتعلت ... ولم تقاتل لدى أحجارها هدر

إن الرسول متى يترل بساحتكم ... يظعن وليس بها من أهلها بشر[1]

وكانت "العزى" لقريش وبني كنانة[2]، وهي أحدث عهداً من اللات ومنات، فقد سمّت العرب بهما قبل العزى، وقد سمى تميم بن مر ابنه زيد مناة، كما سمى ثعلبة بن عكابة تيم اللات، وكان عبد العزى بن كعب من أقدم ما سمت به العرب، وكان الذي اتخذ العزى ظالم بن أسعد[3]، وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له: حراض عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، فوق ذات عرق بتسعة أميال، فبنى عليها بيتاً، وكانوا يسمعون فيها الصوت، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانت قريش تطوف بالكعبة، وتقول: "واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى".

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٨٣، ٢/٤٣٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٩٢، والطبقات لابن سعد ٢/١٤٧ معلقاً.

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٧-١٨، ومعجم البلدان للحموي ٤/١١٦.

وكانوا يقولون: "بنات الله" تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهن يشفعن إليه، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[1].

وحمت لها قريش شعباً من وادي حراض، يقال له: سقام، يضاهون به حرم الكعبة، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها، يقال له: الغبغب، وكانت قريش تخصها بالإعظام، فلذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل، وكان قد تأله في الجاهلية، وترك عبادة الأصنام:

تركت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني غنم أزور

ولا هبلاً أزور وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حلمي صغير[2]

وقد بلغ من حرص قريش على عبادتها، أنه لما مرض أبو أحيحة مرضه الذي مات فيه، دخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: ما

(١) سورة النجم الآيات: ١٩-٢٣.

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ١٨، وأخبار مكة للأزرقي ١/١٢٦، ومعجم البلدان للحموي ٤/١١٦، وبلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٠٣-٢٠٤.

يبكيك يا أبا أحيحة، أمن الموت تبكي، ولا بدّ منه؟ قال: لا والله، ولكن أخاف أن لا تعبد العزى بعدي، قال أبو لهب: والله ما عبدت حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك، فقال أبو أحيحة: الآن علمت أنّ لي خليفة[1].

وكان سدنة العزة بنو شيبان من بني سليم خلفاء بني هاشم، وكان آخر من سدنها دبيه بن حرمي السلمي، فلم تزل كذلك حتى بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، فعاب الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها، فاشتد ذلك على قريش، فلما كان يوم الفتح، دعا النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فقال: انطلق إلى شجرة ببطن نخلة فاعضدها، فانطلق فقتل دبية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد قال له: أئت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها فلما جاء إليه عليه الصلاة والسلام، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثانية، فعضدها، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها فإذ هو بحناسة، (بحيشة) نافشة شعرها، واضعة ثيابها على عاتقها، تصرف

(١) الأصنام ص: ٢٣، ومعجم البلدان للحموي ١١٧/٤.

بأنيابها. وخلفها دبيه السلمي، فلما نظر إلى خالد، قال:

أغـراء شـدي شـدةً لا تكذبي عـلى خالد ألقي الخمار وشمري

فـإنك إن الا تقتلي اليوم خالداً تـبوئي بـذل عـاجل وتنصري

فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه:

يـا عـز كفـرانك لا سبحانك إني رأيـت الله قـد أهـانك

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حممة، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: «تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب، أما إنها لن تعبد اليوم»[1].

قال أبو المنذر: "ولم تكن قريش ومن بمكة يعظمون شيئاً من الأصنام أعظامهم العزى، ثم اللات، ثم مناة، فأما العزى فكانت تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية، وكانت ثقيف تخص اللات، وكانت الأوس والخزرج تخص مناة، وكلهم كان معظماً لها، أي: (العزى) "[2].

وكانت لقريش في جوف الكعبة وحولها أصنام عديدة، يقول ابن الكلبي: "وكان أعظمها عندهم "هبل" وكان فيما بلغني من عقيق أحمر، على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش... فجعلوا له يداً

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ٢٢- ٢٦، وأخبار مكة للأزرقي ١٢٧/١-١٢٨، ومعجم البلدان للحموي ١١٧/٤.

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ٢٧.

من ذهب.

وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة... وكان يقال له هبل خزيمة، وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح، مكتوب في أولها: صريح، والآخر ملصق، فإذا شكوا في مولود أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه، وقدح على الميت، وقدح على النكاح... فإذا اختصموا في أمر، أو أرادوا سفراً أو عملاً، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله"[١].

وفي معركة أحد علا صوت أبي سفيان "أعل هبل"[٢].

ويذكر ابن هشام: أن الصنم هبل كان أول صنم جاء به عمرو بن لحي من مآب بأرض البلقاء[٣].

بينما يذكر السهيلي بأن عمرو بن لحي استورد هذا الصنم من هبت، وهي من أرض الجزيرة بالعراق[٤].

---

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ٢٨، وأخبار مكة للأزرقي ١١٨/١-١١٩، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠٥/٢.

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ٢٨، وسيرة ابن هشام ٩٣/٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٧٧/١، والبداية والنهاية لابن كثير ١٨٨/٢.

(٤) الروض الأنف ١٠٥/١.

وكان لكفار قريش "إساف ونائلة"، على موضع زمزم، ينحرون ويذبحون عندهما تجاه الكعبة، وهما في الأصل كما يذكر ابن الكلبي وابن إسحاق: رجل وامرأة من جرهم، فجرا في الكعبة، أو أحدثا فيها فمسخا حجرين، ووضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما، فلما طال مكثهما، وعبدت الأصنام، عبدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة، والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر[١].

وفي رواية أنهما أخرجا إلى الصفا والمروة، فنصبا عليهما ليكونا عبرة وموعظة، فلما كان عمرو بن لحي نقلهم إلى الكعبة، ونصبهما على زمزم، فطاف الناس بالكعبة وبهما، حتى عُبِدا من دون الله[٢].

ويذكر أن الطائف إذا طاف بالبيت كان يبدأ بإساف، ويستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكان ذلك.. حتى كسرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأصنام يوم فتح مكة[٣].

وأما صنم "ذي الخلصة" فكان صنم خثعم، وبجيلة، وباهلة، ودوس، وأزد السراة، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، قال رجل منهم:

---

(١) الأصنام ص: ٢٩، وأخبار مكة ١١٩/١، وسيرة ابن هشام ٨٢/١، والبداية والنهاية ١٩١/٢، وبلوغ الأرب ٢٠٥/٢-٢٠٦.

(٢) الروض الأنف ١٠٥/١، وأخبار مكة ١٢٠/١، والبداية والنهاية ١٨٥/٢، ١٩١.

(٣) أخبار مكة ١٢٠/١، وبلوغ الأرب ٢٠٦/٢.

لـــو كنت يا ذا الخَلَص الموتورا مثـــلي وكـــان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

وكان أبوه قتل، فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم بنهيه عن ذلك، فقال هذه الأبيات، ومن الناس من ينحلها امْرأ القيس بن حجر الكندي[١].

وكان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكان بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة[٢].

وكانت لهذا الصنم ثلاثة أقداح: الآمر، والناهي، والمتربّص، وكان الناس يأتون إليه للاستقسام[٣].

وفي رواية لابن إسحاق أن عمرو بن لحي نصب ذا الخلصة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونها القلائد، ويهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام[٤].

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ٧٠/٨ حديث: ٤٣٥٥-٤٣٥٧.
وصحيح مسلم ١٩٢٥/٤، حديث: ٢٤٧٦.
وانظر: الأصنام ص: ٣٥، والروض الأنف ١٠٨/١، وسيرة ابن هشام ٨٦/١، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠٧/٢.

(٢) الأصنام ص: ٣٤، وبلوغ الأرب ٢٠٧/٢.

(٣) الأصنام ص: ٤٧.

(٤) أخبار مكة ١٢٤/١.

وقد هدم بنيان ذي الخلصة في الإسلام، وأضرم فيه النار فاحترق، هدمه جرير بن عبد الله البجلي، بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة[١].

وهناك صنم يقال له: "سعد" لمالك وملكان ابني كنانة، وكان صخرة طويلة بفلاة، على ساحل جدة[٢]، وقيل إنه قرب اليمامة[٣].

وقد أورد عنه الإخباريون القصة التالية: "أقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته، فيما يزعم، فلما رأته الإبل، وكانت مرعية لا تركب، وكان يهراق عليه الدماء، نفرت منه، فذهبت في كل فج، فغضب ربها وأخذ حجراً فرماه به، وقال: "لا بارك الله فيك، نفرت عليّ إبلي" ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتيـــنا إلى ســـعد لـــيجمع شملـــنا فشـــتتنا ســـعد فـــلا نحن من سعد

---

(١) قصة تكسير ذي الخلصة في صحيح البخاري مع الفتح ٧٠/٨ كتاب المغازي، باب غزوة ذي الخلصة، الأحاديث: ٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧.
وانظر: دلائل النبوة للبيهقي ٣٩٦/٥-٣٩٧، والأصنام لابن الكلبي ص: ٣٦، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠٧/٢-٢٠٨، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١٠٦/٥.

(٢) الأصنام ص: ٣٦.

(٣) تاج العروس لمحب الدين الحسيني ٣٧٨/٢.

وهـــل ســـعد إلا صخرة بتنوفة[٢] من الأرض لا تدعو لغي ولا رشد[١]

وكان لدوس ثم لبني منهب بن دوس صنم يقال له: "ذو الكفين"، فلما أسلموا، بعث النبي صلى الله عليه وسلم الطفيل بن عمرو الدوسي، فحرقه وهو يقول:

يـــا ذا الكفين لست من عبادكا مـــيلادنا أكـــبر مـــن مـــيلادكا

إني حشوت النار في فؤادكا[٣]

وأما "ذو الشرى" فهو صنم معروف بين العرب الشماليين، ذكر ابن الكلبي أنه كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد[٤].

وأما "الأقيصر"، فكان صنم قضاعة ولخم وجذام وعاملة، وغطفان، وكان في مشارف الشام، وأنشد ابن الأعرابي:

(١) التنوفة القفر من الأرض، وهي المفازة، وقيل: التي لا ماء بها ولا أنيس وإن كانت معشبة. لسان العرب ١٨/٩.

(٢) الأصنام ص: ٣٧، وسيرة ابن هشام ٨١/١، والروض الأنف ١٠٤/١-١٠٥، والبداية والنهاية ١٩١/٢، ومعجم البلدان ٢٢١/٣، وبلوغ الأرب ٢٠٨/٢.

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص: ٣٧، وأخبار مكة للأزرقي ١٣١/١، والطبقات لابن سعد ١٥٧/٢ معلقاً، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠٩/٢، والواقدي ٩٩٢/٣-٩٢٣.

(٤) الأصنام ص: ٣٨، وبلوغ الأرب ٢٠٩/٢، وتاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ١٠٩/٥.

وأنصـــاب الأقيصر حين أضحت تســـيل عـــلى مناكبها الدماء[١]

وكان لمزينة صنم يقال له: "نهم"، وكان سادنه يسمى خزاعي بن عبد نهم، فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول:

ذهبـــت إلى نهـــم لأذبـــح عنده عـــتيرة نسك كالذي كنت أفعل

فقلت لنفسي حين راجعت عقلها أهـــذا إلـــه أبكـــم ليس يعقل؟

أبيـــت فديـــني الـــيوم دين محمد إلـــه الســـماء الماجد المتفضل[٢]

وأما "سعير"، فهو صنم عنـــزه، وكان الناس يطوفون حوله، ويعترون العتائر له، فخرج جعفر بن خلاس الكلبي على ناقته فمرت به وقد عترت عتيرته عنده، فنفرت ناقته منه، فأنشأ يقول:

نفرت قلوصي من عتائر صرعت حـــول الســـعير يزوره ابنا يقدم

وجمـــوع يذكـــر مهطعين جنابة مـــا إن يجـــير إلـــيهم بتكلم[٣]

وعميانس "عم أنس"، هو صنم لخولان في أرضهم، وكانوا يقسمون له من أنعامهم وحروثهم، قسما بينه وبين الله فيما يزعمون، فما

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ٣٨، وبلوغ الأرب للألوسي ٢٠٩/٢.

(٢) الأصنام ص: ٣٩-٤٠، وبلوغ الأرب ٢١٠/٢.

(٣) معجم البلدان للحموي ٢٢٢/٣، وبلوغ الأرب للألوسي ٢١٠/٢.

دخل في حق عميانس "عم أنس" من حق الله الذي قسموه له، تركوه له، وما دخل في حق الله من حق الصنم، ردوه عليه، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

وكان لطي صنم يقال له: "الفلس" وكان أنفا أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجا، أسود كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه ويعترون عنده عتائرهم، ... وكانت سدنته بنو بولان، وبولان هو الذي بدأ بعبادته...، ولم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهدمه[2].

وقد كانت عبادة الأصنام في جزيرة العرب منتشرة انتشاراً واسعاً قبل الإسلام.

---

(١) انظر الأصنام لابن الكلبي ص: ٤٣-٤٤، وسيرة ابن هشام ١/٨٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٩١، وبلوغ الأرب ٢/٢١١.
والآية ١٣٧ من سورة الأنعام.

(٢) الأصنام ص: ٥٩ وما بعدها، والروض الأنف ١/١٠٧، ومعجم البلدان للحموي ٤/٢٧٣، والواقدي ٣/٩٨٤، والطبقات لابن سعد ٢/٦٤، وسيرة ابن هشام ١/٨٧.

يوضح ذلك قول ابن الكلبي: "كان لأهل كل دار من مكة صنم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر مايصنع في منـــزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منـــزله أن يتمسح به أيضاً... واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه، ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم، أو أمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت... فكان الرجل إذا سافر فنـــزل منـــزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث اثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منـــزلاً آخر، فعل مثل ذلك"[1] ا.هـ.

ويذكر الأزرقي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم حينما دخل يوم الفتح، وجد حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعنها ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[3]، كما رأى فيها صور الأنبياء عليهم السلام، فأمر

---

(١) الأصنام لابن الكلبي ص: ٣٣.
وانظر: سيرة ابن هشام ١/٨٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٩١-١٩٢.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨١.

(٣) سورة سبأ الآية: ٤٩.

بها فطمست[1] ا.هـ

بعض معبودات العرب من غير الأصنام:

قد كانت الحياة العقدية قبل البعثة المحمدية اخلاطاً من الضلالات، وأمشاجاً من الأوهام والخرافات، فإلى جانب عبادة الأصنام والأوثان، كان للعرب نحل وديانات أخرى.

فمنهم من عبد الشمس، ومنهم قوم بلقيس ملكة سبأ باليمن، صاحبة القصة مع سليمان عليه السلام، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم، في قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٢١، ١/١٦٥.
وانظر: الكامل لابن الأثير ٢/١٧١ ذكر فتح مكة، وسيرة ابن هشام ٢/٤١٧.

تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1].

ويشير القرآن الكريم إلى عبادة المشركين الجاهليين للأجرام السماوية، ولا سيما الشمس والقمر، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2].

قال الألوسي: "وطائفة أخرى اتخذت القمر صنماً، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، ومن شريعة عبادتهم أنهم اتخذوا له صنماً على شكل عجل، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له، ويصومون له أياماً معلومة من كل شهر، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور، فإذا فرغوا من الأكل، أخذوا في الرقص والغناء، وأصوات المعازف بين يديه، ومنهم من يعبد أصناماً اتخذوها على صورة الكواكب وروحانيتها بزعمهم، وبنوا لها هياكل ومتعبدات لكل كوكب منها هيكل يخصه ، وصنم يخصه، وعبادة تخصه"[3].

(١) سورة النمل الآيات: ٢٠-٢٦.
(٢) سورة فصلت الآية: ٣٧.
(٣) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢١٦.

ومنهم الثنوية الذين اتخذوا إلهين اثنين، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[١].

قال ابن الجوزي:" وهم قوم قالوا صانع العالم اثنان:

ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان لم يزالا، ولن يزالا قويين حساسين، سميعين بصيرين، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل حسن نير صاف نقي، طيب الريح، حسن المنظر، ونفسه نفس خيرة كريمة حكيمة نفاعة، منها الخير واللذة، والسرور والصلاح، وليس فيها شيء من الضرر، ولا من الشر، وجوهر الظلمة على ضدّ ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح، وقبح المنظر، ونفسه نفس شريرة، بخيلة سفيهة منتنة ضرارة منها الشر والفساد"[٢] ا.هـ

وصنف من العرب دهريون، وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا الطبع المحيي، والدهر المفني، وهذا الصنف هم المشار إليه في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

(١) سورة النحل الآية: ٥١.

(٢) تلبيس إبليس ص: ٤٣-٤٤، وانظر: إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/٢٤٤.

يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[١].

وصنف منهم أقروا بالخالق، وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث والإعادة[٢]، وهم الذين أخبر عنهم القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٣].

ومن العرب من يصبو إلى الصابئة، وهم من يعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات، حتى لا يتحرك ولا يسكن، ولا يسافر، ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول مطرنا بنوء كذا...[٤].

وصنف من العرب زنادقة، وهم طائفة من قريش، وقد أخذوها من الحيرة[٥].

والزنديق بالكسر: الثنوية أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو هو معرب [زن دين] أي دين المرأة، والاسم الزندقة[٦].

(١) سورة الجاثية الآية: ٢٤.

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢/٢٣٥.

(٣) سورة يس الآيتان: ٧٨-٧٩.

(٤) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٢٣.

(٥) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٢٨.

(٦) القاموس المحيط للفيروزابادي ٣/٢٤٣.

يقول الدكتور جواد علي: "ولا يستبعد أن يكون المراد بالزندقة التي أشار إليها الأخباريون المجوسية، فقد كان في الحيرة جماعة من الفرس هم مجوس، وقد كان لقريش وتجار مكة اتصال دائم بالحيرة لهم معها روابط وتجارات"(١).

وبعض العرب جعل لله البنات، تعالى الله عن قولهم، قال الله عنهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾(٢).

ومن العرب من عبد الجن، وقد قص الله تعالى ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣).

وقال تعالى حكاية عن قول الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾(٤).

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٣٦٤/٥ بتصرف.

(٢) سورة النحل الآية: ٥٧.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٠٠.

(٤) سورة سبأ الآية: ٤١.

فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(١).

ومن العرب من عبد الملائكة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾(٤).

وأشتات من العرب عبدوا النار، وكأن ذلك سرى إليهم من الفرس

(١) سورة الجن الآية: ٦.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٨٠.

(٣) سورة الفرقان الآيتان: ١٧-١٨.

(٤) سورة سبأ الآية: ٤١.

والمجوس[١]، ومن هؤلاء قوم من تميم، ذكروا منهم زرارة بن عدي وابنه حاجب، ومنهم الأقرع بن حابس والأسود جد وكيع بن حسان[٢].

الأديان السماوية في الجزيرة العربية قبيل البعثة:

كما عرفت الديانات السماوية طريقها إلى أرض الجزيرة العربية قبيل الإسلام.

وقد اختلف المؤرخون في سبب تسرب اليهود إلى الجزيرة العربية، وزمن وصولهم إليها بعد اتفاقهم على أن العنصر اليهودي عنصر دخيل على الجزيرة العربية، نازح إليها من بعيد، لا تربطه بسكان هذه الجزيرة أية رابطة من دين أو لغة أو دم[٣].

وذكر المؤرخون عدة أسباب لتسرب اليهود إلى هذه الأرض، من أشهرها:

١- أن ذلك كان بعد أن قام بختنصر بالإستيلاء على القدس، حيث تفرقت بنو إسرائيل، ونزل بعضهم الحجاز بيثرب، ووادي القرى وغيرها، وهم بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو هدل[٤].

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٣٣.

(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٣٥، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٣٦٤.

(٣) انظر: غزوة بني قريظة لمحمد أحمد باشميل ص: ٣٥-٣٦.

(٤) تاريخ الطبري ١/٣٨٣، وفاء الوفاء للمسهودي ١/١٦٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/٣٩.

٢- أن ذلك كان إثر الحرب التي وقعت بين اليهود والرومان في سنة ٧٠ م، وكانت الغلبة فيها للرومان على اليهود، حيث قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وضربوا فلسطين، ودمروا هيكل بيت المقدس، عند ذلك تفرقت اليهود، وقصد كثير منهم بلاد العرب، فخرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو هدل، هاربين إلى الحجاز، وسكنوا في يثرب[١].

والرأي الأخير هو ما أميل إليه، بالإضافة إلى أن من أهم ما دعا اليهود إلى الإقامة في هذه المنطقة، أنّ علماءهم يجدون صفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل، بين حرتين، ولذلك خرجوا من الشام يعبرون كل قرية من القرى العربية بين الشام واليمن، يجدون نعتها نعت يثرب، فينـــزل بها طائفة منهم، ويرجون ان يلقوا محمداً فيتبعونه، وكان آباؤهم يحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء، فأدركه من أدركه من أبنائهم، فكفروا به، وهم يعرفونه، حسداً للعرب[٢].

هذا وقد اعتنق ملك اليمن الذي اسمه ذو نواس اليهودية، واعتنقها معه كثير من رعيته، وقد أخذ ذو نواس اليهودية من اليهود الذين هاجروا

---

(١) معجم البلدان للحموي ٥/٨٤.

(٢) انظر: وفاء الوفاء للمسهودي ١/١٦٠-١٦١، ومعجم البلدان للحموي ٥/٨٤.

إلى اليمن[١].

وكانت اليهودية في حمير، بعد أن كان الغالب من المجوس وعبدة الشمس، ونحو ذلك...، وكانت اليهودية في كنانة وكندة وبني الحرث ابن كعب، ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود في يثرب وخيبر، ونحو ذلك[٢].

وأما النصرانية:

فقد دخلت بلاد العرب بسبب جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية، في القرن الرابع الميلادي، ولما كانت العلاقات وثيقة بين العرب والبيزنطيين، فقد تأثر العرب بالمسيحية إلى حد ما... فانتشرت في الجنوب عن طريق الحبشة، وفي الشمال عن طريق سورية، وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع... ، وقد انقسمت النصرانية في ذلك الوقت إلى عدة فرق، تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان:

فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة.

واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام.

وكان أهم موطن النصرانية في بلاد العرب نجران[٣].

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ١/١٧٤.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٤٠.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم ص: ٧٣، وموسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ١/١٧٥.

ومن القبائل التي يحشرها أهل الأخبار في جملة العرب المتنصرة: غسان، وتغلب، وتنوخ، ولخم، وجزام، وسليم، وعاملة[١].

وقد وفد أهل نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيهم نزلت آية المباهلة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٢].

وثبت في الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٤١، وتاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٦/٢١٦.

(٢) سورة آل عمران الآيات: ٥٩-٦١.

هذا أمين هذه الأمة»[1].

على أن اليهودية والنصرانية لم تكونا عظيمتي الخطر، واسعتي الانتشار في الجزيرة العربية، فأما اليهودية فكانت دين الشعب المختار -على زعمهم-، وكان دخول العربي فيها لا يحقق المساواة مع اليهود من أبناء إسرائيل، ولذلك لم يقبل العرب أن يدخلوا ديناً يثبتهم في طبقة أسفل من طبقة دعاة ذلك الدين.

وأما النصرانية، فهي مملوءة بالتعقيدات التي لم يستسغها ذهن العربي، ومملوءة بالخلافات الحادة التي سببت الغموض للدين، وصرفت عنه من كان يمكن أن يتبعه من العرب[2].

الموحدون من العرب:

وذكر المفسرون وأهل الأخبار أفراداً من العرب رفضوا عبادة الأصنام والأوثان، واعتقدوا بوجود الله تعالى وتوحيده، وقد عرف هؤلاء الأفراد بالحنفاء، ووصفوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، ولم يكونوا من اليهود ولا من النصارى.

(١) صحيح البخاري ٥/١٢٠ كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران.
ومسلم ٤/١٨٨٢ كتاب فضائل الصحابة، فضل أبي عبيدة بن الجراح.
وأحمد ١/٤١٤.

(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ١/١٧٥.

ومن الرجال الذين أشتهر بأنهم كانوا من هؤلاء الجماعة:

١- قس بن ساعدة الإيادي.
٢- زيد بن عمرو بن نفيل.
٣- أمية بن أبي الصلت.
٤- أرباب بن رئاب.
٥- سويد بن عامر المصطلقي.
٦- أسعد أبو كريب الحميري.
٧- وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي.
٨- عمير بن جندب الجهني.
٩- عدي بن زيد العابدي.
١٠- أبو قيس صرمة بن أبي أنيس.
١١- سيف بن ذي يزن.
١٢- ورقة بن نوفل القرشي.
١٣- عامر بن الظرب العدواني. وغيرهم[1].

قال ابن هشام: "واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به،

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٤٤ وما بعدها، وتاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٥/٣٧٠.

فخلص منهم أربعة... وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف[1] به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم"[2].

ثم قال: " فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده، ومنحه لقب "البطريق" وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتم له مراده، ومات بالشام

(١) الطواف في اللغة: الدوران حول الشيء.
انظر: لسان العرب لابن منظور ٩/٢٢٥، والقاموس المحيط للفيروزابادي ٣/١٧٠.
ومعنى ذلك دورانهم حول الأصنام.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢٢، والروض الأنف للسهيلي ١/٢٥٣.

مسموماً، سمّهُ عمرو بن حفنه الغساني.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه... وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته"[1].

ومن شعر زيد بن عمرو في فراق دين قومه[2]:

أرباً واحداً أما ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي ابن عمرو أزور
ولا هبلاً أدين وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حلمي يسير

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٢٣ وما بعدها، والروض الأنف للسهيلي ١/٢٥٥-٢٥٦.
(٢) الأصنام لابن الكلبي ص: ٢٢، وسيرة ابن هشام ١/٢٢٦، والروض الأنف للسهيلي ١/٢٥٧، وبلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٤٩.

إلى أن يقول:

ولكـــن أعـــبد الـــرحمن ربي لـــيغفر ذنـــبي الـــرب الغفـــور

وذكر ابن هشام أن الخطاب بن نفيل كان يعاتب زيد بن عمرو على فراق دين قومه... ووكل به شباباً من شباب قريش وسفهائها، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة... ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام، ويسأل الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله، ثم انتهى إلى راهب بميفعة (الأرض المرتفعة) في أرض البلقاء، وكان عالماً بالنصرانية، فسأله زيد عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه...[1] فخرج سريعاً حين قال له ذلك الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لخم، عدوا عليه فقتلوه"ا.هـ

وقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله

(١) وكان الرهبان يعلمون ذلك عن طريق البشارات الموجودة في التوراة والإنجيل، وقد تحدثت عن هذا الموضوع في رسالتي الماجستير "منهج القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام".

عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح[1]، قبل أن ينـزل على النبي عليه السلام الوحي، فقدّمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرة... فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلاّ ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له[2].

ومن هنا نستطيع القول بأن من العرب من رفضوا عقائد قومهم الذين يعبدون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، وأن بعضهم قد طاف في البلاد يبحث عن العقيدة الصحيحة، والدين القيم.

وهؤلاء الجماعة لم يكونوا من اليهود، ولا من النصارى، وإنما عبدوا الله تعالى على ما فهموا من دين إبراهيم عليه السلام، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ

(١) بلدح: مكان في طريق التنعيم، ويقال هو واد. انظر: فتح الباري لابن حجر ١٤٣/٧.

(٢) صحيح البخاري بشرح الفتح ١٢٤/٧ كتاب مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل.

مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ب- الحالة الإجتماعية:

أما الحالة الإجتماعية، فقد كان الفرد جزءاً من قبيلته، يعيش لها ويدور في فلكها في كل أمر: خير أو شر، ويعبر عن ذلك قول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلاّ من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[2]

ومن قولهم: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً".

ويقول شاعرهم:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[3]

وكثيراً ما يتخذون من السلب والغارة، وسيلة من وسائل العيش، فيسلبون الأموال والنساء والأولاد، ثم تتربص القبيلة المغار عليها، فتفعل ما فعلت القبيلة المعتدية، بل إنَّ القبيلة تقاتل نفسها إذا لم تجد عدواً من

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٧.

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ١/٣٣٧.

(٣) المرجع السابق ١/٥.

غيرها، يمثل ذلك قول القطامي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلاّ أخانا[1]

وكان من عادات العرب في الجاهلية، أن الرجل يتزوج بزوجة أبيه إذا مات عنها، ويرثها إرث المال.

فقد ذكر العلماء أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[2].

أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت، خطب ابنه امرأته فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال: «ارجعي إلى بيتك»، فنزلت الآية[3].

وعن صلة الرجل بالمرأة في الجاهلية، تروي لنا السيدة عائشة -رضي الله عنها-: " أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: منها

(١) فجر الإسلام لمحمد أمين ص: ٩.

(٢) سورة النساء الآية: ٢٢.

(٣) وقد تزوج أبو قيس هذا المذكور زوجة أبيه أم عبيد الله، وكانت تحت أبيه الأسلت، وتزوج الأسود بن خلف زوجة أبيه ابنة أبي طلحة، وتزوج عمرو بن أمية زوجة أبيه فولدت له أولاداً، وهذا كان كثيراً شائعاً في العرب.
انظر: تفسير الطبري ٤/٣١٨، وأسباب النزول للسيوطي ص: ٦٦، وأضواء البيان للشنقيطي ١/٢٧٧.

نكاح الناس اليوم...

والنكاح الآخر، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد...

ونكاح آخر، يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهذا ابنك يا فلان: تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل...

والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات، تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة[1]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه[2] ودعي ابنه لا يمتنع

(١) القائف: هو الذي يتتبع الآثار ويعرفها، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه، والجمع القافة. انظر: لسان العرب ٢٩٣/٩، والنهاية لابن الأثير ١٢١/٤.

(٢) إلتاطه أي: التصق به. انظر: لسان العرب ٣٩٥/٧، والنهاية ٢٧٧/٤.

من ذلك"[1].

والمجتمع العربي الجاهلي مجتمع طبقي، تفصل بين طبقاته حدود واضحة، فكان فيه:

١- طبقة الأحرار: وهم أبناء القبيلة الصرحاء، الذين يجمع بينهم الدم الواحد، والنسب المشترك.

٢- طبقة الموالي: وهم من انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار، من غير أبنائها عن طريق الجوار، أو الحلف، أو العتقاء من الأرقاء فيها.

٣- طبقة الأرقاء: وهم المجلوبون عن طريق الشراء أو أسرى الحرب، ولكل من هذه الطبقات واجب لا يتعداه، فرضه عليه نظام المجتمع الجاهلي[2].

جـ- الحالة السياسية:

وإذا ذهبنا إلى الحالة السياسية، فإننا نجد أنَّ العرب كانوا جماعات غير منظمة، تعيش عيشة قبيلة، ويحكمها عرف القبيلة وسلطانها، وليس هناك حاكم له نواب ووزراء، وقادة وقضاة،

(١) صحيح البخاري بشرح الفتح ١٨٢/٩-١٨٣ كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلاّ بولي.

(٢) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص: ٣١.

وجيش منظم كما هو معروف، ومع ذلك فهم قوم أحرار لا يملكهم أحد، يثأر المعتدي عليه لنفسه، وعلى قبيلته أن تقوم معه، وتشد أزره.

يقول ابن حزم: " وكانت العرب بلا خلاف، قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد، كربيعة ومضر وأياد وقضاعة، أو ملوكاً في بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر..."[1].

ويوضح المستشرق توماس .و. أرنولد المنهج السياسي عند العرب، فيقول:" لم يكن هناك إطلاقاً أي منهج منظم للإدارة أو القضاء، كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث، وكانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال، وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ القبيلة أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة، شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب، بل كان له مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته، وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس، إذ كان يختار لها –غالباً– أكبر أفراد القبيلة سناً، وأكثرهم مالاً، وأعظمهم

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٨٤/٢.

نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي، وإذا ما تضخمت قبيلته تشعبت فروعاً كثيرة، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلاّ في ظروف غير عادية اشتراكاً في الدفاع عن القبيلة، أو قياماً بغارات بالغة الخطورة"[1] ا.هـ.

ولكن الحرية التي يتحدث عنها أرنولد ليست مطلقة، فإن العربي كان حراً في أن يرفض ما اجتمع عليه أبناء قبيلته، أو أن يأخذ به، لكن هذا الرفض، يعرض صاحبه إلى الطرد والإبعاد، وحينئذ لا يجد له طريقاً سوى الالتجاء إلى قبيلة أخرى، ويصبح مولى من مواليها، أو يعمد إلى الصحراء ليتخذ من السلب والنهب وسيلة للحياة.

وكانت العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة، وقبائل متباغضة، ونحلاً متحاسدة: "لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات، قلما يخلو منها زمان أو مكان، وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة، وجدتها في بعض الأحيان تافهة، كما كان في حروب الفجار... وفي البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه، كالحروب بين عبس وذبيان، وبين بكر وتغلب، ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك، وهي النفور

(١) الدعوة إلى الإسلام لتوماس و.أرنولد ص: ٥١-٥٢.

المتأصل في القلوب"[١].

إنها أمة فرقتها الحروب، وأنهكت قواها الأحقاد والغارات، فلا غرو أن تسقط ممالكها الشهيرة تحت أيدي المحتل الغاصب "فاليمن فقدت استقلالها منذ نهاية الربع الأول من القرن السادس، وسقطت تحت حكم الأحباش، ثم حكم الفرس[٢].

والحيرة فقدت استقلالها بعد أن غيرت فارس سياستها نحوها، بعد أن استنفذت كل طاقتها الحيوية، وجعلت منها إمارة فارسية يحكمها أمير فارسي[٣].

ومملكة الغساسنة، فقدت قوتها كذلك بعد أن غير الروم سياستهم نحوها، فاضطربت أحوالها، وذهبت قوتها، وأصبحت في شبه فوضى.

ومن هنا يظهر لنا إنه لم يبق متمتعاً بالاستقلال سوى مكة، وذلك لبعدها عن مجال التصارع الدولي في ذلك الوقت، وتمتع أهلها بنوع التنظيم الاجتماعي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الأمن الذي حظيت به مكة، فقال

(١) انظر: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ الخضري ص: ٢٤.

(٢) انظر: الكامل لابن الأثير ١/٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٥.

(٣) انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٤/١٠٤.

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[٢].

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٧.

(٢) سورة قريش الآيتان: ٣-٤.

ثانياً: حالة العقائد خارج الجزيرة العربية:

١-الديانة اليهودية:

وإذا انتقلنا إلى الديانة اليهودية، وإلى شعب بني إسرائيل الذين حباهم الله تعالى بكثير من النعم، وبعث فيهم كثيراً من الأنبياء والرسل لدعوتهم إلى الخير، وتحذيرهم من الشر والفساد.

وكانت التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، فيها الهدى والنور، والحث على عبادة الله تعالى وحده، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وفيها كافة التكاليف التي يحتاجها شعب بني إسرائيل في ذلك الوقت، لذلك فإنَّ الله تعالى قد أرسل فيهم بعد موسى عليه السلام عدة رسل وأنبياء؛ لإحياء شريعة التوراة، والحكم بمقتضاها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[1].

وجعلهم الله تعالى يعيشون كالملوك، أعزاء، أقوياء، بعد أن كانوا أذلاء مهانين من قبل فرعون وقومه، وأتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين في زمانهم.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٢).

وعلى الرغم من ذلك كله، نجد أنّ القوم جحدوا نعم الله، وتعالوا في كبرياء، ولم يلتزموا بما أخذوه على أنفسهم من مواثيق، وامتلأ تاريخهم بشتى أنواع المخالفات، وحتى التوحيد الذي هو أصل ديانتهم، لم يسلم من التأثر بما حدث من التحريف والتبديل والتمرّد على تعاليم الدين.

ولعل من أهم ما أصاب التوحيد من التحريف، هو ما أشار الله إليه في القرآن الكريم من قول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾(٣).

وما وصفوا به الخالق جل وعلا من صفات النقص والسوء،

(١) سورة المائدة الآية: ٢٠.

(٢) سورة الجاثية الآيتان: ١٦-١٧.

(٣) سورة التوبة الآية: ٣٠.

والتشبيه، كقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(١).

وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(٢).

وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(٣).

وعن التنقص بالخالق وتشبيهه بالمخلوقين، جاء في سفر التكوين(٤): " أن الله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام، استراح في اليوم السابع، وكان يوم السبت، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك، فحرم فيه العمل".(٥).

وفي هذا يقول الشهرستاني: "وقد اجتمعت اليهود عن آخرهم أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض، استوى على عرشه مستلقياً على قفاه، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى"(٦).

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨١.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦٤.

(٣) سورة المائدة الآية: ١٨.

(٤) سفر التكوين الإصحاح الثاني فقرة: ١-٢.

(٥) انظر الأسفار المقدسة لعلي وافي ص: ٢٥-٢٦.

(٦) الملل والنحل للشهرستاني ٢١٩/١.

ويرد القرآن الكريم على هذا الزعم الباطل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1].

ومن ذلك ما يرويه سفر التكوين من قصة هلاك قوم لوط، وتدمير قريتي: "سدوم" و"عمورة"، إذ يذكر أن ثلاثة رجال وهم: الله وملكان معه، قدموا على إبراهيم وهو جالس أمام خيمته، وأن إبراهيم قد عرف الله من بينهم، ورجاه أن يستريحوا عنده قليلاً من وعثاء سفرهم، وقد إليهم ماء لشربهم وغسل أرجلهم، وأخذ عجلاً حينذاً لطعامهم، فانتحى ثلاثتهم تحت ظل شجرة، وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم، وإبراهيم جالس على مقربة منهم[2]، إلى الخ القصة.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة على حقيقتها، وبين أن الذين وفدوا على إبراهيم عليه السلام، إنّما كانوا ملائكة في صورة آدميين، فظنهم بشراً، فقدم لهم طعاماً، فلم تصل أيديهم إليه، لأن الملائكة لا يأكلون، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى

(١) سورة ق الآية: ٣٨.

ومعنى ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، أي: لم يحصل لنا من تعب، حتى نحتاج إلى الراحة.

(٢) انظر: سفر التكوين الإصحاح: ١٨ من: ١-٨.

قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ...﴾[1].

وعن ملازمة بني إسرائيل لعبادة العجل والكبش والحمل، يقول ديورانت: "لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبي، لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوي، آكل العشب، رمزاً لآلهتهم"[2].

وبعد موسى عليه السلام، وفي عهد القضاء، تأثر بنو إسرائيل بمعبودات الكنعانيين تأثراً كبيراً ويوضح "كنت"، أن إله الكنعانيين "بعل أصبح معبوداً لبني إسرائيل في كثير من قراهم، وفي أحوال كثيرة أصبح للطائفتين معبد واحد، به تمثال يهوه، وتمثال بعل، بل أصبح يهوه ينادى بعل، وقد ظل ذلك إلى عهد يوشع[3].

يقول أحمد شلبي:" ولم يستطع بنو إسرائيل في أية فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الواحد، الذي دعا له الأنبياء، وكان

(١) سورة هود الآيتان: ٦٩-٧٠.

(٢) قصة الحضارة ٣٣٨/٢.

(٣) انظر: اليهودية لأحمد شلبي ص: ١٨٢.

اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحاً في جميع مراحل تاريخهم، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلاّ أن البدائية الدينية كانت طابعهم، وتعد كثرة أنبيائهم دليلاً على تجدد الشرك فيهم، وبالتالي تجدد الحاجة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أي حال، فظهر للتاريخ بدائيون يعبدون الأرواح، والأحجار، وأحياناً مقلدون يعبدون معبودات الأمم المجاورة، التي كانت لها حضارة وفكر قلدهما اليهود"[1].

ولعل من أسباب تحريفهم لكتبهم، هو أنه لما أقبلت عليهم الدنيا، أحبوها، واستولى حب المال على مشاعرهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[2].

فمن أجل حرصهم على المادة، باعوا دينهم في سبيلها، وحرفوا ما أنزل الله عليهم من الكتب، طمعاً في الكسب المادي الرخيص، والعرض الدنيوي الزائل ، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا

(١) أديان الهند الكبرى أحمد شلبي ص: ٢١٣.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٦.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

لقد اعتدى بنو إسرائيل على الأنبياء، ومصادر الرحمة، فأطفأوا مصابيح الهداية، وأصموا آذانهم عن النداء الرباني، فعاشوا في الظلام الحالك، واستحقوا غضب الله ومقته بسبب ذنوبهم، ونقضهم لمواثيقهم.

قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ

(١) سورة البقرة الآية: ٧٩.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧٨.

بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾[2].

ونظر اليهود إلى الإنسانية في ازدراء واحتقار، وزعموا بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، وأن لهم الفضل والسيادة، وغيرهم عبيد وحقراء، ولم يبالوا بما يصنعون بالبشرية، ولم يجدوا غضاضة في أن ينـزلوا الظلم والاستغلال بأي إنسان من غير اليهود.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

وتاريخ اليهود من أوله إلى آخره مليء بالجرائم والمخالفات، ولم يشرق في أفقه سوى فترة قصيرة من الزمن، صبروا فيها فاستحقوا ثناء الله

(١) سورة آل عمران الآية: ١١٢.

(٢) سورة النساء الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧٥.

عليهم، وتفضيله لهم على عالمي زمانهم، أما بعد ذلك، فقد عثوا في الأرض فساداً، وبدأ ذلك في وقت مبكر، إذ لم يكن للمعجزات التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام، أثر ظاهر في تغيير سلوكهم، ولم يتعظوا بما أنزل بفرعون وقومه من الهلاك، إذ ما كادوا يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم حتى قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعندما ذهب موسى عليه السلام ليتلقى الألواح من ربه، وفيها هدى ونور، نسي بنو إسرائيل إلههم الحق، حين رأوا العجل الذي سبكه لهم السامري من الحلي، فتوجهوا له بالعبادة، والطاعة من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[3].

(١) سورة الأعراف الآيتان: ١٣٨-١٣٩.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٤٨.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٥٢.

لقد عبدوا العجل، ولم يردهم عن غيهم نصح هارون لهم، حين قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾(١).

ولما أصر هارون عليه السلام على نصحهم بترك عبادة العجل، هموا بقتله، ولنستمع إليه وهو يعتذر لأخيه موسى في قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

وإذا كان بنو إسرائيل قد هموا بقتل رسول الله هارون، فقد كان القتل من أعظم جرائمهم، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

ولما عتوا عن الحق واستكبروا عن هدايات السماء، مسخهم الله

(١) سورة طه الآيتان: ٩٠-٩١.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٠.

(٣) سورة البقرة الآيتان: ٨٧-٨٨.

وغير قلوبهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وأذاقهم الله جزاء ما صنعوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وعن حالة اليهود قبيل البعثة المحمدية:

يقول أبو الحسن الندوي: "أصبحت اليهودية -أي في القرن السادس الميلادي- مجموعة طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وهي -بصرف النظر عن ذلك- ديانة سُلالية، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، ولا للإنسانية رحمة، وقد أصيبت هذه الديانة في عقيدة كانت لها شعاراً بين الديانات والأمم، وكان فيها سر شرفها، وتفضيل بني إسرائيل على الأمم المعاصرة في الزمن القديم، وهي عقيدة التوحيد التي وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، فقد اقتبس اليهود كثيراً من عقائد الأمم التي جاوروها، أو وقعوا تحت سيطرتها، وكثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود المنصفون، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه:

(إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان، تدل على أن عبادة

(١) سورة الأعراف الآيتان: ١٦٦-١٦٧.

الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائليين، ولم تستأصل شافتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، إنَّ التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود)"[١].

٢-الديانة النصرانية:

أمّا الديانة التي جاء بها المسيح عليه السلام، وما فيها من الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك، وتنـــزيه الخالق جل وعلا، والتأدب بالأخلاق السمحة الرحيمة من الصفح والعفو، والترفع عن حب الدنيا، والعطف على الفقراء والمساكين، وتحمل الأذى، كما جاء في إنجيل متى: " سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأمّا أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر.. بل من لطمك على خدك الأيمن، فاعرض له الآخر أيضاً، ومن أراد أنْ يخاصمك، ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين"[٢].

وجاء في نفس الإنجيل: "لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم، لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وماتشربون، ولا لأجسادكم بما

(١) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص: ٢٠.

(٢) انجيل "متى" الإصحاح الخامس فقرة: ٣٨-٤٠.

تلبسون"[١].

وقال: "ما أعسر دخول ذوي الأموال ملكوت السموات.. وأقول لكم بأنَّ مرور جمل في ثقب إبرة، أيسر من أنْ يدخل غني ملكوت الله"[٢].

فإنَّ هذه الديانة بعد رفع المسيح، لم تظل على ما كانت عليه، بل سرعان ما ذابت في شتى الفلسفات، والنحل الأرضية الأخرى، وتسربت إليها أساطير الوثنيات القديمة، كالبوذية والبراهمية، والإغريقية، والرومانية، وعقائد الفرس والروم وقدماء المصريين، فصار التوحيد تعدداً، وجعلوا الإله الواحد آلهة ثلاثة[٣].

ومن أجل التحريف والتبديل في هذه الديانة، عقدت المجامع، وأصدرت القرارات القاضية بألوهية المسيح، فألوهية روح القدس، أو أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله، وأنَّ مريم العذراء والدة الإله، وأنَّ المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله، وأن المسيح إله حق معروف بطبيعتين:

(١) انجيل "متى" الإصحاح السادس فقرة: ٢٥.

(٢) انجيل "متى" الإصحاح التاسع عشر فقرة: ٢٣ ، وإنجيل "لوقا" الإصحاح الثامن عشر فقرة: ٢٥-٢٦.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٨٨/٦ وما بعدها، والمسيحية لأحمد شلبي ص: ١٣٠ وما بعدها.

طبيعة إلهية، وطبيعة إنسانية بشرية[١].

ومما يؤكد أن عقائد النصرانية الحالية من تثليث وصلب وفداء، قد تسربت إليها عن طريق الوثنيات القديمة، هو وجه التشابه التام فيما بينها، ولو تتبعت هذا الأمر لطال بنا المقام، ولكني أقتصر على بعض ما نقله الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في تفسير المنار —وكما يُقال يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق— [٢].

جاء في كتاب خرافات التوراة وما يقابلها في الديانات الأخرى[٣]، لصاحبه دوان، جاء ما ترجمته بالتلخيص: إنَّ تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة نفسه ذبيحة فداء عن الخطيئة، قديم العهد، بدأ عند الهنود الوثنيين وغيرهم.

وذكر الشواهد على ذلك، منها قوله: "يعتقدون أن كرشنا المولود البكر —الذي هو نفس الإله (فشنو) الذي لا ابتداء له، ولا انتهاء —على رأيهم— تحرك حنواً كي يخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه.

وذكر أن مستر مور قد صور "كرشنا" مصلوباً كما هو مصور في

(١) انظر: تاريخ الدعوة لجمعة الخولي ١/٢٥٩-٢٦٠.

(٢) تفسير المنار ٦/٣٢-٣٣، وانظر: قصص الأنبياء للنجار ص: ٥١٤-٥١٥.

(٣) ص: ١٨١-١٨٢.

كتاب الهنود، مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قمصيه صورة قلب الإنسان معلقاً، ووجدت له صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب.

والنصارى تقول: إن يسوع صلب، وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وقال "هوك" في ص٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسيد أحد الآلهة، وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس من الخطيئة.

وقال "مونيورليمس" في ص ٣٦ من كتابه الهنود: ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية، ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسلاتهم التي يتوسلون بها بعد "الكباترى" وهو: إني مذنب ومرتكب الخطيئة، وطبيعتي شريرة، وحملتني أمي بالإثم، فخلصني يا ذا العين الحندوقية، يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب.

ونقل "هيجين" عن: "اندرار الكروزويوس" وهو أول أوربي دخل بلاد النيبال والتبت، أنه قال في الإله "أندادا" الذي يعبدونه أنه سفك دمه بالصلب، وثقب بالمسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم، وأن صورة الصلب موجودة في كتبهم.

هذا وأما ما يروى عن البوذيين في "بوذا" فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح، من جميع الوجوه، حتى أنهم يسمونه المسيح والمولود الوحيد، ومخلص العالم، ويقولون إنه إنسان كامل، وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر، ويخلصهم من

ذنوبهم، فلا يعاقب عليها، ويجعلهم وارثين لملكوت السموات.

بين ذلك كثير من علماء الغرب، منهم "بيلي" في كتابه تاريخ بوذا، و "هوك" في رحلته، و "مولر" في كتابه تاريخ الآداب السنسكريتية وغيرهم.

ومن أراد المقابلة بين إله النصارى، وآلهة الوثنيين الأولين —في الشرق والغرب– فعليه أن يقرأ كتاب "العقائد الوثنية في الديانة النصرانية" لمحمد طاهر التنير البيروتي، ففيه بلاغ ومقنع ا.هـ.

ومن هذا يتبين لنا أن عقائد النصارى الحالية تحتوي على عقائد وثنية شركية واضحة، وأنها مقتبسة من الوثنيات القديمة.

كما أنّ عقيدة النصارى الحالية أصبحت عقيدة مستغلقة، وتركيبات غير مفهومة، ولذلك فعسير على الذهن السليم أنْ يقبلها ولا تزال —حتى اليوم تصطدم بعقول شبابهم ومثقفيهم، ويحاول رجال الكنيسة بين فترة وأخرى إدخال بعض التفسيرات والتوضيحات من أجل استساغها وقبولها عند جماهير النصارى، ومن ذلك تفسيرهم أخيراً بأنّ البنوة ليست ولادة كولادة البشر، وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة بأنها صفات الله[1].

وعن غموض العقيدة النصرانية الحالية، ووضوح الإسلام وسهولته،

(١) انظر: النصرانية لمحمد أبي زهرة ص: ١١٨، وتاريخ الدعوة لجمعة الخولي ٣٦١/١.

يقول جوستاف لبون في كتابه حضارة العرب: "لو أنك سألت مسيحياً عن عقيدته، لما استطاع أن يجيبك منهم إلاّ المتخصصون، والمتخصصون يجيبونك بكلام غير مفهوم، ولو سألت أي مسلم عن عقيدته، لأجابك لكلام واضح سهل، لا تعقيد فيه، ولا غموض، ولعل هذا سر عظمة الإسلام وانتشاره"[1].

كما طرح الدكتور أحمد شلبي في كتابه المسيحية عدة أسئلة على النصارى، يسألهم فيها عن عقيدة التثليث عندهم، ومن تلك الأسئلة ما وظيفة كل فرد من أفراد هذا الثالوث؟ وكيف يتم فهم وحدة في تثليث، وتثليث في وحدة؟ وما معنى قولهم الابن مولود غير مخلوق، والابن ليس أحدث من الأب؟

ثم يقول: "لقد حاولت جهدي أنْ أصل إلى جواب صحيح لهذه الأسئلة عن طريق القراءة، أو المحادثة مع المسيحيين، ولكن أقرر أنني لم أستطع فهم إجاباتهم، بل صرح كثير منهم... أن هذه المسائل مسائل اعتقادية لا فهم، فاعترضت بأنّها مسائل أساسية، وهي المدخل للدين، فكيف لا تفهم؟ ولكن لم أتلق جواباً على اعتراضي، واتبع بعضهم التعبيرات الإنشائية التي لا توضح مقصوداً، كقول بعضهم (المحبة السرية

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون ص: ٦٨.

التي بين المسيح والله) وقول الآخر: (كل ثروات الولاء والتعبد اختزنت في فكر يسوع المسيح، عوناً على فهم حقيقة الله ..."[1].

ثم ينقل الدكتور شلبي بعضاً من أقوال وآراء القسس النصارى في العقيدة النصرانية، وقد صرحوا بتناقضها، وعدم فهمها، فإليك طرفاً منها[2]:

يقول الدكتور يوسف بوست في قاموس الكتاب المقدس:

"طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق، بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء".

ويقول القس بوطر صاحب رسالة الأصول والفروع في نهاية شرحه لعقيدة التثليث:" قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض، وأمّا في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية".

(١) المسيحية لأحمد شلبي ص: ١٣٤.

(٢) المسيحية لأحمد شلبي ص: ١٣٤-١٣٩، وانظر النصرانية لأبي زهرة ص: ١١٧ وبعدها.

ويقول القس وهيب عطاء الله: "إنَّ التجسد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق، والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية، ولكننا نصدق ونؤمن أنّ هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولاً".

وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندي في تخبط النصارى في عقيدة التثليث، الحكاية التالية: "نقل أنه كان هناك ثلاثة أشخاص يعلمهم بعض القسس، فجاء أحد أصدقاء القسيس، وسأله: هل تعلموا شيئاً من العقائد النصرانية الضرورية، فقال: نعم، وطلب واحداً منهم ليري صديقه ما تعلمه، فسأله عن عقيدة التثليث، فقال: إنك علمتني أنَّ الآلهة ثلاثة أحدهم الذي في السماء، والثاني الذي تولد من بطن مريم العذراء، والثالث: الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثاني، بعد أن صار أبن ثلاثين سنة، فغضب القسيس وطرده، وقال: هذا مجهول، ثم طلب الآخر منهم، وسأله فقال: إنّك علمتني أنَّ الآلهة كانوا ثلاثة، وصلب واحد منهم، والباقي إلاهان، فغضب القسيس أيضاً وطرده، ثم طلب الثالث، وكان ذكياً بالنسبة إلى الأولين، فسأله فقال: يا مولاي حفظت ما علمتني جيداً، بفضل السيد المسيح، إنَّ الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، وصلب واحد منهم، ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد، ولا إله الآن، وإلاّ يلزم نفي الاتحاد "[1].

(١) إظهار الحق ص: ٣٣٧.

والحق إنَّ قول النصارى في التثليث مصادم للعقول السليمة، ومعارض للأصول الثابتة، وتنفر منه الضمائر الحية، وتأباه الفطر السليمة، وفيه تنقص لرب العالمين، ورميه بالعظائم، وتعصّب النصارى لهذا المعتقد حتى اليوم يدل على جهلهم وغباوتهم.

يقول الفخر الرازي: "واعلم أنَّ هذا معلوم البطلان، ببداهة العقل، فإنَّ الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى"(١).

ويقول أبو محمد ابن حزم(٢): "ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه، إذ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٣).

وإذ يقول تعالى حاكياً عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾(٤).

وإذ يقول: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(٥)، لما نطق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج(٦) السخيف.

(١) التفسير الكبير ١٢/٦٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٤٩.

(٣) سورة المائدة الآية: ٧٢.

(٤) سورة المائدة الآية: ٧٣.

(٥) سورة المائدة الآية: ١١٦.

(٦) السمج: القبيح. النهاية لابن الأثير ٢/٣٩٨.

وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى، ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون، ونعوذ بالله من الخذلان.

ولعل من أهم العوامل التي أدّت إلى تحريف النصرانية، دخول بولس "شاؤول" فيها، وقد كان بولس أحد اليهود المغرمين بتعذيب النصارى وفتنتهم عن دينهم، وكان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت، ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن(١)...

وفجأة بينما كان بولس "شاؤول" في طريقه إلى دمشق للمساهمة في تعذيب المسيحين عام ٣٨م زعم أنه رأى يسوع المسيح، وأنه آمن به وتسمى "بولس".

ويذكر لوقا صاحب الإنجيل، هذه القصة في أعمال الرسل فيقول: "وعندما كان بولس قريباً من دمشق، فبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض، وسمع صوتاً قائلاً: شاؤل شاؤل لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال: أنا يسوع الذي تضطهده، فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل. فقال له: "قم وكرز بالمسيحية"(٢).

(١) انظر أعمال الرسل الإصحاح السابع فقرة: ٦٠، والإصحاح الثامن فقرة: ٣.

(٢) انظر أعمال الرسل الإصحاح التاسع: ٣٠-٢٠، وانظر: ترجمة بولس في المسيحية لأحمد شلبي ص: ١٠٤-١٠٩، والنصرانية لأبي زهرة ص: ٨١-٨٨، والأسفار المقدسة لعلي وافي ص: ٧١-٧٢.

ثم يقول لوقا: "وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح إنَّ هذا هو ابن الله"[1] ا.هـ

كما إنه بعد رفع المسيح عليه السلام، وقع على أتباعه اضطهاد عظيم، فشُرِدُوا وعُذِبُوا وقُتِلُوا وصُلِبُوا، حتى كادت تختفي معالم المسيحية من الأرض، بسبب تلك الإضطهادات التي كان يتولاها أباطرة الرومان وعمالهم، وكذلك اليهود.

وأشد ما نزل بهم من الأذى، كان في عهد الإمبراطور نيرون (٦٤ م)، ثم في عهد الإمبراطور ترجان (١٠٦م) ثم في عهد الإمبراطور ديسيوس (٢٥١م)، ثم في عهد الإمبراطور دقلد يانوس (٢٨٤م).

فأما نيرون فقد اتهمهم بأنهم هم الذين أحرقوا مدينة روما، وتفنن في تعذيبهم، إذ كان يأمر أتباعه بوضع النصارى في جلود الحيوانات، ثم يطرحونهم للكلاب فتنتهشهم، كما كانوا يُلْبِسُون بعض النصارى ثياباً مطلية بالقار، ثم يجعلونهم مشاعل يستضيئون بنارها.

وفي عهد ديسيوس، قد عم الخوف الجميع، وفر بعضهم بدينه، وقد أبعد كل مسيحي من خدمة الدولة مهما يكن ذكاؤه، وكل مسيحي

(١) انظر أعمال الرسل الإصحاح التاسع: ٣٠-٢٠، وانظر: ترجمة بولس في المسيحية لأحمد شلبي ص: ١٠٤-١٠٩، والنصرانية لأبي زهرة ص: ٨١-٨٨، والأسفار المقدسة لعلي وافي ص: ٧١-٧٢.

يرشد عنه يؤتى به على عجل، ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة، أنْ يكون هو الذبيحة بعد أنْ يجتهدوا في حمله بالترهيب...

أما دقلد يانوس فقد جاء إلى مصر، وأنزل بها البلاء، وأمر بهدم الكنائس، وإحراق الكتب، وأصدر أمراً بالقبض على الأساقفة وزجهم في غياهب السجون، وقهر المسيحيين على إنكار دينهم، وقتل منهم حوالي ثلاثمائة ألف.

ومن قبل ومن بعد أنزلوا البلاء بعلمائهم، فما تركوا عالماً منهم بالديانة إلا قتلوه، وكان الولاة يتفننون في طرق إبادة النصارى من الوجود، أبادوا العلماء حتى لا يوجد من يرشد إلى النصرانية، ويتوارث العلم بها، وأبادوا الكتب حتى لا تحفظ تلك الديانة في الصدور أو السطور.

واستمر البلاء والاضطهاد ينـــزل بالنصارى والنصرانية من قبل اليهود والرومان حتى جاء عهد قسطنطين، في أول القرن الرابع الميلادي، وقد سمي عصره (٢٨٤-٣٠٥م) عصر الشهداء[1].

(١) انظر المسيحية لأحمد شلبي ص: ٧٠-٧٢، ومحاضرات في النصرانية لأبي زهرة ص: ٣٤-٣٨ و ص: ١٠٦.

ولا شك أنَّ لهذه الإضطهادات الأثر البالغ في فقدان الإنجيل الأصلي، الذي أنزل على عيسى عليه السلام، وفي اضطراب الأناجيل القائمة حالياً، لا سيما أنها ألفت ودونت في تلك الفترة، مما جعل بعض علمائهم يقرون لمناظريهم أنَّ تلك الاضطهادات كانت السبب في فقدان سندها المتصل بصاحب الشريعة[1].

بل الراجح أنّ هذه الأناجيل لا صلة لها البتة بالوحي الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام.

لذلك فإن النصرانية قد أصبحت بسبب تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين ووثنية المتنصرين ركاماً دفنت تحته تعاليم المسيح عليه السلام، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لرب العالمين، وراء هذه السحب الكثيفة.

وقد أصيبت النصرانية بما أصيبت به في وقت مبكر من حياتها، واستمرّ الحال على ذلك حتى "جاء القرن السادس المسيحي، والحرب قائمة على قدم وساق، بين نصارى الشام والعراق، وبين نصارى مصر، حول حقيقة المسيح وطبيعته، تحولت المدارس والكنائس والبيوت ومعسكرات متنافسة، يكفر بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً، كأنها

(١) انظر إظهار الحق لرحمة الله الهندي ص: ٨٣، والفارق بين المخلوق والخالق لعبد الرحمن بك باجة جي زاده ص: ٩ وما بعدها.

حرب بين دينين متنافسين، أو أمتين متحاربتين"[1].

وقد أصحبت النصرانية في شغل شاغل بنفسها عن محاربة الفساد، وإصلاح الأمم.

يتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوي عن المسيحية في القرن السادس الميلادي، فيقول: "لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان، بحيث تقوم عليها الحضارة، أو تسير في ضوئها دولة، ولكن كان فيها أثارة من تعاليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء بولس فطمس نورها، وطعمها بخرافات الجاهلين التي انتقل منها، والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية، والوثنية الرومانية، والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة، كما تتلاشى القطرة في اليَم، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح، ولا تمد العقل، ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين تَحُولُ بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على

(١) فتح العرب لمصر للفرد بتلرج تعريب محمد فريد أبو حديد ص: ٣٧، ٣٨، ٤٧. وانظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص: ٢٣.

تعاقب العصور ديانة وثنية"[1] ا.هـ.

٣- بلاد فارس:

وإذا تجاوزنا بني إسرائيل، وذهبنا إلى بلاد فارس، نجد أن ديانة أهلها أشد اضطراباً وأكثر تعدداً، وأن بنيان هذه العقيدة عبادة النار، وإقامة بيوت للعبادة، وتقديم القرابين لها، والإيمان بالثنوية، أي: الإيمان برب للنور ورب للظلام، وإله للخير، وإله للشر، وأن كلا الإلهين يتنازع النفس الإنسانية والكون وما فيه.

يقول الشهرستاني: "ثم إنّ التثنية اختصت بالمجوس، حتى أثبتوا اثنين مدبرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، يسمون أحدهما النور، والآخر الظلمة، وبالفارسية (يزدان وأهر من)، ولهم في ذلك تفصيل مذهب.. ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين.. أحدهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معاداً.."[2].

وجاء – زاردشت ٦٦٠-٥٨٣ ق.م يهذب من عبادة المجوس، ويصلح من عقيدتهم، فما خرج كثيراً عنها، فقد ادعى أن النور والظلمة

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ٢٨.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ٢٣٢/١.

أصلان متضادان، وأن الخير والشر والصلاح والفساد، والطهارة والخبث، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، وهما يتعاونان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة، والخير الشر، ثم يتخلص الخير إلى أعماله، والشر ينحط إلى أعماله، وذلك سبب الخلاص.."[1].

وظهر "ماني" في أواخر القرن الثالث المسيحي، يزعم أن العالم مصنوع، مركب من أصلين قديمين، أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا، وفرض على أصحابه العشر في الأموال كلها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق وترك الكذب، والقتل والسرقة، والزنا والبخل، والسحر وعبادة الأوثان، ... واعتقاده في الشرائع والأنبياء: أن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر، ثم بعث شيئاً بعده، ثم نوحاً بعده، ثم إبراهيم بعده عليهم الصلاة والسلام، ثم بعث بالبددة إلى أرض الهند وزرادشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم النبيين إلى أرض العرب[2].

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٢٣٧/١.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ٢٤٨/١.

ومن بعد ماني ظهر "**مزدك**"، فرأى أن سبب الكراهية بين الناس، إنما تقع بسبب المال والنساء، فزعم أنه ليس هناك وسيلة لإزالة أسباب الشقاق والخلاص بين الناس، إلاّ بجعل الأموال والنساء مشاعاً حراً يأخذ منه من يشاء ما يشاء..

يقول الشهرستاني: "أحل –مزدك– النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ"[1].

وتحت ظلام هذه العقائد المزيفة، عاش الفرس يعانون قسوة الملوك، وتجبر الحكام الذين انتهزوا هذا الجهل المطبق، فادعوا أنهم من عناصر علوية مقدسة، وبنوا ادعائهم على مذهب "مترا" أحد مصلحيهم الذي رفع سلطان الملوك إلى عرش السماء، وقال: "إن الشمس تشع عليهم قبساً من نورها، وهالة من بركتها، فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله في عليين.."[2].

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر، لا يجري اسمهم على

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٢٤٩/١.

(٢) الله، للعقاد ص: ٩٨.

لسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أنّ لهم حقاً على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم، وأنّ ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم، إنّما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة[1].

٤– بلاد الهند:

وإذا تجاوزنا بلاد فارس إلى ما وراءها من أرض المشرق، فإننا نجد الهند وما فيها من ديانات باطلة، وأفكار ساذجة، وأوضاع اجتماعية جائرة، تقوم على التفرقة الإنسانية بين الطبقات.

يقول الشهرستاني:" الهند أمة كبيرة، وملة عظيمة، وآراؤهم مختلفة، منهم البراهمة، وهم المنكرون للنبوات أصلاً، ومنهم من يميل إلى الدهر ومنهم من يميل إلى مذهب الثنوية، ويقول بملة إبراهيم عليه السلام، وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها، فمن قائل بالروحانيات، ومن قائل بالهياكل، ومن قائل بالأصنام، إلاّ أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها، وكيفية أشكال وضعوها، ومنهم حكماء على طريقة اليونانيين علماً وعملاً "[2].

(١) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص: ٤٠.

(٢) الملل والنحل ٢٥٠/٢.

ويقول أبو الحسن الندوي: "اتفقت كلمة المؤرخين في تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً كان ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي.. فقد شاركت الهند جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن.. وقد بلغت الوثنية أوجها، ووصل عدد الآلهة إلى ٣٣٠ مليوناً، وقد أصبح كل شيء رائعاً، وكل شيء جذاباً، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد.

وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة الحصر، وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله.. وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومعادن كالذهب والفضة تحمل سر الألوهية، وأنهار وآلات حرب، وآلات التناسل، وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية، وغير ذلك.

وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير، وأناشيد وعقائد، وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

وقد ارتفعت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية، وقد عكفت الطبقات كلها، وعكف أهل

البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام.."[١].

والحق إنَّ فطرة الهند تنادي بأن الله واحد، ولكن جهلهم وضلالهم طمس هذه الفطرة، فأشركوا بالله الواحد مخلوقاته المسخرة بأمره.

انظر إلى قولهم في بعض أناشيدهم الدينية:

"إنني أنا الله، نور الشمس، وضوء القمر، وبريق اللهب، وميض البرق، وصوت الرياح، وأنا الرائحة الطيبة التي تنبعث في أنحاء الكون، والأصل الأزلي لجميع الكائنات، وأنا حياة كل موجود، وصلاح الصالح، أنا الأول، والآخر، والحياة، والموت لكل كائن"[٢].

أما الشهوة الجنسية، فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم، بشكل ليس له مثيل، حتى عبدوا آلة التناسل، لإلههم الأكبر "مهاديو" وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال.. زد على ذلك أن بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات، والنساء يعبدون الرجال العراة..[٣]

ويقرر دين البراهمة في الهند التفرقة بين الناس من حيث العبادة والزلفى لبراهما إلههم الأكبر، وانقسم الناس من حيث مهنهم التي تتوارث

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ٤٦-٤٧.

(٢) ذيل الملل والنحل لمحمد سيد كيلاني ص: ١٠.

(٣) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص: ٤٨-٤٩.

وتصير المهنة عندهم أصلاً نسبياً ينتقل من الأصول إلى الفروع، ومن الفروع إلى فروعهم، إلى أربع طبقات:

١- البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين، ويزعمون أنهم خلقوا من رأس إلههم "براهما" ولذلك كانوا أعلى الناس، لأنهم خلقوا من أعلى الإله.

٢- طبقة الجند ورجال الحرب، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب إلههم براهما، ويديه، ولهذا فهم الحماة والغزاة ومواطن القوة.

٣- طبقة رجال الزراعة والتجارة، وهم مخلوقون من ركبتي إلههم.

٤- طبقة الخدم والرقيق، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمي إلههم، فهم أحط الطبقات، وأبعدها لبعدها عن رأس براهما.

وهناك فريق من الشعب الهندي لا يدخل في هذه القسمة الجائرة، وهم المنبوذون، وهم الذين يتناولون الأعمال الحقيرة في المدن، وقد حال انحطاط شأنهم دون اعتبارهم، حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء[1].

وديانة المنبوذين تنحصر في عبادة الأرواح، وأعظم الآلهة عندهم

(١) انظر: خاتم النبيين لأبي زهرة القسم الأول ص: ١٩-٢٠، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ٤٩، وذيل الملل والنحل ١٣/٢.

يظهر في شكل "كومة" من الآجر، أو في هيئة أخرى ساذجة، وهذا الإله هو الذي يمنح الخصب للعواقر، ويحمي المحاصيل من الآفات، ويرعاهم برعايته وعنايته، ولكل مدينة إلهها[1].

ومن هذه الإشارة العابرة عن الهند، يتبين لنا ما وصل إليه الكفر الهندي من انحطاط كبير في جميع نواحي الحياة الدينية والأخلاقية والإجتماعية، وأصبح في حاجة ماسة إلى من ينير له الطريق، ويرشده إلى الهدى.

٥- بلاد الصين:

أما الأمة الصينية، فإنها قد عاشت بلا دين صادق، أو عقيدة ثابتة، وإنّما توجهت إلى طبيعة الحياة تستلهم منها معنى الإله الحق، فعبدت السماء وما فيها من كواكب، وعبدت الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار، وعبدت الأموات من أبطالها السالفين الذين بقيت ذكرياتهم حية في قلوبهم، فقدمت لهم ألواناً من العبادة والطاعة.

وبعد قرون طويلة، استقر الصينيون على أديان ثلاثة، وهي:

١-الكنفوشية.

٢-البوذية.

(١) ذيل الملل والنحل ١٣/٢.

٣-التاوزمية[1].

واشتهر حكيمهم ومعلمهم "**كونفشيوس**" بالإخلاص في الدعوة إلى إصلاح النفس الإنسانية، وتكوين مجتمع سليم، قوامه المحبة والإخاء، والعدل والطاعة والرضا.. يقدمها الولد لوالده، والأخ الأصغر للأخ الأكبر، والمحكوم لحاكمه.

كما اشتهر بجملة من الفضائل كالصدق والإخلاص، والقناعة والصمت، إلاّ فيما يجب الكلام فيه، ومعاملة الناس بالرفق والمودة، وغير ذلك من الفضائل.

لكن "**كونفشيوس**" لم يهتد إلى الحياة الأخرى، فأنكر الجنة والنار، والثواب والعقاب، وقد سأله بعض تلاميذه مرة عن الموت، فقال: إننا لم ندرس الحياة بعد، فكيف ندرس الموت!!

ومات "**كونفشيوس**" فتوجه الصينيون إلى روحه بالعبادة والتقديس، وأقاموا لها الهياكل، وقدموا لها القرابين، وانتقلت عبادة هذا الفيلسوف عبر الأجيال إلى يومنا هذا[2].

وعلى مثال "**كونفشيوس**" كان الفيلسوف "**لاوتسي**" وهو أسن

(١) انظر: ذيل الملل والنحل لمحمد سيد كيلاني ١٩/٢.

(٢) انظر: ذيل الملل والنحل ٢٢/٢-٢٦، بتصرف، وموسوعة النظم والحضارة لأحمد شلبي ٣١/٣، والديانات القديمة لرشدي عليان وزميله ص: ١٠٧ وما بعدها.

من صديقه، وكلاهما دعا إلى الخير والفضيلة، إلاّ أنهما افترقا في الخلق والمزاج، وإن اتفقا في العقيدة والإيمان.

فلاوتسي يقول: "من كان طيباً معي، فأنا طيب معه، ومن أساء إليَّ فأنا طيب معه كذلك، فلنجز السيئة بالحسنة، ولنعمل الطيب على كل حال..".

أما **كنفشيوس**، فهو يوصي بأن تقابل السيئة بالعدل، وأن يقابل الإحسان بالإحسان[1].

وأتباع **لاوتسي** ينون منهجهم على التصوف، واحتقار العادات القديمة، والإعتقاد بأنَّ الدرس والتحصيل والتفكير العقلي ليس وسيلة لاكتساب المعرفة، إنّما سبيلها تطهير النفس والتدرج في كمالاتها إلى مرحلة الاتصال التام، أو الوحدة التامة بين الفرد والقانون الأعظم.

كما دعا **لاوتسي** إلى هجر العمل، والاقتصار على التأمل والتجربة الصوفية، وبعد وفاة **لاوتسي** أفسدت تعاليمه، وتفشت فيها الأساطير، وضمّت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيداً، وخروجاً عن المألوف.

وحدث في الصين مثلما حدث في الهند بالضبط، وذلك أن نشطت

(١) انظر كتاب الله للعقاد ص: ٨٤.

فكرات السحر البدائية، وتحركت الأساطير البشعة التي ظهرت في الماضي تكافح ضدّ التفكير الجديد في العالم، ونجحت في أن تسدل عليه ساتراً سابلاً من طقوس غريبة مضحكة، وغير معقولة، وعتية بالية[1].

وليس من الغريب أن تنتقل أكبر ديانات الهند إلى الصين، وتلك هي -البوذية- التي نشرها الهنود والصينيون الذين ذهبوا إلى الهند، وعادوا إلى قومهم حاملين رسالة البوذية، إلاّ أنهم حين نقلوها كانت قد فقدت بساطتها، وتحولت إلى عبادة تماثيل وصور.

يقول الأستاذ أيشوراتوبا: " لقد قامت في ظل البوذية دولة تعني بمظاهر الآلهة، وعبادة التماثيل"[2].

نظرة عامة على الوضع العالمي

الجزيرة العربية انتشرت فيها العقائد الفاسدة، وجرفتها تيارات العصبية الممقوتة، وسادت فيها الأوضاع الاجتماعية الجائرة..

وبنو إسرائيل حرفوا وغيروا كتب الله وشرائعه، وكفروا بنعمه، وركنوا إلى المادة، وأصبح بأسهم بينهم شديد..

والفرس والهند هذه البلاد ضلت طريقها، وعاشت في ظلام الشك

(١) انظر موجز تاريخ العالم تأليف هـ. ج. ولز ص: ١٣١.

(٢) المجتمع الإسلامي لأحمد شلبي ص: ٣٣.

والجهل، والأوهام والبهتان..

وعلى هذه الشاكلة كان العالم يعيش بأسره في الصين وإسبانيا، وفرنسا وإنجلترا، وافريقيا وغيرها، فلم يبق موضع إلا وإنسان يمرغ نفسه أمام صنم، ويذل عزته وكرامته أمام الأرباب، ونسي الإنسان إنسانيته أمام الشهوة والشيطان، وضاع حقه بل كيانه لإطماع المستبدين.

ففي إسبانيا وفرنسا الجنوبية كان شعب "الويزيجو" الأوربيين يصاولون الملك **كلوفيس** وأولاده الكاثلوكيين، وفي فرنسا نفسها، كان أولاد **كلوفيس** هذا متقادرين متسافكين، وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين المملكة "الويزيجوتية" و "بروهو" والمملكة الفرنكية "فيريد يجوند" تهيء للتاريخ أشد الصحائف إثارة للأسى والكمد.

أما في إنكلترا فكان "الأنجلو" ينازعون "السكسونيين" الأرض التي احتلوها، واستعبدوا فيها ذرية "كيمريس"، وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة، التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علماً وصناعة وقوة، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة.

أما في أفريقيا، فكان اليونان الرومانيون أنفسهم -وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام، مجموعين من آفاق مختلفة- دائبين على امتصاص دم القطر المصري، وعاملين على جعل مصر العلمية، ذات المجد القديم

كالجثة المصبرة، عديمة الحس والحراك، وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبية وقتئذ، الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي انتزعوها من أيدي الفندالين.

لقد كانت دولتا العالم، دولة الفرس في الشرق، ودولة الرومان في الغرب، في تنازع وتجالد مستمر.. دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة، وأموال هالكة، وظلم من الاحن حالكة..

ومع ذلك فقد كان الزهو والترف، والإسراف والفخفخة، والتفنن في الملاذ بالغة جداً ما لا يوصف في قصور السلاطين والأفراد والقواد، ورؤساء الأديان من كل أمة، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد، فزادوا في الضرائب، وبالغوا في فرض الإتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوى في احتطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر، والذل، والاستكانة، والخوف، والاضطراب، لفقد الأمن على الأرواح والأموال[1].

يوضح هذه الصورة المحزنة لحال العالم قبيل البعثة الأستاذ أبو الحسن

(١) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص: ١١٧.

الندوي في كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، فيقول: "أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة، والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال، والاحتلال وسوء النظام، وعسف الحكام، وشغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري"[1].

ويقول الندوي تحت عنوان: **ظهر الفساد في البر والبحر:** "وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء"[2].

ثم يقول تحت عنوان: العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم: "بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً، فإذا كل شيء فيه في غير محله.. نظر إلى

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ٢٨.

(٢) المرجع السابق ص: ٦٣.

العالم بعين الأنبياء، فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضر، رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته..، وفسد نظام فكره..، وفسد ذوقه..، رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم، وكل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله..، فقد أصبح فيه الذئب راعياً، والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظياً، والصالح محروماً شقياً..، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك.

ورأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حدّ الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حدّ الإغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حدّ الجشع..، ورأى القسوة والظلم إلى حدّ الوأد وقتل الأولاد.. رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً[1]، ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله، يأكلون أموال الناسْ بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

المواهب البشرية ضائعة أو زائفة، لم ينتفع بها، ولم توجه التوجيه الصحيح، فعادت وبالاً على أصحابها، وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والجود تبذيراً وإسرافاً، والأنفة حمية جاهلية،

(١) خولاً: أي عبيداً وخدماً.
انظر: لسان العرب ١١/٢٢٤.

والذكاء شطارة وخديعة، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات والإبداع في إرضاء الشهوات.

رأى الأمم قطعاناً من الغنم، ليس لها راع، والسياسة جمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه "[1] ا.هـ.

وخلاصة القول في هذا، أنّ جو العالم كله كان يموج بالإضطرابات الوحشية إلى حدّ كبير، وذلك على حدّ قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلاّ بقايا من أهل الكتاب..»[2] الحديث.

وكان اعتماد الناس على وسائل الشر، أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير، ونستطيع أن نقول إنّ الإنسان في تلك الفترة قد فقد عقيدته، ونظام حياته، حيث عم الفساد والانحطاط، وأصبح التطلع إلى المنقذ وإلى رسالة السماء، والخروج من ذلك الكابوس أمراً ضرورياً، ولعل ظاهرة "التحنف" أصدق دليل على هذا التطلع والترقب.

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص: ٧٨-٧٩.
(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عياض المجاشعي ٤/٢١٩٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم: ٦٣.
وأحمد في المسند ٤/١٦٢.

جهاد شيخ الإسلام

هكذا يوجز تقي الدين المقريزي ظهور شيخ الإسلام المفاجئ.

وفور ظهوره اجتمعت الفرق الموجودة على مُحاربته، فحاربَهم كلهم وحده، مستعينًا بالله وحده، ومُلْجئًا ظهره إليه سبحانه، فناظر الفلاسفة فأفحمهم، وناظر المنطقيين فأسكتهم وألقمهم حجرًا، وناظر علماء الكلام على اختلاف منازلهم ومذاهبهم فحيرهم فانقلبوا حائرين لا يدرون ماذا يفعلون، وخاصم المتفقهة المتعصبة، فذبذبَهم، فباتوا مترددِّين، وناقش المتصوفة وأسيادهم جَماعة وحدة الوجود، فجهَّلهم، فلم يسعهم جَميعًا إلا اللجوء إلَى أسلوب المغلوبين العاجزين، الذين يريدون الانتقام من الخصم الغالب بأي ثَمن وبأي أسلوب، فتقدموا إلَى السلطة يشكون، مستخدمين أسلوبًا فرعونيًّا لإثارة الشعور: إلَى متى السكوت؟! إنه خالف الإجْماع، وسفهنا جَميعًا، وجاء بدين جديد ... إلَى متى السكوت والحالة ما وصفنا؟! إنه [يريد أن يبدل ديننا أو أن يظهر فِي الأرض الفساد؟] أسلوب فرعوني مكرر.

من هنا دخلت حياة شيخ الإسلام مرحلة جديدة: سجن، ونفي، وتَهديد، بيد أن ذلك كله لَمْ يؤثر فِي عمل الشيخ؛ فالتدريس مستمر، ينفى من دمشق إلَى القاهرة، فيتربع الشيخ على كرسي التدريس لينشر

14

دررًا من المسائل العلمية، فيلتف حوله طلاب العلم، فيفيدون منه العلم أحكامًا وعقيدة، فيتضايق الوشاة من الطوائف، فيتحركون بالشكوى وطلب النفي أو السجن، فيسجن الشيخ، فيتحول السجن مدرسة ومسجدًا وخلوة، فيستغيث الوشاة بالسلطة، فينفي الشيخ إلَى دمشق، فيحيي المساجد بالعلم والمذاكرة، فترتفع أصوات الحاقدين بالشكوى، فينقل الشيخ إلَى خلوته فِي قلعة دمشق ... وهكذا دواليك؛ نفي وسجن وتدريس وفتوى وتأليف ... هكذا قضى شيخ الإسلام حياته كلها فِي خدمة الإسلام والمسلمين، وإن كان أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة.

وفِي هذا المعنى يتحدث عنه تلميذه ووارث علمه ومنصبه فِي الدعوة والإصلاح العلامة ابن القيم -رحمه الله-؛ حيث يقول: "ابتلي الشيخ من علماء السوء كما ابتلي غيره من الصالحين، وما محنة إمامه المجاهد العظيم أحمد بن حنبل إلا مثال لما تبتلى به العقول المصلحة، ولكنه يصبر ويَحتسب، بل يعد السجن نعمة من الله عنده".

ثُمَّ قال ابن القيم: "يقول شيخ الإسلام فِي ورقة كتبها من السجن: ونَحن فِي نعم عظيمة لا تُحصى ولا تعد، الحمد لله حَمْدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه".

ثُمَّ قال بعد كلام طويل: "كل ما يقضيه الله فيه الخير والرحمة والحكمة".

فيقول الشيخ عبارته المشهورة: "إن فِي الدنيا جنة؛ من لَمْ يدخلها؛ لَمْ يدخل جنة الآخرة".

ثُمَّ يقول: "ما يصنع أعدائي؟ أنا جنتِي وبستانِي فِي صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقنِي، أنا سجنِي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة".

يقول العلامة ابن القيم بعد نقل هذه العبارة المثيرة لمن كان له قلب حي: "لا يقول مثل هذا القول إلا عظماء الرجال، الذين لا يَهمهم ما يلاقون من سجن أو قتل أو نفي فِي سبيل ما يعتقدون".

ثُمَّ يقول: "ما أقلهم! حقًا ما أقلهم! بل هم اليوم أقل، هل يوجدون؟!".

والله المستعان.

* * * * *

مغالطة النفاة في لقب التشبيه والتجسيم

بالغ النفاة فِي نفي صفات الله، حَتَّى سمَّوا ذلك توحيدًا كما تقدم، ثُمَّ أخذوا يبالغون فِي التشنيع، فأطلقوا على من يثبت الصفات أنه مشبه ومُجسم، وهم يعلمون لولا المغالطة أن الأقسام العقلية ثلاثة:

١- **إثبات الصفات.**

٢- **تعطيل الصفات.**

٣- **التشبيه.**

فالتعطيل نتيجة المبالغة فِي التنْزيه على غير هدى، والتشبيه نتيجة المبالغة فِي الإثبات على غير هدى، وأما الإثبات؛ فهو الوضع الثابت، وهو الحق، فالحق دائمًا هو الوضع الثابت، والباطل هو الأمر الطارئ، يأتِي مُخالفًا للثوابت.

ولتحقيق الحق، ووضعه فِي موضعه الثابت، وبيان الباطل، لابدَّ لنا من مناقشة هذه المغالطة.

وإذا استقرأنا كتاب الله والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ وآثار سلف الأمة، وتتبعنا واقع الناس فِي كل زمان ومكان؛ نَجد المشبِّهة فريقين لا ثالث لَهما:

الفريق الأول: مشبهة الخالق تعالى بِخلقه فِي ذاته وصفاته وأسْمائه

وأفعاله؛ كأتباع هشام بن حكم وغيرهم، الذين يقولون: إن الله تعالى على هيئة كذا وكذا، بل يقولون -فِي وقاحة وصلف-: إنه تعالى على هيئة الشاب الحسن! هكذا يفعل الهوى بأهله، و"إذا لَمْ تستح؛ فاصنع ما شئت"، ويقولون فِي صفات الله: إنَّها كصفات خلقه؛ إذ لا يعقل خلاف ذلك فِي زعمهم.

فإذا قيل فِي باب الأسْماء والصفات: المشبهة؛ فهم المرادون لدى أهل العلم والمعرفة، ولا يوجد لَهم اليوم بِحمد الله تعالى مذهب قائم له كيانه ودعاته كالفرق الأخرى، وذلك تَخفيف من الله ﷻ، وهو-العليم الحكيم.

وأما اعتقاد الذين يعتقدون أو يغالطون أن كل من أثبت لله تعالى صفاته الواردة فِي كتابه أو فِي سنة رسوله على ظاهرها اللائق بالله تعالى فهو مشبه ومُجسم؛ فهذا اعتقاد فاسد وظن سيئ؛ لأن القسمة ثلاثية كما تقدم: إثبات، وتعطيل، وتشبيه.

وتفصيل ذلك معلوم لدى طلاب العلم، والحق واحد لا يتعدد، وواضح لا يلتبس على من طلبه من مظانه، وهو كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، وهو أبلج، ولكنَّ الباطل لجلج، ولو اطرد الباب، فأطلق على كل من أثبت صفات الله: أنه مشبه ومُجسم؛ لأدَّى ذلك إلَى الحكم على سادة الأمة وخيرها من الصحابة والتابعين أنَّهم مشبهة ومُجسمة؛ لأنَّهم يثبتون صفات الله دون أدنى توقُّف، فِي ضوء الآيات والأحاديث الواردة وليس ذلك بضارهم شيئًا؛ لأن الألقاب لا تغير الحقائق والاصطلاحات

إنَّما تَخص أهلها، ولا تلزم غيرهم.

فلفظ الجسم يختلف فيه الناس دائمًا كما هو شأن كل الألفاظ المصطلحة، والنفاة قد يريدون بالجسم كل ما يوصف بالصفات، ويرى بالأبصار، ويتكلم بكلام، ويبصر ببصر، هذه المعاني ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به كما تقدم، دون أن يشركه أحد في حقائق صفاته وخصائصها ولوازمها، وإن حصل الاشتراك بين صفاته تعالى وصفات خلقه في المطلق الكلي الذهني الذي لا وجود له في الخارج؛ مثاله: علم مطلق غير مضاف لا إلَى الخالق ولا إلَى المخلوق، ولا يَختلف العقلاء في أن المطلق الكلي لا وجود له إلاَّ في الذهن، والذهن قد يتصور المستحيلات؛ لأنه حرٌّ في خيالاته، وأما الموجود في الخارج؛ فلا يوجد إلا مُختصًا معينًا.

لذلك نقول: بعد إضافة صفة الخالق إلَى الخالق سبحانه، وإضافة صفة المخلوق إلَى المخلوق، لا يوجد اشتراك بين صفة الخالق وصفة المخلوق، بل صفة الخالق كما يليق به، وصفة المخلوق كما يناسبه ويناسب حدوثه، وهذا أمر في غاية الوضوح عند أصحاب هذا الشأن؛ فليفهم جيدًا؛ لأنه مهم جدًّا، ومن ثبتت عنده هذه الحقيقة؛ استراح وأراح، وقبل ذلك؛ فهو قلق دائمًا، فلا يذوق برد اليقين.

فانطلاقًا مما قررنا؛ فإننا لا ننفي صفات الله عنه؛ خشية أن تطلق علينا المعطلة أننا مشبهة ومُجسمة، وهل نسبُّ أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم؛ لئلا تطلق علينا الروافض بأننا نواصب؟! بل نُحب

أصحاب رسول الله جَميعًا، ونترضى عنهم؛ دون أن نفرق بين أحد منهم، بل هل ننفي القدر ونكذب به لئلا تصفنا القدرية بالجبر؟!

كلا، وكما أسلفنا: إن الاصطلاحات لا تغير حقائق الأمور في جوهرها!

وما ألطف كلام العلامة ابن القيم في هذا المعنى وما أصدقه؛ إذ يقول في قوة وشجاعة:

"ولا نرد ما أخبر به الصادق عن الله تعالى وأسْمائه وصفاته وأفعاله؛ لتسمية أعداء الحديث وأهله لنا حشوية، ولا نَجحد صفات خالقنا وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة من يثبت ذلك مُجسمًا مشبهًا".

ثُمَّ يقول -رحمه الله-:

"فإن كان تَجسيمًا ثبوت استوائه ... على عرشه إنِّي إذن لَمُجسِّم
وإن كان تشبيهًا ثُبوت صفاته ... فمِنْ ذلك التشبيه لا أتكتَّمُ
وإن كان تنْزيهًا جحود استوائه ... وأوصافه أو كونه يتكلَّمُ
فعن ذلك التَّنزيه نزهتُ ربنا ... بتوفيقه والله أعلى وأعظم

ثُمَّ يقول العلامة ابن القيم -رحمه الله-:

"رحمة الله على الإمام الشافعي حيث فتح للناس هذا الباب في قوله:

أيا راكبًا قف بالمُحَصَّب من مِنى ... واهتِف بقاعد خيفها والنَّاهض
إن كان رفضًا حبُّ آل مُحمَّد ... فليشهد الثقلان أنِّي رافضي

وهذا الأسلوب الذي استخدمه العلامة ابن القيم، وسمَّاه بابًا فتحه الإمام الشافعي للناس، لو تتبعناه ووقفنا عنده لنطبقه على دعاة اليوم؛ لوجدناهم مُختلفين: دعاة أوذوا في سبيل الله كما أوذي الأولون في بيان الحق والنصح للعباد في عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم وأحكامهم وسياساتهم، حتَّى لقبوا بألقاب تنفر الناس منهم؛ من وهابية، وأصحاب الدين الجديد، والمذهب الخامس ... وغير ذلك من أنواع التنفير، وكان ذلك في أول بدء الدعوة، ولكنهم صبروا وتجلدوا حتَّى نصرهم الله وسارت الدعوة على أيديهم سيرًا حسنًا ولا تزال، فرجع الذين كانوا أعداء للدعوة أنصارًا لها، وتغير الوضع تمامًا.

فأذكر على سبيل المثال قصة واقعية لداعية تخرج من الجامعة الإسلامية، فذهب ليعمل في بعض دول إفريقية، ولا يزال يعمل، وقد زرته في مقر عمله، ولقد كان هذا الداعية قويًّا في علمه ومعرفته، وله اطِّلاع جيد في علم الحديث والتفسير والعقيدة، وكان فيما يبدو لي صادقًا في عقيدته وتمسكه، هكذا أظن، ولا أزكيه على الله تعالى، وهو سبحانه أعلم بنا وبه، وكان الداعية يجلس لطلاب العلم في منزله المتواضع وفي المسجد الذي يصلي فيه علاوة على عمله في المدرسة؛ يعلمهم ويفقههم، ولما اشتهر في البلد، وانصرف إليه طلاب العلم؛ تضايق الصوفية -وأكره الناس عند الصوفية دائمًا طلاب العلم؛ لأن مشايخ الصوفية يعيشون على الزيارات والهدايا وتسخير الناس بالشعوذات

ودعوى الكرامات وإقامة حفلات الموالد وغير ذلك من الطرق الملتوية في حياتهم-، فثاروا ضد الداعية المذكور، فأخذوا يؤذونه في نفسه، وقد يلقون الأذى على بابه ليلاً وفي طريقه إلى المسجد، ويعللون ذلك بأنه تعرض لأسباب معيشتهم، ونال من مكانتهم، فتقدموا بالشكوى إلى حاكم البلدة -وهو مسيحي- فتدخل حفاظًا على الأمن كما يقولون، فحضر الداعية وخصومه من مشايخ الصوفية لدى الحاكم، فعرضت القضية.

فسأل الحاكم المشايخ: ماذا يشكون منه؟ فأرادوا أن يهوِّلوا الأمر، فقالوا: هذا-الشيخ جاءنا بدين جديد يُخالف ديننا وعقيدتنا، ونحن أصحاب الطرق الصوفية المعروفون، وما تعرض لنا أحد قبله.

فقال لهم الحاكم المسيحي: أين تعلمتم أنتم التعليم الإسلامي؟

قالوا: تعلمنا هنا في بلدنا ومن بعض البلدان المجاورة لنا!

ثُمَّ قال لهم: من أين جاءكم هذا الشيخ بالدين الجديد كما قلتم؟

قالوا: جاءنا من السعودية.

ثُمَّ قال الحاكم للداعية: يا شيخ! أين درست أنت؟

قال الداعية: درست في مكة المكرمة والمدينة المنورة -ولقد كان الداعية طالبًا في مدرسة دار الحديث المكية قبل افتتاح الجامعة الإسلامية، ثُمَّ التحق بالجامعة، فتخرج فيها من كلية الشريعة-.

فقال له: هل لديك شهادة؟

قال: نعم، لديَّ شهادة جامعية من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

قال الحاكم للمشايخ: أنتم أمركم غريب! أليس أصل دينكم من السعودية من مكة والمدينة؟

قالوا: بلى.

قال: كيف تعادون عالمًا يَحمل شهادة جامعية في الإسلام من مدينة رسولكم، وقد جاءكم من حيث جاءكم أصل دينكم؟! فأخذ يوبِّخهم بما يستحقون.

فقال لَهم مِمَّا قال: إنه رجل مسيحي، لا يعرف الإسلام إلاَّ بالجملة، ولكنه بِحكم أنه متعلم تعلمًا عصريًّا، يدرك أن مشايخ الطرق قد تكون لديهم بعض الخرافات الَّتي لا أصل لَها، كالتي عند القساوسة القدماء المسيحيين، الذي يرددون بعض طقوسات لا أصل لَها في المسيحية؛ كالخرافات الَّتي عند بعض المسلمين كما هو ملاحظ.

ثُمَّ قال لَهم: إنه هو وزملاؤه عندما رجعوا من أوربا حيث تعلموا وجدوا لدى القساوسة القدماء أشياء لا أصل لَها في المسيحية وأخشى أن يكون مثل تلك الأشياء لدى مشايخ الصوفية، وأما صاحبكم؛ فتعلم ولديه شهادة علمية؛ فعليكم أن تتعلموا عليه إن شئتم، وإلاَّ؛ فلا تتعرضوا له بعد اليوم بالأذى.

فانهزم مشايخ الطرق، وانتصر الحق وصاحب الحق على يد حاكم مسيحي نصرًا عزيزًا غير متوقع.

من هنا ارتفع الحق في تلك المدينة وما جاورها، بل قد صار لتلك

القضية صدى في أنحاء البلاد، هكذا ظهر الحق وزهق الباطل.

«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1]. هكذا قال رسول الله ﷺ.

الله أكبر؛ إنه لرسول الله حقًّا.

ولقد كان لموقف الحاكم المسيحي وأسلوب مناقشته أثر كبير في انتشار الدعوة السلفية وهزيمة الصوفية أو خفوت صوتهم على الأقل في بعض أنحاء تلك الجمهورية الَّتي يعمل فيها ذلك الداعية، فتعتبر الجمهورية المشار إليها من أبرز الدول الإفريقية في نشاط الدعوة إلَى الله في هذا الوقت، ولديَّ أمثلة أخرى من هذا النوع، ولكن؛ أرى الاكتفاء بهذا المثال، وهو دليل حي على أن العاقبة للمتقين، وأن مع العصر يسرًا؛ كما أخبر الله سبحانه، وأن الحق يعلو في العاقبة ولا يعلى عليه وأن الفجر لابد أن يطلع وإن طال الليل، فما على الدعاة إلَى الله إلاَّ أن يتسلحوا بسلاح العلم، ثُمَّ يوطنوا أنفسهم بالصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، مع الصدق مع الله والإخلاص له سبحانه، والعاقبة لَهم؛ لأن العاقبة للمتقين، و﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]. إذ لن يغلب عسر يسرين!!

وإن كان يوجد صنف آخر من الدعاة، الذين لَمْ يحالفهم التوفيق، الذين حاولوا التحبب إلَى القوم الذين جاءوا لدعوتِهم وهدايتهم، وحاولوا مداهنة مشايخ الطرق بدعوى استعمال الحكمة واللين في زعمهم،

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكن هذا الصنف قليل بالنسبة للدعاة الموفقين الناجحين الذين مثلنا لَهم بمثال واحد، وبالله التوفيق.

وشبابنا الذين يتهيئون للدعوة إلَى الله على بصيرة، والذين يسلحون أنفسهم بسلاح العلم والمعرفة استعدادًا للعمل الإسلامي الواعي السلفي:

* عليهم أولاً: أن يَجدُّوا في التحصيل، وأن يكثروا من النظر في كتب السنة وكتب العقيدة ومباحث الإيمان، مع النظر في بعض فروع اللغة العربية.

* ثانيًا: عليهم أن يدرسوا سير الدعاة والمصلحين قديمًا وحديثًا؛ لينحوا نَحوهم ويسيروا على منوالِهم ويتأسوا بِهم في أسلوب دعوتِهم وصبرهم وعدم تأثرهم بالألقاب المنفرة الَّتي يقصد بِها أعداء الدعوة التشنيع عليهم وتنفير الناس من قبول دعوتِهم.

* ثالثًا: عليهم أن يبتعدوا عن الانتماء إلَى جَماعة معية، أو حركة معينة، تدعي العمل للإسلام فيما يبدو للناس ولَها مقاصد أخرى.

ولا ينبغي لطالب العلم أن ينصب نفسه داعية لتلك الحركات والجماعات على حسابِها وباسمها وتَحت نظمها ولوائحها الخاصة موافقة للسنة أو مُخالفة، وهو لَمْ ينضج بعد علمه وعقله، ومثل هذا الانتماء من العراقيل المعوقة في سبيل تَحصيل العلم النافع الخالص لله وحده سبحانه، وهذه "الانتماءات" من الأمور الَّتي تفسد القلوب، وتقضي على معنَى الحب في الله والبغض في الله، وهو معنَى يَجب أن يسود بين المسلمين.

* رابعًا: فليجاهد طالب العلم نفسه لحملها على الإخلاص لله ومراقبته، وعلى عدم التطلع إلَى مدح الناس وثنائهم عليه والتماس رضاهم؛ لأن في ذلك غضب الله وسخطه؛ بموافقتهم على ما هم عليه من البدع والخرافات؛ بدعوى استعمال الحكمة؛ كما يزعم بعض الناس، وليس ذلك من الحكمة في شيء؛ لأن الحكمة باختصار وضع اللين في موضعه، ووضع الشدة في موضعها.

ولا ينبغي أن يغيب عن بال طالب العلم والداعية أن الذي مدحه زين وذمُّه شين هو الله وحده، وأما مدح المخلوق فلا ينفعك، وذمه لا يضرك؛ فماذا أنت طالبٌ بمداهنتك وتَملقك إذن؟!

فلنعد إلَى صلب الحديث بعد هذا الاستطراد.

وأما الفريق الثاني من المشبهة؛ فهم الذين يشبهون المخلوق بالخالق ﷻ، والذين يَمنحون سادتَهم ومشايخهم كثيرًا من صفات الله ﷻ، أدركوا ذلك أو لَمْ يدركوا؛ كالذين يعتقدون أن الشيخ المربي العارف بالله -على حد تعبيرهم- يعلم الغيب وما تُخفي صدور المريدين والدراوشة الكادحين في خدمته؛ اتباعًا لتعاليم تصدرها "مشيخة الصوفية" قديمًا وحديثًا، والَّتي منها: على المريد أن يَحفظ خواطر نفسه وخلجات ضميره في حضرة الشيخ المربي؛ لئلا يطلع الشيخ على تلك الخواطر في نفسه، فيهلك المريد، أو يحرم الترقي على الأقل؛ إذ لا يحصل شيء من الخير والترقي وغيره إلا بواسطة الشيخ المربي في دين الصوفية؛ كما يعلم الدارس.

وهناك عندهم كلام يَجري مَجرى الأمثال، وهو قولهم: "فليكن المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل؛ فاقد الإرادة والحركة؛ إلا بتحريك الشيخ المربي فيما يَهواه".

وهذا من ضمن التعليمات الَّتي تصدرها "مشيخة الصوفية" وهي تعليمات وثنية، تدعو إلَى عبادة غير الله كما ترى، حيث يَجعلون الشيخ المربي عالمًا بكل شيء قادرًا على كل شيء، وهو قادر على التصرف في الكون، وخصوصًا بعد وفاته؛ لأنه في حياته قد تشغله الخدمة —على حد تعبيرهم "يعنون: العبادة"—، وأما بعد وفاته؛ فقد تفرغ لنفع مريديه، والتصرف في شئونهم، وجلب الخير لَهم، ودفع الضرِّ عنهم!!

إنَّها أقبح من وثنية المشركين الأولين: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

وهي عقيدة تحملها كتبهم ويعتقدها أتباعهم والمؤمنون بِهم والمتعاطفون معهم.

وهذا النوع من التشبيه، وإن كان لا يدرك كثير من الناس أنه تشبيه؛ ولكنه في واقعه تشبيه خطير وكفر بالله ورسوله وبكتابه الذي يقول الله فيه: ﴿قُل لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النحل:٦٥].

وهذا التشبيه هو دين المتصوفة الغلاة، الذين يصل بِهم الغلو أحيانًا إلَى القول بالحلول، بل بوحدة الوجود، فيمثل هذه الملة من سَموه مُحيي

الدين بن عربي الطائي، رئيس وحدة الوجود، الذي يقول فيه بعض أهل العلم: إن كفره أشد وأقبح من كفر قريش قبل الإسلام.

ا وهو القائل: ليس في الجبة إلا الله!

وهو القائل:

وما الكلب والخنزير إلاَّ إلَهُنا ... وما الله إلاَّ راهبٌ في كنيسة

وله أتباع من الصوفية، ويشبهه في كفره هذا ابن الفارض، وابن عجيبة، وابن سبعين، والحلاج، وأمثالهم في الإلحاد.

وإمعانًا منهم في الكفر والبعد عن حقيقة الدين يلقبون كبراءهم بِهذه الألقاب الَّتي تنبئ عن الشرك عند نطقها أو سَماعها:

١- الغوث الأعظم.

٢- القطب، أو قطب الزمان.

٣- الأوتاد.

.... وغير ذلك من الألقاب.

وبعد هذا الاستطراد الطويل الذي أردنا به إيضاح بعض المسائل نعود إلَى الحديث عن شيخ الإسلام الذي كنا نتحدث عن جهاده وتَجديده.

* * * * *

وفاة شيخ الإسلام -رحمه الله-

بعد ذلك الجهاد الطويل والتضحية المريرة توفي شيخ الإسلام في السجن في قلعة دمشق؛ أي في خلوته؛ كما سَماها هو -رحمه الله-، حيث يتجرد فيها لعبادة ربه ومناجاته وتلاوة كلامه وتدبره، بعد أن ترك للقراء مكتبة عظيمة، قد عجز الساعون في حصرها في معرفة مُحتوياتها بصورة قاطعة؛ إذ لا تزال مؤلفات الشيخ مبعثرة هنا وهناك، وموزعة في العالم، وما جمعه "الشيخ عبد الرحمن بن قاسم" في تلك المجموعة العظيمة إنَّما هو جزء من تلك المكتبة، وقد عالج الشيخ -رحمه الله- في جلِّ مؤلفاته موضوع العقيدة والدفاع عنها.

ويكفي مثالاً لذلك أن نذكر أبرز تلك الكتب من تلك المكتبة؛ منها:

١- "منهاج السنة".

٢- "درء التعارض بين العقل والنقل".

٣- "كتاب الإيمان".

٤- وبعض المُجلدات في مَجموع ابن قاسم وغيرها.

هذا وقد ورَّث الشيخ علمه ومنصبه في الدعوة إلَى الله والدفاع عن العقيدة تلميذه الفذ فريد وقته ابن قيم الجوزية، فقام الوارث على التركة خير قيام؛ عرف لَها حقها، وهو أمين عليها، فلم يأل جهدًا في

أداء الأمانة بالانتصار لمنهج السلف؛ إذ كتب في الدفاع عن العقيدة السلفية كتبًا ورسائل، سلك فيها مسلك شيخه في إنكار المنكر وبيان الحق بالأدلة، ثُمَّ سجن كما سجن شيخه، بل توفي شيخ الإسلام والعلامة بن القيم في السجن في قلعة دمشق.

ويعتبر نشاط ابن القيم في الدعوة والإصلاح امتدادًا لجهاد شيخه؛ فقد ناله من الأذى جزء مِمَّا نال شيخه؛ إذ لابدَّ لكل مصلح من الأذى والابتلاء؛ لأنَّهم يعملون على منهج الأنبياء، فأشد الناس بلاء الأنبياء، ثُمَّ الأمثل فالأمثل، ولكنه سبحانه رحْمة منه ولطفًا بالعباد يبتليهم على حسب إيْمانهم قوة وضعفًا، فمن كان في إيْمانه قوة وصلابة؛ اشتد بلاؤه، ومن كان في إيْمانه رقة وضعف؛ خفف عنه؛ كما صحَّ بذلك حديث عن النَّبي ﷺ.

وبعد وفاة شيخ الإسلام -رحمه الله-؛ انفرد في الميدان العلامة ابن القيم، وحَمل لواء الدعوة والإصلاح، وواصل المسيرة بالدعوة، فرأى أنه قد حان الوقت للهجوم المباشر بدل الدفاع عند نقطة الحدود؛ لأن الاكتفاء بالدفاع المجرد قد يشعر بالضعف، فهاجم الجاهلية بأنواعها في عقر دارها، فكتب في ذلك كتبًا هجومية ميدانية هاجم فيها الخصوم في قوة المؤمن، فأزعجهم وزلزل أقدامهم، وأوقعهم في حيرة. منها:

١- "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة".

٢- "اجتماع الجيوش الإسلامية في غزو المعطلة والجهمية".

وأنت ترى أن اسمي الكتابين وما احتويا عليه من العلم والأسلوب المستخدم فيهما؛ كل ذلك ينبئ أن العلامة المجاهد لا يرى الوقوف عند مُجرد الدفاع كما أسلفت، بل لابدَّ من عمل ميداني يشعر بالقوة والعزة والشجاعة.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

هكذا يكون الداعية إذا كان مُتجردًا لله ومنقطعًا إليه سبحانه وصادقًا معه وهو سبحانه عليم بذات الصدور.

هكذا واصل مسيرته في تجديد القرن السابع الهجري، وهو امتداد لتجديد القرن الثالث الهجري الذي قام به الإمام الشيباني.

استمرار الدعوة والمعارضة
"تجديد القرن الثاني عشر الهجري"

عاشت الأمة الإسلامية على آثار الأمطار الغزيرة -وإن كانت متقطعة- الّتي هطلت على أرض الإسلام في فترات متلاحقة؛ بدءًا من عهد الشيباني، فرويت الأرض، فأمسكت الماء، فانتفع به من أراد الله به خيرًا من عباده.

وكلما طغت الجاهلية في صورة أو بجميع صورها مُحاولة تغيير مفهوم الإسلام وإخفاء معالمه، وضاق بذلك صدر كل من يَهمه أمر الإسلام وله اهتمام بشئون المسلمين، ودعت الحاجة إلى التجديد ونفض الغبار عن وجه الحق؛ عند ذلك يقيض الله لهذه الأمة من يُجدد لها أمر دينها، حتّى ينقشع سحاب الجهل والجاهلية؛ ليظهر وجه الإسلام مشرقًا، فيعمل به من أراد له خيرًا بفقه وفهم سليم، «ومن يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين»[1].

ففي القرن الثاني عشر الهجري لاحظ الداعية المجاهد الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب أن عاصفة هوجاء عصفت بشدة على عقيدة الإسلام وشريعته؛ لتغير معالمه، وتنقل الأشياء من أماكنها، وترمي بها حيثما وقعت، فتغيرت بسبب ذلك مفاهيم كثيرة، فالتبس الأمر على الناس في

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

أبواب كثيرة ومسائل عديدة، وحدثت في الإسلام بدع ليست من الإسلام في شيء.

فرأى الشاب الداعية أنه لابدَّ من إعداد العدَّة للقيام بالتجديد وإعادة الأمور إلَى وضعها الصحيح على ما كانت عليه قبل العاصفة، ورأى فيما رأى أنه لابدَّ من الازدياد من العلم والمعرفة وسعة الاطِّلاع والاتصال بالعالم المعاصر ومعرفة الأوضاع العامة للعالم الإسلامي، فقرر الخروج في رحلة علمية طويلة قد تشمل بعض البلدان العربية، وقد كان قبل يدرس ويتفقه على والده الشيخ عبد الوهاب، وقد كان والده قاضيًا معروفًا في بلدة "العيينة"، درس عليه الفقه وشيئًا من التفسير والحديث، وفي الوقت نفسه كان يكثر من النظر في كتب الإمامين المجددين العملاقين: الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد أفاد منها، بل تأثر بها كثيرًا جدًّا.

ثُمَّ بدأ تلك الرحلة بداية مباركة موفقة، حيث بدأ بالمسجدين الشريفين المباركين، خرج حاجًّا إلَى مكة المكرمة، فحج البيت، ثُمَّ أتى المدينة النبوية، فزار مسجد رسول الله ﷺ، ثُمَّ سلم على أكرم الدعاة إلَى الله نبينا مُحمَّد بن عبد الله ﷺ وعلى صاحبيه، ثُمَّ أخذ يتصل بعلماء المدينة النبوية آنذاك؛ ليطلب العلم على أيديهم.

١- ومن العلماء الموجودين في المدينة آنذاك وطلب الشاب الداعية العلم على أيديهم الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف آل سيف، وهو في الأصل من أهل المجمعة بنجد، فلازمه الشيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب

ملازمة، فتفقه على يده، فرأى الشيخ ابن سيف في الشاب ابن عبد الوهاب النبل والذكاء النادر، فتفرس فيه الخير، وأحبه، واعتني به كثيرًا، وبذل جهده في تعليمه.

أدرك ابن سيف أن الطالب الشاب يتألم مِمَّا يرى من الأمور الجاهلية المنتشرة هنا وهناك من الغلو في الصالحين وعبادتهم، ومِمَّا عليه أهل نجد آنذاك من عقائد باطلة وعادات جاهلية، فازداد الشيخ ابن سيف حبًّا له وتقديرًا؛ إذ ربط بينهما أقوى رابط، وهو العقيدة السليمة.

فقدمه الشيخ ابن سيف لبعض علماء المدينة؛ مثل:

٢- الشيخ مُحمَّد السندي.

٣- والشيخ علي الداغستاني.

٤- والشيخ إسماعيل العجلوني.

٥- والشيخ عبد اللطيف الإحسائي، وغيرهم.

وأخبرهم الشيخ بما يكنه الشاب في نفسه من تضايقه الشديد من تلك الجاهلية المتنوعة من أنواع البدع والشرك بنوعيه، ورغبته في الإصلاح لو استطاع.

وعلى كلٍّ؛ صبر الشاب على مواصلة الدراسة في المدينة، فحضر على بعض من ذكرنا من الشيوخ، ولقد كان تركيزه في دراسته على علم الحديث، وعند عزمه على السفر ومغادرة المدينة؛ أخذ إجازة علمية من بعض مشايخه الذين حضر عليهم، وفي مقدمتهم الشيخ ابن سيف،

فأجازه في "صحيح البخاري"، و"مسند الإمام الشافعي"، و"السنن الأربعة"، وغيرها من كتب الحديث؛ كما تذكر بعض المصادر.

فغادر الشيخ المدينة إلَى البصرة، معرجًا على بلده نَجد، فأقام بالبصرة فترة من الزمن، يطلب العلم على بعض علماء البصرة، وفي مقدمتهم الشيخ مُحمَّد المجموعي، وقد استفاد من هذا الشيخ كثيرًا من فروع اللغة العربية والحديث، فأدرك الشيخ المجموعي -وهو يدرس عليه- أن ابن عبد الوهاب ليس طالبًا عاديًّا، بل يتهيأ لأمر عظيم، يتهيأ للقيام بالدعوة الإسلامية الشاملة والإصلاح العام، إصلاح العقيدة وإصلاح الأحكام؛ ليكون الإسلام هو الحاكم وحده بدل العادات والسواليف والتقاليد والقوانين الأخرى، إصلاح السياسة في ضوء الإسلام، إصلاح الأخلاق ... وهكذا؛ لأن الإسلام هو المؤهل وحده للإصلاح، ولا صلاح ولا إصلاح إلاَّ بالإسلام، وأما الذين يزعمون في هذه الأيام أنَّهم يريدون إصلاح المجتمع وتَهيئته لقبول الإسلام، ثُمَّ يطبقون عليهم أحكام الإسلام فيما بعد؛ فهذا تخدير للأعصاب؛ لتنام الناس ولا تتحرك فتطالب بتطبيق الشريعة، وإلاَّ؛ فبأي شيء يصلحون أولاً قبل الإسلام؟! وهل الرسول الكريم سيد المصلحين بدأ إصلاح ذلك المجتمع الجاهلي بشيء غير الإسلام؟! ثُمَّ طبق عليه شريعة الإسلام. وما هو ذلك الشيء؟ لا شيء، بل بدأ الإسلام بأصوله ثُمَّ فروعه وأحكامه، "فخير الهدي هدي مُحمَّد ﷺ".

فأخذ الداعية ابن عبد الوهاب يَجد في طلب العلم والتحصيل، ومع ذلك أخذ في مُحاولة الإصلاح المستطاع، فشرع يكتب الرسائل في الدعوة، وينشرها بين الناس، ويباحث الناس، ويفصل، ويبين، فصار دائم الحركة الإصلاحية المستطاعة له، وخصوصًا في أيام وجوده بالبصرة، في أواخر أيام التحصيل.

تذكر بعض المصادر أن رحلة الشيخ شملت بعد المدينة الشام والعراق، وأخذ العلم على مشاهير تلك البلاد؛ كابن سيف والسندي بالمدينة، والمجموعي بالعراق، والشيخ عبد اللطيف بالأحساء، ثُمَّ عاد إلَى بلده.

عودة الشيخ إلى نجد للدعوة والإصلاح

وبعد هذه الرحلة العلمية الموفقة الَّتي استفاد خلالها فوائد جَمة عاد الشيخ إلَى بلده بعد أن ازداد العلم والمعرفة، وبعد أن درس أحوال المسلمين فِي عدة بلدان، وأدرك حاجة المسلمين الماسة إلَى الإصلاح العام من جديد، والتصحيح الجذري الفوري لعقيدتِهم نَحو ربِّهم ومعبودهم، وتصحيح موقفهم من سنة نبيهم الذي بعث لهدايتهم، والذي يسألون عنه فِي قبورهم، وموقفهم من كتاب ربِّهم الذي هجروه؛ إذ لا يرجعون إليه لمعرفة عقيدتِهم وأحكام دينهم.

بل أدرك الشيخ وتأكد أثناء جولته تلك فِي البلدان الَّتي زارها ومِمَّا شاهده فِي وطنه نَجد أن الأمة بحاجة إلَى القضاء علَى تلك الفوضى الَّتي تعيشها؛ فلابدَّ لَها أن تنتهي؛ لتتبدل بحياة إسلامية صحيحة وشاملة لِجميع نواحي الحياة.

وانطلاقًا من هذا الإدراك؛ صمم الشيخ على القيام بالدعوة الإصلاحية العامة -كما أشرنا قبل- مستعينًا بالله وحده فِي بلده حريملاء، بِمحاولة تصحيح العقيدة، وأنكر على العوام تعلقهم بغير الله وصرف العبادة أو بعض أنواعها لغير الله؛ مثل النذر، والذبح، والخوف، والرجاء ... مِمَّا هو منتشر فِي البلد آنذاك.

وقد كان إنكار مثل هذه الأشياء جديدًا وغريبًا هناك؛ لذلك قوبلت الدعوة فِي أول الأمر بالإنكار والرد والجدال.

يقول بعض الكتاب وهو يصف الشيخ عندما بدأ بدعوته الناس إلَى توحيد الله وموقفهم منه: "حقًّا إن الموقف دقيق وحرج، يحتاج إلَى شجاعة ماضية، وإلَى إيْمان لا يبالى صاحبه بالأذى فِي سبيل إرضاء الله وإرضاء الحق الذي اقتنع به، وسبيل إنقاذ البشرية المعذبة، كما يحتاج إلَى عدة كاملة من قوة اللسان وإصابة البرهان؛ ليواجه ما يُجابه من شبهات واعتراضات لابدَّ منها، ثُمَّ إلَى مؤازر قوي يَحمي ظهره ويدافع عن دعوته".

والموقف كما وصفه الكاتب حرج جدًّا، إلا أن الله ثبت الشيخ المجدد على الدعوة؛ رغم كل تلك العقبات والصعوبات الَّتي واجهت الدعوة فِي بدايتها وحاولت إيقافها؛ سواء من الداخل كما كان من أسرته قبل أن يتبينوا الحق، أو من الخارج كما كان من بعض أصحاب الأهواء، ولكن الله سلَّم.

ولَمْ تقف الدعوة منذ بدأت لحظة واحدة، بل من حسن إلَى أحسن فِي نشاطها وآثارها.

وتذكر بعض المصادر أن والده الشيخ عبد الوهاب كان ممن نازعه فِي أول الأمر، وكذلك أخوه سليمان بن عبد الوهاب، وأخيرًا؛ قنعا بصحة الدعوة ورجعا إلَى الحق.

وفي أثناء انشغال الشيخ بالدعوة -ولَمْ يكثر أنصاره بعد- حاول بعض السفهاء أن يقتلوا الشيخ في حريملاء، فغادر الشيخ تلك البلدة إلَى بلده ومسقط رأسه "العيينة" فواصل الدعوة والإصلاح هناك، حيث آزره أمير العيينة آنذاك عثمان ابن حمد بن معمر، الذي رحب بالدعوة في أول الأمر، بعد أن شرح له الشيخ دعوته، وأنَّها دعوة قائمة على العمل بالكتاب والسنة، وأنَّها تعني أول ما تعني تطهير العقيدة والأخلاق، وتصحيح الأحكام، حَتَّى يكون كتاب الله هو المرجع للأحكام، مفسرًا بالسنة المطهرة، وأن القائمين بهذه الدعوة لا يريدون إلاَّ وجه الله والثواب في الدار الآخرة من الله وحده، فوافق الأمير على مواصلة المؤازرة.

ونشطت الدعوة، فأخذ الشيخ في الإصلاح العملي، فأمر بقطع بعض الأشجار الَّتي كان الناس يتعلقون بها، بل ويعبدونَها ويعظمونَها، وهدم قبة كانت على قبر "زيد بن الخطاب"، كل ذلك بمساعدة الأمير عثمان.

وأخيرًا، أقام الشيخ الحد على امرأة اعترفت بالزنى عدة مرات أمامه، بعد أن تأكد من صحة عقلها ورغبتها في التطهير. وبعد هذه الواقعة اشتهر أمر الشيخ، وذاع صيته في كل مكان، في نَجد وما جاورها، حَتَّى كاتب بعض الأمراء الذين كانت لَهم مكانة عند ابن معمر وبينهم مصالح متبادلة يستنكرون الواقعة "إقامة الحد"، فطلبوا منه التخلي عن الشيخ، بل طلبوا إخراجه من بلده.

فأخرج الشيخ من العيينة إلَى الدرعية سنة (١١٥٨هـ)، فنَزَل على رجل من أعيان البلد -كما تقول بعض المصادر-، وهو عبد الرحمن بن سويلم، فأقام عنده أيامًا، حَتَّى علم به أمير الدرعية الأمير مُحمَّد بن سعود، فجاءه مع بعض إخوانه وأتباعه، فزاروا الشيخ، فدعاهم إلَى التمسك بعقيدة التوحيد الخالص. وبين لَهم أن التوحيد هو الذي بعث الله الرسل من أجله، وأنه قد ضعف اليوم في قلوب بعض الناس، وتلا عليهم آيات من القرآن، ودعا الله للأمير مُحمَّد بن سعود، راجيًا من الله أن يكون إمامًا يَجتمع عليه المسلمون بعد ذلك التفرق والتشتت، وأن تكون السيادة والملك له ولذريته من بعده.

فشرح الله صدر الأمير مُحمَّد بن سعود، فقبل الدعوة، وأحبَّ الشيخ وبشَّره بالنصر والوقوف معه على من خالفه في دعوته وإصلاحه ووقف في طريقه، وتعاهدا على المضي في الدعوة مهما كانت الظروف، فنشطت الدعوة أكثر من ذي قبل.

حيث بدأت في بلدة حريملاء على ضعف، ولقد كان الشيخ يخاف على نفسه وعلى دعوته، حَتَّى خرج منها إلَى العيينة في وضع متخفٍّ، إلا أنه أخرج منها كما أسلفنا، بعد أن تعرضت الدعوة لهزة عنيفة عندما بدأ الشيخ في التطبيق العملي وتأتي مرحلة الدرعية، وهي المرحلة الثالثة والثابتة.

هكذا كانت سنة الله في المجددين المصلحين: خوف، وإزعاج، وإخراج،

ثُمَّ نصر، وثبات، وازدهار، ولا تزال كذلك، ولن تزال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:٢٣].

ولنقرأ هنا وعد الله؛ إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

* * * * *

مرحلة الدرعية

من هنا دخل العمل مرحلة جديدة، دعوة جادة آمنة؛ إذ شرع الشيخ المجاهد يدعو ويصلح ويعلم ويصحح، والمؤازر يتابع سير الدعوة ويحمي ظهرها بسيفه، حَتَّى ظهرت الدعوة، وظهر أمر الشيخ، فأخذت الوفود تفد على مركز الدعوة "الدرعية" حَتَّى ندم الأمير ابنُ معمر على إخراج الشيخ، فجاء إلَى الشيخ ليستسمحه، فسامحه الشيخ.

من هنا أقبل الناس على العلم والعبادة والجهاد فِي جوٍّ هادئ وآمن، يؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، ويعز فيه أهل طاعة الله من العلماء وطلاب العلم، ويذل فيه أهل العناد والفساد.

ثُمَّ رأى الشيخ أنه لا يكفي أن يقف عند الإصلاح المحلي فِي الدرعية وما جاورها، بل لابدَّ من السير بالدعوة إلَى الأمام؛ فلابدَّ من التبليغ بِجميع الوسائل المتاحة له، فأخذ الشيخ يراسل الرؤساء والأمراء والقضاة فِي المنطقة، فمنهم من هداهم الله، فأطاع، فرجع إلَى الحق، فصار من أنصار الحق وأنصار دعاة الحق، وهم الكثيرون، ومنهم من عاند، وسخر من الدعوة، وركب رأسه، وتلك سنة الله كما علمنا فِي تاريخ الدعوة والدعاة.

* * * * *

بدء التعليم الجاد والتأليف

فأخذ الشيخ بجانب ذلك التعليم والتدريب الجاد يؤلف كتبًا ورسائل، أكثرها في توحيد العبادة، الذي يرى الشيخ أن حاجة الناس إليه أمس من حاجتهم إلى أي علم آخر، وهو الواقع، بل لم يكتف الشيخ بالتأليف، بل بدأ يحاول القضاء على تلك الشائعة التي تسبق الدعوة إلى كل مكان، فجعل يعالج تلك الشائعة المغرضة بإصدار رسائل متنوعة ترسل إلى الخارج، تبين موقف الشيخ ودعوته من الأئمة الأربعة، وأنه موقف احترام وتقدير لهم، وليس موقف منافس لهم، ولا استخفاف بمذاهبهم؛ كما يشيع خصوم الدعوة.

أجل؛ أثبت الشيخ بما كتب وبثَّ بين الناس أنه لم يأت بما يخالف ما عليه أئمة الهدى من الأئمة الأربعة وغيرهم -وهم كثيرون- من الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وتحكيمه بين الناس والتحريض على التمسك بهدي رسول الله ﷺ وعدم تقديم قول أحد على قول رسول الله ﷺ؛ لأنه رسول الله؛ فكيف يقدم قول إنسان عادي على قول رسول مرسل من الله ﷻ ؟!

ومِمَّا دعا إليه الأئمة الأربعة وكبار أصحابهم عدم التقليد الأعمى، وهو عنوان مهم في دعوة كل مصلح، وقد أطبق الأئمة على ذلك؛

حرصًا منهم على تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، وكذلك فعل كل مصلح بعدهم؛ كالإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، يعلم ذلك كل من نظر في كتبهم ومؤلفاتهم، وهو من الأمور التي قام بتجديدها مُجدد القرن الثاني عشر.

وقد بثَّ الشيخ عدة رسائل لبيان موقفه ومنهجه في دعوته؛ منها رسالة في القدر والقضاء، ورسالة في بيان موقفه من أصحاب رسول الله ﷺ، وموقفه من نصوص الصفات في الكتاب والسنة من إمرارها كما جاءت على منهج السلف، وأنه ليس له منهج آخر مُخالف لمنهج السلف، وقد وصلت تلك الرسائل إلى أقطار كثيرة، يريد الشيخ من بثها وإرسالها أن يعرف الناس دعوته وعقيدته على الحقيقة والواقع، وقد سجلت أكثر تلك الرسائل في كثير من تراجمه.

وأستحسن هنا أن أنقل رسالة واحدة من تلك الرسائل، وهي التي تعالج موضوع الصفات، وتبين عقيدته، أنقلها بنصها؛ لأن ذلك أبلغ في المراد، وأوقع في النفوس.

يقول الشيخ بعد الديباجة المعتادة والتسمية والصلاة والسلام على خير الأنام مُحمَّد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: نص الرسالة:

الذي نعتقده وندين به هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم ﷺ، وهو الإيمان بآيات الصفات وأحاديثها، والإقرار بها، وإمرارها كما جاءت؛

من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

وقد رضي الله لأصحاب نبيه ومن تبعهم بإحسان الإيمان، فعلم قطعًا أنهم المراد بالآية الكريمة.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

فثبت بالكتاب أن من اتبع سبيلهم؛ فهو على الحق، ومن خالفهم فهو على الباطل، فمن سبيلهم في الاعتقاد: الإيمان بصفات الله وأسمائه، الَّتي وصف بها نفسه في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله ﷺ؛ من غير زيادة عليها، ولا نقصان فيها، ولا تجاوز لَها، ولا تفسير ولا تأويل لَها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين، بل أمروها كما جاءت، وردوا علمها إلَى قائلها، ومعناها إلَى المتكلم بها، وأخذ ذلك الآخر عن الأول، ووصى بعضهم بعضًا بحسن الاتباع، وحذرونا من اتباع طريق أهل البدع والاختلاف، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وقال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

والدليل على أن مذهبهم ما ذكرنا: أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم، وأخبار رسول الله -عليه الصلاة والسلام-؛ نقل مصدق لَها، مؤمن قابل لَها، غير مرتاب فيها، ولا شاك في صدق قائلها، ولَمْ يئولوا ما يتعلق بالصفات منها، ولَمْ يشبهوا بصفات المخلوقين؛ إذ لو فعلوا شيئًا من ذلك؛ لنقل عنهم، بل زجروا من سأل عن المتشابه، وبالغوا في كفه؛ تارة بالقول العنيف، وتارة بالضرب.

ولما سئل مالك -رحمه الله- عن الاستواء؛ أجاب بمقالته المشهورة وأمر بإخراج الرجل، وهذا الجواب من مالك في الاستواء شاف كاف في جميع الصفات؛ مثل النُّزول والمجيء واليد والوجه ... وغيرها، فيقال في النُّزول: النُّزول معلوم، والكيف مَجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ... وهكذا يقال في سائر الصفات، وهي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة.

وثبت عن الربيع بن سليمان؛ قال: سألت الشافعي ﷺ عن صفات الله تعالى فقال: "حرام على العقول أن تمثل الله، وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الظنون أن تقطع، وعلى النفوس أن تفكر، وعلى الضمائر أن تتعمق، وعلى الخواطر أن تحيط، وعلى العقول أن تعقل؛ إلا ما وصف به نفسه على لسان نبيه -عليه الصلاة والسلام". اهـ.

وثبت عن إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني: أنه قال: "إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يصفون ربَّهم بصفاته الَّتي نطق بها كتابه، وشهد له بها رسوله ﷺ، على ما وردت به الأخبار الصحاح، ونقلته العدول الثقات، ولا يعتقدون بها تشبيهًا بصفات خلقه، ولا يكيفونَها تكييف المشبهة، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية، وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف، ومنَّ عليهم بالتفهيم والتعريف، حتَّى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واكتفوا في نفي النقائص بقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وبقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣-٤].

وثبت عن الحميدي شيخ البخاري وغيره من أئمة الحديث: أنه قال: "أصول السنة ... (فذكر منها أشياء، وقال:) ما نطق به القرآن والحديث؛ مثل:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

ومثل: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧].

وما أشبه هذا من القرآن والحديث؛ لا نرده ولا نفسره، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة، ونقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥].

ومن زعم غير هذا؛ فهو جهميٌّ.

فمذهب السلف -رحمة الله عليهم-: إثبات الصفات، وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، كما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ولا تشبيه، وكذلك الصفات، وعلى هذا مضى السلف كلهم"اهـ.

ولو ذهبنا نذكر ما اطَّلعنا عليه من كلام السلف في ذلك؛ لطال الكلام جدًّا.

فمن كان قصده الحق وإظهار الصواب؛ اكتفى بما قدمنا، ومن كان قصده الجدال والقيل والقال؛ لَمْ يزده التطويل إلا الخروج عن سواء السبيل، والله الموفق"اهـ.

وما سردناه نص رسالة الشيخ في عقيدته في الصفات والأسْماء، وهي واحدة من تلك الرسائل الَّتي كان الشيخ قد أرسلها إلَى الأقطار والأمصار، يشرح فيها عقيدته ودعوته وتجديده.

وفي هذه الرسالة أثبت الشيخ أن من عقيدة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان: الإيْمان بصفات الله تعالى كما جاءت، دون مُحاولة إدراك الكيفية، ودون تجاوز للقرآن والحديث.

هذه طريقة الإمام أحمد بن حنبل ومنهجه؛ حيث يقول: "لا يتجاوز الكتاب والسنة في باب الصفات" أو عبارة قريبة من هذه.

وقد أثبت الشيخ ابن عبد الوهاب في هذه الرسالة مذهب السلف، وأقام الدليل على ذلك؛ إذ يقول -رحمه الله-: "والدليل على مذهب ما

ذكرنا أنَّهم نقلوا إلينا القرآن العظيم وأخبار رسول الله ﷺ نقل مصدق لَها مؤمن بِها قابل لَها غير مرتاب فيها ولا شاكٍّ في صدق قائلها، ولَمْ يئولوا ما يتعلق بالصفات منها ..." إلَى آخر ما ورد في الرسالة المذكورة.

وهو استدلال دقيق كما ترى، وهذه طريقة علماء السلف قديمًا وحديثًا في إثبات أقوالَهم بالأدلة، وهو المنطق السليم المقبول لدى العقلاء، لا الجدل العقيم الذي لا ينتج.

ولقد كانت دعوة الشيخ دعوة تساير الواقع، ولا تضرب في الخيال الباطل، ولا تَميل إلَى استعمال الأسلوب المخدر، ولكنها تشخص الداء، وتضع الدواء على الداء، وربَّما اضطرت إلَى عملية البتر؛ بصرف النظر عن الألم المؤقت الذي قد يؤذي المريض، ولكن العاقبة تبقى دائمًا مَحمودة -على عكس الأسلوب الذي يوهم المرضى أنَّهم ليسوا بمرضى ولكنهم في غاية الصحة-؛ لأنَّها تصارح المرضى بمرضهم، وتسعى في علاجه والوصول إلَى الصحة والعافية؛ دون أن تلهيهم بالطموحات السياسية الكاذبة.

وبذلك تراها تركز على مُحاربة أنواع من التقاليد المتبعة في المنطقة، وهي مجموعة من الوثنيات: دعوة غير الله، والاستغاثة بغيره، والذبح والنذر والتوسل المبتدع، وشد الرحال إلَى غير المساجد الثلاثة، والبناء على القبور وكسوتُها وإسراجها والعكوف عند الأضرحة؛ لأن بعضها شرك ظاهر، وبعضها من وسائل الشرك، والنهي عنها من باب سد الذرائع، وهو باب مهم في الفقه الإسلامي كما يعلم طلاب العلم.

هل تأثرت الدعوة بوفاة المجدد والمؤازر

توفي الإمام مُحمَّد بن سعود مؤازر الدعوة السلفية والمجاهد دونَها سنة ١١٧٩هـ، ثُمَّ الشيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ؛ -رحِمهما الله-؟!

فهل يا ترى ماتت الدعوة بِموتِهما، أو تأثرت، أم أنَّها استمرت؟!

ممَّا ينبغي التفطن له أنك لو راجعت التاريخ؛ تَجد الحقيقة الآتية ولا مَحالة: أيَّما دعوة يقوم بِها مصلح أو مُجدد، إذا كان منشؤها مُجرد اجتهاد ذو فكر بشري يُحاول الإصلاح والتجديد؛ فإنَّها تَموت أو تضعف على الأقل بِموت صاحب الفكرة ومنشئ الحركة.

وهناك دعوة لا تَموت بِموت الداعية المسئول عنها.

فإذن؛ لابدَّ لنا من معرفة الفرق بين الدعوة الَّتي تَموت بِموت صاحبها، والدعوة الَّتي تبقى بعده، بل تسير ولا تقف، ولبيان ذلك نقول: هُما دعوتان:

١- دعوة أنشأها مفكر ما بعد أن فكر وقد خطط ووضع شروطًا يرى أنه لابدَّ منها لنجاح دعوته؛ بصرف النظر: هل هي موافقة للسنة أو مُخالفة لَها؟! كما يضع لَها لوائح داخلية تسير عليها الدعوة، وتلتزم بِها، حيث يرى أن دعوته تَخدم الأمة أو تخدم جَماعة من الناس تؤمن

بها، ثُمَّ تسعى في إقناع الناس بفكرته وصلاحيتها وبيان أهدافها والدعاية لَها، متتبعة جَماعة من الناس، فيكوِّنُ حزبًا يتحزبون له وينصرونه.

فلا يخلو الأمر لاستمرار هذه الدعوة أو عدم استمراريتها بعد موت صاحبها من إحدى حالتين:

* الحالة الأولى: أن يَموت صاحب الفكرة رئيس الدعوة قبل أن يرى له من يخلفه ويقود الدعوة من بعده؛ ففي هذه الحالة تَموت الدعوة فور موت صاحبها لا مَحالة، وهي قضية مسلمة عقلاً، وعلى هذا تجري نواميس الحياة، بصرف النظر عن الأمور الخارقة للعادة.

* الحالة الثانية: أن يَموت صاحب الفكرة، وقد وُجد من يخلفه، وهو مؤهل للقيادة، ومتفاعل مع الدعوة؛ ففي هذه الحالة قد تبقى الدعوة فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر، ولكنها تتلاشى مع الزمن وتتأثر وتفقد قيمتها ثُمَّ تَختفي، والتاريخ خير شاهد على ما ذكرت؛ لأن أساسها فكرة رجل وتَخطيط بشري، والمفكر المخطط قد مات وانتهى، إذن؛ لابدَّ أن تنتهي ولا مَحالة.

والشواهد كثيرة في واقع العالم المعاصر، ولا حاجة لسردها، بل المستحسن إجْمالُها.

٢- أما الدعوة الثانية؛ فدعوة قام بها مصلح مُجدد، بيد أن معنى التجديد هاهنا يختلف عن معناه في الدعوة الأولى؛ فالدعوة الأولى -كما قلنا- أساسها فكر بشري، وهي تُحاول أن تدعي أن تأتي بجديد،

وربَّما تأتي بجديد فعلاً، قد يقبل وقد يرفض، وعلى كلٍّ؛ هي مُحاولة بشرية لا صلة لَها بالوحي. وأما الدعوة الثانية؛ فأساسها دين إسلامي ثابت وقائم بالفعل، ولكن صاحبها لاحظ أن المسلمين هجروا تعاليم الإسلام أو بعضها؛ إذ رآهم هجروا كتاب ربِّهم وأهملوا سنة نبيهم، فلم يعد القرآن مرجعًا لَهم في عقيدتِهم وفي عباداتِهم ومعاملاتِهم وغير ذلك، ولَمْ تكن السنة ذات قيمة لديهم، فدعاهم إلَى العودة إلَى الإسلام؛ ليفهموه كما فهمه سلفهم، ويفسروه كما فعل الأولون من المسلمين، ويطبقوا أحكامه ويعتقدوا عقيدته.

وهذا معنى التجديد بالنسبة للدعوة الثانية، إذن ليست هي فكرة بشرية، ولكنها تجديد للشريعة الإسلامية وعقيدتِها، وإصلاح ما فسد من أمور الدين؛ فمثل هذه الدعوة سوف تبقى بعد موت المجدد.

فدعوة ابن عبد الوهاب من هذا النوع الثاني -كما ترى- ولِهذا فإنَّها لَمْ تَمت بِموت مؤازرها أولاً، ثُمَّ موت مُجددها المصلح ثانيًا فالدعوة الإسلامية باقية وستبقى -بإذن الله- ما بقي الإسلام الذي هو أساسها حَتَّى يرفع الله كتاب الإسلام من الأرض عندما يأذن الله بانتهاء الدنيا.

ولما توفي الإمام المجدد، وقبله الإمام المؤازر، تسلم قيادة الدعوة رجال أمناء؛ دعوة ومؤازرة وتأييدًا أو دفاعًا عنها، وهم علماء آل الشيخ وتلامذتُهم، وملوك وأمراء آل سعود، واستمرت الدعوة في سيرها، تفتح البلاد وقلوب العباد، ولا تزال تسير سيرًا حسنًا وحثيثًا، حَتَّى بلغت

اليوم أماكن ما كان يظن أنها تصلها في عرض الدنيا وطولها، وستواصل سيرها بإذن الله وتوفيقه، ولا يضرها من خالفها، حتَّى تزحزح جميع تلك الأفكار المعارضة لها؛ ليظهر نور التوحيد الخالص، وتحكم الشريعة أرجاء الدنيا؛ لأن العاقبة للمتقين.

وأصحاب هذه الدعوة لا يفترون إن شاء الله، بل يعملون ويبلغون، وكلهم أملٌ بل يقينٌ بالنصر والظهور والبقاء، إيْمانًا منهم بأخبار الصادق المصدوق مُحمَّد رسول الله ﷺ، الذي بشر دعاة الحق وأصحاب العقيدة الحقة بالنصر والظهور، وعدم تأثير المخالفين فيهم وفي دعوتهم، مهما حاولوا خذلانَهم إذ يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حَتَّى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[1].

ولفظ مسلم من حديث جابر: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون، على الحق ظاهرين، إلَى يوم القيامة، فينْزل عيسى بن مريم، فيقولون له: تعالَ صل بنا، فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة أكرم الله بها هذه الأمة»[2].

وفي حديث أبي هريرة عن ابن ماجه: «لا تزال طائفة من أمتي قوَّامة على أمر الله، لا يضرها من خالفها»[3].

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند الحاكم: «لا تزال طائفة من

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم (١٥٦) من حديث جابر ﷺ.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩١).

أمتي ظاهرين على الحق حَتَّى تقوم الساعة»[1].

ويُعد هذا علمًا من أعلام النبوة لرسول الهدى مُحمَّد ﷺ.

وقد جَمع أهل العلم بين هذه الأحاديث وبين الحديث القائل -وهو صحيح-: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»[2]. بأن المراد بهذه الغاية "حَتَّى"؛ أي: قرب قيام الساعة، وذلك حيث تأتي الريح فتقبض روح كل مؤمن، وهو المراد بأمر الله هنا. هكذا قالوا، وهو صنيع حسن وتوفيق موفق إن شاء الله.

* * * * *

(١) أخرجه الحاكم (٤/٤٩٦) من حديث عمر ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٨٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٩) من حديث ابن مسعود ﷺ.

آثار الدعوة السلفية في البلاد السعودية

وهذه الدعوة السلفية المباركة لَها آثار مَحلية فِي الديار السعودية، وهي ملموسة لمس اليد لكل من يعيش فِي هذه البلد مواطنًا أو وافدًا على السواء، ولَها آثار خارجية ليست أقل وضوحًا من الآثار المحلية.

أما الآثار المحلية؛ فيمكن أن نوجزها فِي فقرتين:

١- **الفقرة الأولى** ومن أبرزها وأعمِّها نفعًا للبلاد والعباد: قيام دولة إسلامية سلفية فِي قلب الجزيرة العربية "**الحكومة السعودية**" الَّتي أعلنت أن دستورها القرآن الكريم، وحكمت شريعة الإسلام فعلاً، وليس مُجرد دعوى، وحافظت على المقدسات الإسلامية، مكة المكرمة، والمدينة النبوية، حَتَّى مكنها الله فِي الأرض، فأمرت بالمعروف ونَهت عن المنكر، فمنحها الله من التوفيق والسداد والمنعة والمهابة ما لَمْ يمنح غيرها، فتمتع المجتمع السعودي بِما لا يتمتعُ به أيُّ مُجتمع آخر من نعمة الأمن والاستقرار والرفاهية فِي الحياة، كلُّ ذلك بفضل الله تعالى ومنِّه وكرمه وهو المنعم المتفضل، ثُمَّ بفضل تحكيم شريعة الإسلام والتمسك بالعقيدة الإسلامية السلفية والدفاع عنها ومؤازرتِها وتشجيع القائمين بِها، وهو أمر ملموس لمس اليد، لا يحتاج إلَى دليل كما قلت، فنسأل الله التوفيق للجميع، ولنشكر الله على هذه النعمة، لتدوم؛ فقيد النعم الشكر، ومن أسباب زوالِها الكفران، أو

مقابلتها بالمعاصي والإعراض عن الله وعن تعاليم دينه عمليًّا.

ومُجرد الدعوى لا يجدي عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه عليم بذات الصدور، ولا تنطلي عليه الأمور والتصريحات الجوفاء والهتافات الَّتي تَملأ الأجواء، ولنكن صادقين مع الله العليم بذات الصدور.

وبعد؛ ثُمَّ أواصل كلامي فأقول: ولَمْ توجد فِي العالم المعاصر دعوة إسلامية قامت على منهجها دولة إسلامية غير دعوة الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب -رحمه الله- ولعل الله علم -وهو العليم الخبير- من الإمامين -ابن سعود وابن عبد الوهاب- الصدق والإخلاص له سبحانه فِي عملهما، والله لا يقبل إلا العمل الخالص له، فحقق الله على أيديهما للأمة السعودية هذا الخير، ثُمَّ بارك الله لَهما فِي ذريتهما، حَتَّى واصلت المسيرة، فها هي الآثار تتحدث بنفسها.

هكذا تجسدت الدعوة السلفية المباركة فِي قيام الدولة السعودية فِي قلب الجزيرة العربية؛ لتكون ملجأ لكل مسلم مضطهد فِي دينه فِي أي أرض، ولله الحمد وحده والمنة.

٢- **وأما الفقرة الثانية** من آثار الدعوة المباركة؛ فتتجسد فِي المنهج الدراسيِ المتبع فِي السعودية، فقد التزمت جهات التعليم فِي السعودية أن يكون المنهج المقرر بالنسبة للمواد الدينية هو المنهج السلفي فِي جميع المراحل، بدءًا من المرحلة الابتدائية، وانتهاءًا إلَى الدراسات العليا.

فالشاب السعودي يبدأ فِي دراسة العقيدة على المنهج السلفي من

السنة الأولى الابتدائية، ثُمَّ يواصل دراسة العقيدة والشريعة الإسلامية على المنهج نفسه بتوسع مطرد ومتفاوت إلَى درجة الدكتوراه، كما ينهج هذا المنهج نفسه الطلاب الوافدون من خارج البلاد للدراسة في الجامعات الإسلامية السعودية، ليتخرجوا على ذلك المنهج السلفي، ثُمَّ يعودوا إلَى بلادهم، لينذروا أقوامهم إذا رجعوا إليهم، ويدعوهم على المنهج الذي درسوه، الذي أصبح غريبًا لدى الكثيرين، وهم قد درسوه وآمنوا به، فلا يوجد في الجامعات الإسلامية السعودية ولن يوجد -إن شاء الله- منهج منافس يزاحم المنهج السلفي كما أشرنا سابقًا، وذلك من ثَمرات جهاد ذلك الإمام السلفي المصلح الذي قضى على كل بدعة مُحدثة في الدين.

فإذن؛ يعتبر بحق المنهج السلفي من أعظم آثار تلك الدعوة المباركة.

ومِمَّا يحرص عليه المربون دائمًا أن يكون المنهج صالحًا، ثُمَّ يكون المعلم صالحًا. فإذا كان المنهج صالحًا والمعلم صالحًا واعيًا، وعضوًا نافعًا في المجتمع؛ فالمجتمع الذي يتألف من مثل هؤلاء الشباب الصالحين، الذين درسوا ذلك المنهج الصالح، وتخرجوا على أيدي الرجال الصالحين؛ هو المجتمع المسلم حقًّا، الذي يفهم معنى الإسلام، ويعتني بالإسلام، ولا يبغي به بدلاً، ولا يرضى سواه، بل يرضى بالله ربًّا، وبالإسلام -بمفهومه صحيح- دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً وقدوة وإمامًا.

فإذا تحققت هذه المعاني بإذن الله، يكون الفضل لله ثُمَّ للمصلح

المجدد الذي دعا الناس إلَى هذا الخير وذلك الهدى، فيكون له أجر كل من عمل بالمنهج الذي دعا إليه وبيَّنه للناس، ولا ينقص من أجور العاملين به شيء من الأجر، هكذا بشر الصادق الأمين مُحمَّد رسول الله ﷺ دعاة الحق الذي يُحاولون رد الناس إلَى الجادة بدل "بُنيَّات الطريق" المضللة؛ إذ يقول ﷺ: «**من دعا إلَى هدى؛ فله أجره وأجر من عمل به إلَى يوم القيامة**»(١). ويقول ﷺ: «**الدَّال على الخير كفاعله**»(٢).

فتصديقًا لهذا الخبر الصادق من نبي الله ﷺ نرجو أن يكون له ولمن آزره وساعده على الدعوة مثل أجر من عمل بهذا المنهج السلفي الصالح بعده؛ إذ تعتبر حجر الأساس لما يتمتع به اليوم المجتمع السعودي من سلامة العقيدة وتحكيم الشريعة والاستقامة على الدين، وما يتمتع به الطلاب السعوديون والطلاب الوافدون على بعض الجامعات الإسلامية السعودية من دراسة ذلك المنهج الصالح البريء هو إنقاذ لَهم من تلك السموم الَّتي دُسَّت في كثير من المناهج الدراسية في كثير من الجامعات ودور التعليم في العالم المعاصر، من آراء أهل الكلام والفلسفة وشطحات الصوفية وغيرها من أنواع الإلحاد.

فجزى الله مُحمَّد بن عبد الوهاب ومُحمَّد بن سعود خير ما يَجزي به الدعاة الصالحين، وتقبَّل منهما عملهما؛ إنه جواد كريم.

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ، ولفظه: «من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله».

آثار الدعوة السلفية في العالم المعاصر

إن هذه الدعوة المباركة تعتبر -كما قال بعض المستشرقين-: "الشعلة الأولى لليقظة الإسلامية الحديثة في العالم الإسلامي كله"، هكذا صرح بعض المستشرقين، والخير ما شهدت به الأعداء.

حقًّا؛ إنَّها الشعلة الحديثة للصحوة الإسلامية ولليقظة الواعية الَّتي تنتهج منهج السلف الصالح، والذي ينحصر فيه كل خير وكل فضيلة، وهذا الاتباع أو التمسك بمنهج الرعيل الأول هو سر البركة، ولذلك تَجد آثارها ظاهرة اليوم في جَميع قارات العالَم تقريبًا، وبصفة خاصة في القارة الإفريقية، الَّتي انتشرت فيها المدارس السلفية بشكل يلفت النظر، وقد فتحت لَها فيها آفاقًا واسعة، فتلك المدارس المنتشرة هنا وهناك تدرس المنهج المتبع في السعودية نفسه، وهو المنهج السلفي الذي سبق أن تَحدثنا عنه، وكذلك الحال في القارة الهندية، حيث توجد في بعض ولايات الهند وفي باكستان مدارس وبعض الجامعات الأهلية تدرس المنهج نفسه في المواد الدينية.

وقد كثر في العالم المعاصر من ينهجون المنهج السلفي، مؤمنين به، داعين إليه، يعرفون في القارة الهندية بـ"السلفيين"، وبـ"أهل الحديث"، وفي بعض الدول العربية وغيرها يعرفون بـ"أنصار السنة المحمدية"؛

كمصر، والسودان، والصومال، وتايلاند، ويعرفون في الشام بـ"السلفيين"، وكلهم يُنادون بالعودة إلَى الإسلام عقيدة وأحكامًا بمفهومه الصحيح، وأن يهجر علم الكلام الذي حال بين الناس وبين فهم العقيدة الصحيحة الَّتي كان عليها الرعيل الأول، ويستبعد من المنهج الدراسي في جَميع المراحل، ويستبدل به المنهج السلفي الذي مصدره كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الذي لا يعرف عند السلف غيره.

وللجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وجامعة الإمام مُحمَّد بن سعود الإسلامية بالرياض موقف كريم وعمل صالح ونشاط مشكور في انتشار العقيدة السلفية في تلك المناطق النائية في إفريقية وشرق آسيا والقارة الهندية وفي كثير من الدول العربية، يتمثل ذلك في الطلاب الوافدين على هاتين الجامعتين من تلك الأقطار، فيتخرجون منهما كل عام بأعداد متفاوتة؛ ليرجعوا إلَى بلادهم؛ لينذروا أقوامهم، ولينشروا فيهم العقيدة السلفية السليمة، فنسأل الله للقائمين عليهما مزيد من التفويق والإخلاص لله سبحانه.

وأخيرًا؛ فإن العقيدة الإسلامية السلفية لا تزال تسير كما أسلفنا سيرًا حثيثًا وهادئًا، وهي في تقدم مطرد، ولا يكاد يرجع عنها من دخل فيها رغبة عنها إذا عرفها على حقيقتها: سَماؤها تَمطر دون بروق أو رعود مزعجة، بل تُمرط "ديمًا" ذلك المطر الذي ينْزل في هدوء تام ويدوم، ولكنه لا يجرح الأرض ولا يَحفرها، بل يروي الأرض حتَّى